سوق حُباشة

دراسة علمية ميدانية

سعد بن علي الماضي



المملكة العربية السعودية

عسير ـ أبها : 61411

ص.ب : 478

هاتف : 009662244210

adabiabha@hotmail.com



ص.ب. 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com

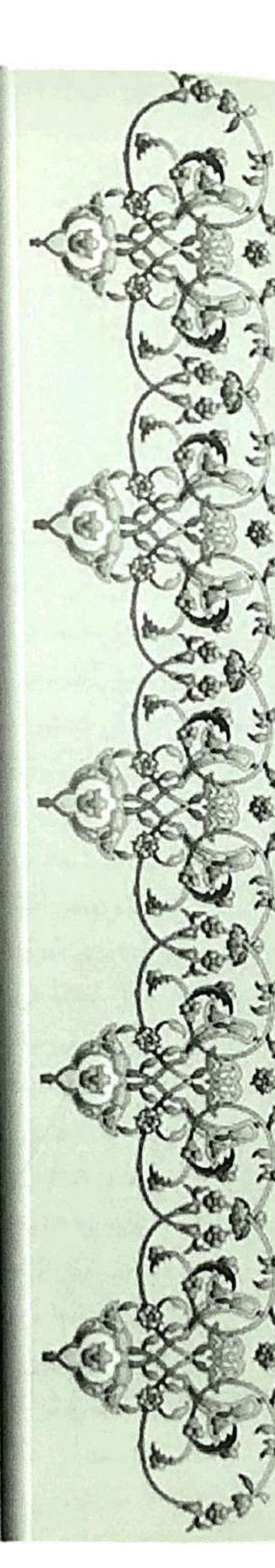
www.alintishar.com

بيروت ـ لبنان

هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-9953-93-027-5

الطبعة الأولى 1438هـ / 2017م





﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

صدق الله العظيم

المحتويات

بين يدي الكتاب

حين أقر مجلس إدارة نادي أبها الأدبي في عام 1433هـ إنشاء اللجان الثقافية كان يدرك أن المسؤولية ستكون كبيرة، وبخاصة أن منطقة عسير ومحافظاتها متعطشة للعمل الثقافي. ولا شك بأن النشاط المؤسسي أكثر قدرة على الاستمرار، وعلى تطوير قدراته ومشروعاته؛ إذا دعمه المنتمون له وفتحوا الأبواب للشراكات المجتمعية، وهو أقدر على استقطاب القدرات المختلفة. ولذلك كان امتداد نادي أبها الأدبي من خلال لجانه قائما على شراكة إدارية مع إمارة المنطقة ممثلة في صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن خالد بن عبد العزيز أمير منطقة عسير، الذي منح الإذن بل ووجه- حفظه الله- محافظي المحافظات ورؤساء المراكز بالتعاون مع النادي لتحقيق مشروعه الثقافي المؤسسي. وللحق والتاريخ فقد كان المحافظون ورؤساء المراكز عونًا لمجلس الإدارة، وللزملاء أعضاء اللجان الثقافية؛ الذين يعملون دون امتيازات مالية تستحق الذكر. وقد استطاعت إدارة النادي – بفضل الله – أن تنشئ خلال أربع سنوات فحسب سبع لجان ثقافية، وهي بحسب ترتيب إنشائها:

1 – اللجنة الثقافية في تنومة.

2 – اللجنة الثقافية في ظهران الجنوب.

3 – اللجنة الثقافية في رجال ألمع.

4 – اللجنة الثقافية في محايل.

5 - اللجنة الثقافية في بارق.

6 - اللجنة الثقافية في المجاردة.

7 - اللجنة الثقافية في بيشة.

وبعد مرور عام كامل على إنشاء آخر لجنة ثقافية أخذنا في مراجعة وتقييم التجربة؛ فأعلنا عن «ملتقى اللجان الثقافية التابعة للنادي في منطقة عسير»، وهو الملتقى الأول للجان الثقافية على مستوى المملكة، واستضفنا فيه أمناء اللجان الثقافية السبع التابعة للنادي لحوار شفاف وصريح عبر جلستين: كانت الأولى مفتوحة بحضور جمعٍ من مثقفي المنطقة وأدبائها، وكانت الثانية مقصورة على **رئيس مجلس إدارة النادي والمشرف العام على اللجان الثقافية** في منطقة عسير، ورئيس **لجنة المحافظات** (اللجنة المشرفة على اللجان الثقافية)، وأمنائها؛ حيث دار الحوار بشفافية عالية، وأكد المشاركون جميعا على: أهمية العمل الثقافي في هذه اللجان، وبادر النادي إلى الإعلان عن رفع المكافأة المالية للبرامج الثقافية، واعتماد طباعة ثلاثة كتب باسم كل لجنة؛ يكون اختيارها وترشيحها من مسؤوليات الزملاء أعضاء اللجان، وتضاف بصفتها حقلا مستقلا إلى إصدارات النادي المخصصة لحقول الإبداع والدراسات، والبواكير؛ بحيث يكون اسم اللجنة مضافًا إلى جوار اسم النادي وشعاره؛ ويأتي ذلك تأكيدا على مبدأ الشراكة بين هذه اللجان وبين مثقفي محافظاتها وبين النادي، بالإضافة إلى كونه احتفاء بخدمة المبدع ودعم نتاجه الفكري والجمالي. وهذا الكتاب الذي نقدمه للقراء ممهورًا باسم النادي واسم اللجنة الثقافية التي رشحته ثمرة يانعة من ثمرات هذا العمل... والله من وراء القصد..

د. أحمد بن علي آل مريع
رئيس مجلس إدارة نادي أبها الأدبي
المشرف العام على اللجان الثقافية بمنطقة عسير

مقدّمة

الحمدُ للهِ الّذي أكملَ للمسلمينَ دينَهم، وأسبغَ عليهم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً، وهداهم إلى صراطٍ مستقيم. أَمَرَ بالسَّيرِ في الأرضِ للاعتبارِ في مصائرِ الأمم، والوقوفِ على آثارهم للتفكُّرِ في تبدُّلِ أحوالِهم. والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ ربِّ العالمينَ، سيّدِ وَلَدِ آدمَ، وشفيعِ المؤمنينَ، محمّدِ بن عبدِ اللهِ الصّادقِ الأمين. والرِّضَى عن آلِ بيتِهِ الطَّيِّبينَ، وزوجاتِهِ الطّاهراتِ أمّهاتِ المؤمنينَ، وصحابَتِهِ الأبرارِ الميامين، ومَنِ اقتَفَى أثرَهم واتَّبعَ الحقَّ والهُدَى إلى يومِ الدِّين.

أمّا بعدُ:

فإنّ التجارة كانت وما زالت من ضرورات الحياة المعيشية، بين أفراد المجتمع الواحد، وبين المجتمعات التي تختلف أنماط حياتها وتتباعد بلدانها.

وكان التزام العرب كافةً في جاهليتهم بخصوصية الأشهر الحُرُم، أمانًا لهم من انتهاك الحرمات أو شن الغارات، أمانًا يجدون في كنفه بيئة زمانية آمنة مستقرة، يسيرون فيها أو يجتمعون لا يخشون بأسًا، وكان لقريش إيلافها الذي تسير به في أيام السنة كلها.

وكان من شأن العرب في جزيرتهم أنِ اهتمّوا بالتجارة، واتصلوا بالأمم الأخرى عبر البرّ والبحر، واهتموا بالمرافئ والسفن الشراعية لتجارة البحر، وبالأسواق الموسمية والدائمة لتجارة البر.

ولقد سعى العرب في جزيرتهم إلى تنظيم هذه التجارة، تنظيمًا ارتبط بعضه بأشهر

الحج؛ فأنشأوا أسواقًا يجتمعون فيها وتجلب إليها بضائع اليمن والشام والعراق وغيرها.

ولكن خصائص العرب تأبى عليهم إلا البروز، وفي مقدمتها المفاخرة بأحسابهم والمباهاة بأنسابهم، فكانت المنافرات سمةً من سمات هذه الأسواق أو بعضها. وكانت سوق عكاظ في صدارة هذه الأسواق، وهي أكثرها أخبارًا في المصادر القديمة، بحيث يمكننا الظن بتشابه مناشطها ومناشط الأسواق الأخرى، ولو إلى حدٍّ ما.

وكان تحقيقي كتابَ أبي عليٍّ لُغْدَةَ الأصفهانيِّ[1] ـ رحمه الله تعالى ـ الذي جمع فيه نصوصًا كثيرةً عن منازل العرب في جزيرتهم، قد دفعني إلى التجوال العلمي في الديار، والتأمُّل في طبيعة الأرض وفي الآثار، فطوَّفتْ بي في الآفاقِ الأسفارُ، بين شمال المملكة العربية السعودية وجنوبها، وبين شرقها وغربها، ولم أسأم التكرار في بعض المواضع؛ حين يزيدني ذلك معرفةً وإدراكًا، ويضيف إلى حصيلتي في التحقيق ما أريدُ به متعةَ القارئ ومنفعته، وتقديمَ ما يشرِّفني من جَهدٍ إليه؛ فإذا ما ذُكرت بعضُ الطُّرُقِ، أو كانت معرفةُ منازلها سببًا في دقّة التّحقيق، شخصتُ إلى مواضعها، وكرَّرتُ زيارتها، أو زرتُها ثلاث مرّاتٍ أو زدتُ عليها، واستشرتُ قُرّاءَ البلدانيات، وخرّيتي الأرَضِين الذين سعوا في البلاد، وأَنِسْتُ لآرائهم، فإن من استشار الناس شاركهم في عقولهم.

وفي آخر كتاب لغدة جاء ذكر مواضعَ في شِعرِ كُثيّر بن عبد الرحمن الخزاعيّ، فلما أنعمتُ النظر في داليته في رِثاء خندق الأسَديّ، علمتُ أن لذلك الرثاء علاقةً بسوق حُباشة، فقلّبت أوراق المصادر، وتبيّن لي أن قراءة المتأنّي ربما تُسعفه على استنباط دلالات النّصوص وجِلاء غموضها.

لقد ألحّت عليَّ نفسي بأن أذهب إلى قنونَى وحلي، وأن أسير في ما بينهما من

(1) هو أبو علي الحسن بن عبد الله الأصفهاني، ويعرف بلغدة، عالِم من علماء اللغة والأدب والنحو، واطلع على بعض كتب البلدان والأدب ككتاب (جزيرة العرب) للأصمعي، و(النقائض) لأبي عبيدة. والراجح أن وفاته كانت سنة 311 هجرية. وقد نشر الشيخ حمد الجاسر كتابه (بلاد العرب) سنة (1388هـ) وعرّف بمؤلفه تعريفًا كافيًا.

بقاع، ومعرفة طبيعتها بما في ذلك بلاد بارق الحالية، للتأمل في وجه الأرض ومسالكها في سبيل الاهتداء إلى موقع سوق حُباشة.

ولقد قرأتُ في مظان تحديد السوق في مصادر ومراجع كثيرة، فمنها ما كان موجودًا لديَّ، كمجلة (العرب)، وحوليات سوق حُباشة، ومصادر السيرة النبوية الشريفة ومراجعها، وكثير من كتب الحديث والرِّجَال والأدب، وأطلس منطقة عسير الإدارية[1].

ثم حمَّلتُ في جهاز الحاسب الآليّ ما وجدته منشورًا على الشبكة العالمية بصيغة الـ (PDF) من كتيّبات أو مقالات ليست في حوزتي.

وكان انتفاعي من مكتبة الأخ الأستاذ سعد بن عبد العزيز اليحيّان الخاصة في البحث كبيرًا؛ حيث تزخر بأمهات الكتب النادرِ أمثالها في مكتبتي، في فرعين من فروع المعرفة الشرعية والإنسانية، فهو ممن اهتمّ بكتب التفسير والتاريخ، التي أضاف إليها بعد حينٍ ما وقع تحت نظره من كتب علم البلدان. وما أفدته من رؤى تشاورية مع زميلي الأخ الأستاذ راشد بن عبد العزيز الصعب خلال تجوالنا في طريق الهجرة النبوية الشريفة، حول عدم التغافل عن مواطن القبائل، أو طريقة وصف المكان وغيرهما.

ثم قرأت كثيرًا، وأنا لا أشك في أن موقع السوق في قنونَى، وكانت غايتي أن أُعْمِلَ فكري لاستيعاب الموضع المحدد ودلالات النصوص؛ للاطمئنان إلى دقة تحديد موقعه؛ والتعريف به في كتاب لغدة، وإلا فإنّ شيخَنا مؤرخ تهامة حسنَ بنَ إبراهيمَ الفقيه، الذي حقّق موقعَيْ مدينتَيْ عشمٍ والسَّرَّيْنِ[2]، حين يحدد موضعًا فإنه يحدده برؤية المحقق الواثق، غير أنه بدَا غيرَ جازمٍ في موقع سوق حباشة، حين التمس له موقعًا يراه مقبولاً في وادي قنونى، ولم تكنْ تلك عادته ولا طريقته، ولعل حَيْرتَه وعدمَ إتيانِهِ بدليلٍ قَطْعِيٍّ منَعاه من نشرِه في كتابٍ.

(1) أتحفني بنسخةٍ جيدةٍ منه الأخ صالح بن محمد اليُحيّان، شكر الله فضله.

(2) أصدر حسن الفقيه كتابين من سلسلة سماها (مواقع أثرية في تهامة)، هما:
ـ مخلاف عشم. طبع في عام 1413 وعدد صفحاته (553) صفحة.
ـ مدينة السّرّيْن الأثرية. طبع في عام 1413 وعدد صفحاته (211) صفحة.

ولئن كان العلامتانِ حمدُ الجاسر وعاتقُ البلاديّ قد أدليَا دلوَيهما في تحديد موقع سوق حباشة، فإن رأييهما المتباينَين أقرب من رأي الفقيه ـ تغمدهم الله جميعًا برحمته الواسعة ـ إلى تصوُّرِ موضع السوق، وإن لم يجاوزا فيه وادي قنونى؛ حيث أدركت بعد زُمينٍ من الاستقصاء أن الأدلة التي قادتهم إلى حصر تحديده في قنونى غير كافية لقبولها إن لم تؤازرها أدلة أعلى منها.

إن هؤلاء العلماء والباحثين الذين انبروا لتحديد السوق ممن سبقوني لم يتركوا موضعًا من قنونى يصح أن تقوم فيه سوقٌ ـ كيفما كانت ـ إلا وذكروه؛ فالباحث المجد كالرائد لا يكذب أهله. ولقد أعذروا من أنفسهم في إطار النصوص التي اطلعوا عليها، لم يكن من بينها نص مهم لابن سعدٍ الزُّهري، هذا من زاوية، والزاوية الأخرى تختص بوادي قنونى نفسه؛ فإن من يقطع الوادي بين نقاط التقاء روافده الكبرى، التي يبدأ اسمه عندها وبين مخرجه من الجبال، لا يجد فيه موضعًا غير ما وجده أولئك الباحثون.

من هنا فقد كان البحث عن سوق حباشة بين أسطر صفحات الكتب، أول خُطا الباحث المُجِدّ، فجمعت النصوص ثم حللتها، وتوكلت على الله القوي المعين.

إن قراءة متأنية في أسواق العرب، توحي بأن ندرة التفاصيل الواردة في المصادر، قد ساهمت في عدم الاهتداء إلى المواضع الدقيقة لهذه الأسواق، وحسبُ الباحثين القادرين على التحقيق أن يقتربوا من مواضعها، وإن لم تكن معرفتها قطعية.

ولم تكُ سوق حُباشة أوفرَ حظًّا من أترابها، بل كادت تنفرد بِشُحِّ المعلومات عن موقعها، وعن طبيعة مناشطها والبضائع المبيعة فيها، ولولا نُتفٌ من هذه الأخبار، التي تكاد لا تروي ظمأ الصادي، لَجُهِل أمرُها وموقعُها.

ولقد يسَّر الله تعالى لنا ـ نحن البلدانيين ـ أن يكون النقاش حول ضبط اسم حُباشة سببًا في تأليف سِفرٍ بلدانيٍّ عظيم، هو (معجم البلدان)، الذي جمع فيه الإمام ياقوت الحموي ـ رحمه الله ـ كَمًّا كبيرًا من المعلومات، وإن لم يكن حظُّ حباشة منه عظيمًا. ومن ما قال ياقوت في مقدمة كتابه: «وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب، أنني سُئلتُ بمرْو الشاهجان، في سنة خمس عشرة وستمائة عن حُباشَةَ: اسم موضع جاء في الحديث النبويّ، وهو سوقٌ من أسواق العرب في الجاهلية. فقلتُ: أرى أنه

حُباشَةُ بضم الحاء، قياسًا على أصل هذه اللفظة في اللغة، لأنّ الحُباشَةَ: الجماعة من الناس من قبائل شتى. فانبرى لي رجلٌ من المحدّثين، وقال: إنما هو حَباشةُ بالفتح. وصَمَّمَ على ذلك وكابَرَ، وجاهَرَ بالعناد من غير حُجّة وناظَرَ، فأردْتُ قطعَ الاحتجاج بالنَّقل، إذ لا مُعَوَّل في مثل هذا على اشتقاق ولا عَقْل، فاستعصى كَشْفُه في كتب غرائب الأَحاديث، ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بِمَرْوَ يومئذ، وكثرة وجودها في الوقوف، وسهولة تناولها، فلم أَظْفَر به إلا بعد انقضاء ذلك الشَّغَب والمِراء، ويأْسٍ من وجوده ببَحْث واقتراء، فكان موافقًا والحمد لله لما قُلْتُه، ومَكيلاً بالصاع الذي كِلتُه، فأُلقِيَ حينئذ في رُوعي افتقارُ العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطًا، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتَّقييد مخطوطًا، ليكون في مثل هذه الظُّلمة هاديًا، وإلى ضوء الصواب داعيًا[1]».

وغاب حديث أسواق العرب، ومن بينها سوق حباشة، عن أسماع العرب في جزيرتهم قرونًا، حتى جاء الأستاذ سعيد بن محمد الأفغاني ـ رحمه الله ـ وجمع بعض أخبار هذه الأسواق، في كتابه (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام)، الذي صدر أولَ مرة عن المكتبة الهاشمية بدمشق، سنة 1356 هجرية. غير أنه لم يأتِ عن سوق حباشة بجديد.

ثم عادت شهرة سوق حُباشة، فطرقت الأسماع قبل ما يزيد عن عقدين من الزمن، حين أسس أستاذي الدكتور عبد الله بن محمد بن حسين أبو داهش ـ جزاه الله خيرًا ـ كتابًا سنويًا متخصصًا، أسماه (حوليات سوق حباشة)، فاستحق بذلك الشكر والثناء عرفانًا من مجتمع جنوب المملكة العربية السعودية بجهوده الطيبة في التعريف بإرثٍ تأريخي للأزد، يتمثل في هذه السوق، التي امتدت مناشطها من حقبة الجاهلية إلى قبيل نهايات القرن الهجري الثاني.

وقد جعل أبو داهش من (حوليات سوق حباشة) مناشط[2] مكتوبة، فتسامت إلى

(1) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1397هـ / 1977م، ج1، ص10

(2) مناشط: جمع منشط، وأعني بها ما يكون في السوق من أعمال منظّمة، واصطلاح الكلمة مستحدث، ولكنّ لها وجهًا في الفصحى لا نجده في كلمتي (نشاط وأنشطة)، وفي المناشط ما يوحي بالمسارعة إلى أمرٍ ما طواعيةً.

العلاء، وفاقت ما وصل إلينا خبره من تلك المناشط التي كانت في عكاظ؛ حيث سجَّل فيها ما تيسّر له من تأريخ الأدب في جنوبي جزيرة العرب، وأحوال السكان منذ فجر الإسلام وما تلاه من حِقب. وإن سوقًا كبيرة بين مكة واليمن، هي سوق حُباشة، سيكون من بين مناشطها ما يشابه مناشط عكاظ، كالتي رمى إلى إبرازها هذا الدكتور البَرّ المفضال، وإن لم تكن تلكم المناشط بالكيفية نفسها في هاتين السوقين.

ومن ما يوحي بأن مناشط بعض الأسواق متشابهة، ومنها عكاظ ومجنة، كرفع الرايات البِيضِ والسُّودِ، ونقلِ الشعر، ومقارعةِ الخصوم، بحيث يندرج ذلك على سوق حباشة، ما أورده مصنِّف (تاج العروس) في مادة (عكظ) من قول لحسّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يَرُدُّ فيه هجاءَ أميّة بن خلف الخزاعي إيّاه:

أَتَــانِــي عَــنْ أُمَــيَّــةَ زُورُ قَــوْلٍ	وَمَا هُوَ في الْمَغِيبِ بِذِي حِفَاظِ
سَـأَنْـشُـرُ إِنْ بَـقِـيـتُ لَـكُـمْ كَـلَامًـا	يُنَشَّرُ في الْمَجَنَّةِ مَعْ[1] عُكَاظِ
قَـوَافِـيَ كَـالـسِّـلَامِ إِذَا اسْـتَـمَـرَّتْ	مِنَ الصُّمِّ الْمُعَجْرَفَةِ الْغِلَاظِ
تَـزُورُكَ إِنْ شَـتَـوْتَ بِـكُـلِّ أَرْضٍ	وَتَرْضَخُ فِي مَحَلِّكَ بِالْمَقَاظِ

فإنّ حسّانَ حين ذكر نشر الشِّعر في مجنّة وعكاظ، يهبُنا دليلاً لا غبار عليه، في أن من مناشط مجنّة ما يشبه مناشط عكاظ.

ووجود سوق حباشة في بلاد الأوصام من بارق لا بُدّ من أن يكون برضَى الأزد؛ فالأوصام هم الذين يُنظِّمون السوق ويحفظونها من الفوضى، بمساعدة بارق كلها، وحين اختلَّ نظامها وقُتل فيها الوالي الغنوي الذي بعثه إليها أمير مكة العباسي، لسببٍ لم تسعفنا بمعرفته المصادر، خُرِّبت وانتهى نشاطها.

ورغبة مني في الاستزادة من المعلومات، والاطلاع على الرأي العام بخصوص سوق حباشة، كتبتُ في الرابع والعشرين من شوال سنة (1434) هجرية، رأيًا شُوريًّا

(1) رواية الديوان بتحقيق: وليد عرفات، بيروت، دار صابر، 2006 م، ص (153): يُسَيَّرُ في المجامعِ من عكاظِ. وأرى الروايتين صحيحتين كلتيهما؛ لعِظم أمر عكاظ وكفايتها، أو لأن مجنة أقربَ الأسواق إلى خزاعة. وإن كان الديوان جعل المهجوَّ أمية بن خلف الجُمَحي! وجعل شطر البيت الأول: «أتاني عن أُمَيَّ نَثَا كلامٍ».

في منتديين على الشبكة العالمية يهتمان بالجوانب البلدانية، هما منتديا (مكشات) و(الرحلات)، وجعلتُ عنوانه (حتّى لا يكونَ في تهامةَ حُباشتانِ)، ومن ما جاء فيه:

«ورب عامّيّ لم ينل شهادةً دراسيةً كان أفقهَ من أكاديميٍّ أو باحثٍ ميدانيٍّ، فيأتي برأي هو إلى الصواب أقربُ من مجلَّدات كُتِب ومحاضرات بُثّت.

ومن أهم ما يؤخذ بعين الحسبان مواقع أسواق العرب...

إن سوق حباشة لبارق، للأوصام منهم، فإنْ جهِلْنا ورثة الأوصام اليوم فلن نجهل أنّ لبارق حق نسبة السوق إليها، وأجزم أن معظم الأوصام لا يمكن أن يخرجوا من بارق ويتحالفوا مع آخرين من قبائل الأزد؛ لأن مسوغات التحالف غير موجودة، فبارق قبيلة مستقرة، وأهل قنونى مستقرون.

إنّ حلَّ مسألة سوق حباشة غير ممكن ما لم تكن قبيلة بارق طرفًا في نقاشها، وإن ظهور بحث أو كتاب أو رأي حول سوق حباشة، مهما قدّرناها ووجّهنا الشكر والعرفان إلى من قدّموا هذه الآراء والأعمال الجليلة، فإن ذلك كله لا يسوّغ لأحدٍ البتَّ في اعتماد تسمية السوق التي في صدر قنونى باسم (سوق حباشة)، والتي حين تؤسَّس على الرأي الذي لا يدعمه سوى حجارة منصّبة هنا وهناك، قد نجد منها بين قنونى وبارق والقنفذة عشرات المواقع، كل ذلك قد يكون مدعاة للكذب على رسول الله ﷺ، والذي وردها متاجرًا في مال أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وإن لم يكن ذلك من ضرورات الدين، غير أنه من الباطل أن نقول: «هنا حضر الرسول»! إلا أن يكون لدينا دليل.

إنه لا بُدَّ للسوق من أن تكون متسعة سعةً كافية لنزول الناس حولها، وأن تكون ذات ماء وفير، وشجر وارف الظلال، من غير أن يكون في قاع أو مجرى وادٍ، وأن تكون متوسطة بين القبائل التي تحضر إليها...»[1].

ولقد أكثر القراء الردود، فقرأتُ آراءهم، وعرفت منطلَقَها وغايتها، وأفدت منها.

(1) المقال على الموقعين:

www.alrahalat.com/vb/showthread.php?t=23412

www.mekshat.com/vb/showthread.php?t=592103

وما هذا الجهد الذي أقدمه إلا مساهمة في إبراز تراث جزيرة العرب وتاريخها، وعلى وجه التخصيص إرث جنوب المملكة العربية السعودية، الذي أراه زاخرًا بالدُّرّ، ولم يأنِ للباحثين أن يخرجوه.

لقد ألمحت من قبلُ إلى نصٍّ مهم لابن سعد في (طبقاته) نقله عن الواقدي ـ رحمهما الله ـ ربط فيه بين موقع سوق حباشة وطريق الجَنَد، ولولا عثوري ـ بتوفيق من الله ـ على ذلك النصّ، الذي آزره استقرائي المتأني حول حادثة مقتل خندق الأسدي، التي رواها مصنف (الأغاني)، وأوردها ياقوت بصيغة مختلفة، لَمَا رأيت الإقدام على خوض غِمار بحر تحقيق سوق حباشة، وهو أمر سبقني إليه مَن هم أبعد مني شأوًا في المعرفة والإحاطة.

ومن نافلة القول: إن الحيّز مجال الدراسة وآراء المؤلفين المعاصرين، يقع في الأصدار بين تهامة والسراة، بين مصاب أودية ناوان والأحسبة، وقنونى ـ حيث القنفذة ـ، ويبة ـ حيث القَوز ـ، وحلي ـ حيث كياد ـ، وبين أعاليها تحت سروات باشوت والنماص وتنومة، وما حولها، وَفْق ترتيب هذه المواضع من الشمال نحو الجنوب.

وأسأل الله تعالى أن يأخذ بيدي، كي يكون جهدي مفيدًا يظهر للقارئ من خلاله عدم التحيز إلا إلى الحقيقة.

جاء في كتاب (عسير والتاريخ): «وإن لم تتفهم أهمية أن تكتبَ التاريخ بالطريقة الصحيحة، فقد تركتَ للآخرين أن يؤَصّلوا مصدرية تحريف روايته للوصول لغاياتهم . . . فالركون إلى أن مجرد كتاب، أو كتابين أو عشرة كتب أو أكثر، تحاول أن تلوي عنق التاريخ في عصرنا الحالي، ستتمكن من استغفال الآخرين على مدى الزمن، وإقناعهم بحقيقة جديدة متكاملة، فرضناها بطريقة غير منطقية»[1].

إن استقراء التاريخ والبحث في علم البلدان، يحتاجان إلى التريث والابتعاد عن النزعة الإقليمية التي يراها أهل بلدٍ ما إرثًا لا ينبغي التفريط فيه، فإذا ناقضه خبر أجلبوا بخيلهم ورَجِلهم لتكذيبه أو التشكيك فيه، ولَرُبما عسفوا النصوص لطيِّ الحقائق، وإن كانت جليّةً كالشمس في رابعة النهار.

(1) منصور بن أحمد العسيري، **عسير والتاريخ وانحراف المسار**، القاهرة، دار الطناني، ط1، 2012، ص (22 ـ 23).

والعجلة في الحكم على أمرٍ ما أو موضع ما، بسبب تشابه الأسماء، تُقرِّب النائي وتنأى بالقريب؛ فمنازل العرب تتغير في بضعة عقودٍ، أو في بضع سنين، فتحل قبيلة محل أخرى، وربما دخل أهل ناحية في عداد قبيلة سيطرت على ديارهم، فأصبحوا منها.

وقد يقع الغلط أو الخلط في نقل وصف مكانٍ إلى مكانٍ غيره؛ لتشابه الأسماء، وما أكثرَ وقوع المصادر القديمة في مثلهما.

إن النصوص التي ذكرت سوق حباشة لم تهمل نسبة السوق إلى بارق، في ديار الأوصام منهم، وقد جَمَعَتْ معظمُ هذه النصوص بين قنونى وحلي، فعومل جمع هذين الموضعين بإحدى طريقتين: إما بالقول باستحالة الجمع بينهما، كرأي الشيخ عاتق البلادي، وهو الذي مال إلى كون السوق في حلي؛ لقربها من بلاد بارق، وإما بترك الحديث عن حلي أو تأول المراد من ذكره، كما فعل الشيخ حسن الفقيه ومن اقتفى أثره. وحين استقر في أذهان الباحثين أن السوق في قنونى اضطروا إلى تأول اسم الأوصام ـ كما سنراه مبسوطًا داخل الكتاب ـ ونقلوا خصوصية السوق من الأوصام إلى الأزد عامةً. ولو أن الباحثين قرأُوا ما جاء في المصادر ـ على أن يكون نص ابن سعد من بينها ـ قراءةً متأنية، لَقادتْهم النصوص إلى موقعها في بلاد بارق، من غير إغراق في التمحل والتخمين.

ولا أزعم أني قطعتُ قول كل خطيب؛ إذ قامت في بلاد بارق المزارع العثرية، واستُغِلّت الأرض وأحيطت بأَسْوِجةٍ طينية غيّرت من معالمها، إلا بقية من دلائل كانت على الطرق، لا يختص أحد بملكيتها، حفظت شيئًا من طبيعة وجه الأرض القديم، الذي قطنت فوقه القبائل ورعت نبته السَّوَامُ، ومرّ عليه المسافرون قبل ظهور سوق حباشة وفي أيامها وبعد انقطاعها.

والأمل ـ بعد الله ـ معقود على المتخصصين العاملين في الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني، وعلى طلاب الآثار في جامعاتنا ودكاترتهم الجادّين، المُشمِّرين إلى العِلم والحقيقة؛ للتنقيب المركّز عن معثورات تساهم في تقليص مساحة الرقعة التي حددتها في هذا الكتاب؛ لمعرفة مكان العَرض والبيع والشراء والإعلام وغيرها.

ولا أنسى أن أذكر أنه في سبيل تحقيق موقع سوق حباشة، مرّت بي نصوصٌ عن برك الغماد، فجعلتُ لبَرك الغماد نصيبًا من البحث، وإن كان قليلاً، غير أنّ ارتباطها بشكل أو بآخر بالطريق المؤدية إلى سوق حباشة، بلهَ الاشتباهَ بينها وبين البِرك في بحوث المعاصرين، دفعاني إلى الحديث عنها، ولكيلا يطغى تحقيقها على هدف الكتاب، جعلتُ الحديث عنها ضمن الرحلات الميدانية.

وإن كان لي من اعتذار مقرون بالشكر في هذه المقدمة، فإنما أقدّمهما إلى كل الذين بحثوا في موقع سوق حباشة، أو في مكان برك الغماد، وهم شيوخنا حمد الجاسر وعاتق البلاديّ وحسن الفقيه ـ رحمهم الله ـ، ودكتورانا عبد الله أبو داهش وأحمد الزيلعي، وزميلنا عبد الله الرِّزقي، وأستاذنا عرفان حمُّور، الذين بذلوا ما في وسعهم من استقراء المصادر التي كانت بين أيديهم.

واعتذار آخر لقراء الكتاب، حين يرون فيه عرضًا مطولاً لكثير من محتوى بحوث الباحثين في سوق حباشة، وما ذلك إلا لظنٍّ مني شبه قاطعٍ، بأن كثيرًا من هذه الأبحاث ليست في متناول يد القارئ الكريم.

ويُسعدني أن أشكر أخي الكريم عبد المجيد بن عبد الله بن سعد الصعب، على استعداده لمصاحبتي في أرض بارق، للبحث عن سوق حباشة، حيث صحبني إلى أرض بارق مرة، وقابلني فيها مرة أخرى، فتجولنا في معظم أرض بارق، وكثفنا التجوال في خبت آل حجري وما جاوره من الجنوب والغرب، ولم أحاول ـ بدْأةَ ذي بدءٍ ـ أن أستعين بأحدٍ من بارق، ظنًّا مني بأن معرفة أسماء المواضع أمرٌ سهلٌ، ولكنني رأيت أن الاستعانة بعد الله ببعض الأساتذة الكرام من بارق، هي الخطوة الصحيحة لاختصار الزمن، والوصول إلى جزئيات المواضع، بمؤازرة من عاشوا هناك، ورأوا من دقائق الأمور وجلائلها ما لا يراه من كان بعيدًا من أرضهم.

وإني إذ أَشرُفُ بلقاء أبناء بارق الكرام ومعرفتهم، والسير في أرضهم، أشكر ما قدمه الإخوة الفضلاء: عبد الله بن محمد الفقيه البارقي، وحسن بن محمد بن عوض البارقي، وزاهر بن عامر بن جابر البارقي، وعلي بن حسن بن إبراهيم البارقي، من كرم الضيافة وحسن الاستقبال، وصحبتي إياهم في جولات ميدانية في بارق، وفي النواحي القريبة منها، عرفتُ فيها بعض الأسماء، وشاهدت فيها كثيرًا من المسمَّيات.

ثم ما قدّمه أولئك الإخوة من أسماء الجبال والأودية والشعاب والمسالك والنواحي، في بلاد بارق وما جاورها، فوق ما سألتُهم عنه، فجزاهم الله خير الجزاء[1].

وقد جعلت عنوان كتابي هذا (سوق حباشة: دراسة علمية ميدانية)، وقسّمتُه ستةَ فصول، تلي هذه المقدَّمة. وقد جاءت هذه الفصول على النحو التالي:

- الفصل الأول: سوق حُباشةَ وأخباره في المصادر القديمة.
- الفصل الثاني: سوق حُباشةَ في كتابات الباحثين المعاصرين.
- الفصل الثالث: بارق: نسبهم وبلادهم وكتاب رسول الله ﷺ لهم.
- الفصل الرابع: الطُّرق التّجاريّة ومسالكها بين مكّة وجَنوب جزيرة العرب وعلاقتها ببارق.
- الفصل الخامس: رِحَلات البحث الميدانيّة.
- الفصل السادس: تحقيق موقع سوق حُباشةَ.

أرجو من الله تعالى أن يجعل عملي هذا منزَّهًا عن التزلّف والمحاباة والتّعالُم، وأن يجعل هدفي من ردّ الافتراء على رسول الله ﷺ في تَوَهُّمِ مواضع زارها خالصًا لوجه الله، وأن ينفع به من أراد الحقَّ وابتغى إلى الحقيقة سبيلها.

والله ولي التوفيق.

---

(1) وأشكر الأخ الأستاذ نواف بن شايش الرويس؛ حيث صمم صفحة الغلاف ولم يمَلّ من تكرار التعديل كلما طرأت لي فكرة.

الفصل الأول

سُوقُ حُبَاشَةَ وَأَخْبَارُه فِي الْمَصَادِرِ الْقَدِيمَةِ

جاء ذكر سوق حباشة في بعض المصادر القديمة غُفلًا من تحديد موقعه الدقيق، إلا ما ورد فيها من كونه في بلاد الأوصام من بارق.

ومن ما يأسى لقراءته كل مطّلع، أن الجهل بامتداد الأوصام، وفي أي قبائل بارق سرى ذلك الامتداد، كان سببًا في نقله من بلاد بارق إلى قنونى.

وسوف أعرِض في هذا الفصل أخبار سوق حُباشة، الواردة في المصادر، على ثلاثة أضرب:

- الأول: مصادر عُنِيت بوصفه أو تحديده.
- الثاني: مصادر ورد فيها ذكر السوق دونما وصف أو تحديد.
- الثالث: مصادر أضافت فائدة في تحديده ولم تصرّح به.

وقبل الشروع في ذلك، فإن الدخول من باب التعريف بمعنى (حُباشة)، أولى خطوات الوالج في ميدانها.

● مَادَّةُ (ح ب ش) في الْمَصَادِرِ اللُّغَوِيَّةِ وَاشْتِقَاقَاتُهَا

سأقصر النقل على ما ورد في (لسان العرب)؛ حيث إنه سيكفينا عناء التقليب في المعاجم، وفيه ـ مختصرًا ـ: «الحبَشُ: جنس من السّودان، وهم الأَحْبُشُ والحبشان والحبِيشُ، وقد قالوا: الحبَشة، وليس بصحيح في القياس لأنه لا واحدَ له على مثال (فاعِل)، ولكن لما تُكُلِّم به سار في اللغات. والأُحبوشُ: جماعة الحبش، قال العجاج:

كَـأَنَّ صِـيـرَانَ الْـمَـهَـا الأَخْـلَاطِ   بِـالـرَّمْـلِ أُحْـبُـوشٌ مِـنَ الأَنْـبَـاطِ

وقيل: هم الجماعة أيًّا كانوا، لأنهم إذا تجمّعوا اسْوَدُّوا. والأحابيشُ: أحياءٌ من القارَة انضمُّوا إلى بني لَيثٍ في الحرب التي وقعت بينهم وبين قريش قبل الإسلام، فواقَعُوا دَمًا، سُمُّوا بذلك لاسْوِدادهم، فلما سُمّيت تلك الأحياء بالأحابيش من قِبَل تجمُّعِها صار التّحبيش في الكلام كالتجميع. وحُبْشِيّ: جبل بأسفل مكة، يقال: منه سُمِّيَ أحابيشُ قريش؛ وذلك أن بني المصطلِق وبني الهُون بن خُزيمة اجتمعوا عنده فحالفوا قريشًا، وتحالفوا بالله إنّا لَيَدٌ على غيرنا ما سَجا لَيْلٌ ووَضَحَ نهارٌ وما أَرْسَى حُبْشِيٌّ مكانَهُ، فسُمّوا أحابيشَ قُريشٍ باسم الجبل. وأَحْبَشَت المرأةُ بوَلدها: إذا جاءت به حَبَشِيَّ اللّون. وناقةٌ حَبَشِيَّة: شَديدة السواد. والحُبْشِيَّة: ضَرْب من النمل سُودٌ عظامٌ، لما جُعِل ذلك اسمًا لها غَيَّروا اللفظ؛ ليكون فرقًا بين النسبة والاسم، فالاسم حُبْشِيَّة والنسب حَبَشِية. وروضةٌ حَبَشيّة: خضراء تَضْرِب إلى السَّواد. والحِبْشانُ: الجراد الذي صار كأنّه النّمل سَوادًا، الواحدةُ حَبَشِيَّة، وإنما قياسه أن تكون واحدتَهُ حُبْشانَةٌ أو حَبْش. والتحَبُّشُ: التجمُّع. وحَبَشَ الشّيْءَ يَحْبِشُهُ حَبْشًا وحَبَّشَهُ وتحَبَّشَهُ واحْتَبَشهُ: جمعه، والاسم: الحباشة. وحَبَشْتُ له حُباشةً: إذا جَمَعْتُ له شيئًا، والتّحبيش مثله، وحُباشات العَيْش: ما جُمع منه، واحدتُها حُباشة. واحْتَبَشَ لأهله حُباشَةً: جَمَعها لهم، وحَبَشْت لعيالي وهَبَشْت: أيْ كسبْتُ وجمعْتُ، وهي الحباشة والهُباشة. وفي المجلس حُباشات وهُباشات من الناس: أي ناسٌ ليسُوا من قبيلة واحدة، وهم الحباشة للجماعة، وكذلك الأُحْبوش والأحابيش. وتحبّشوا عليه: اجتمعوا، وكذلك تَهبَّشوا، وحَبَّش قومَه تحبيشًا: أي جمعهم. . والحبَشِيّ: ضَرْب من العنَب. والحبَشِيّ: ضرْب من الشعير سُنبُلُهُ حرفانِ، وهو حَرِش لا يؤكل لخشونته، ولكنه يصلح للعلف. ومن أسماء العُقاب: الحباشيَّة. وحُبَيْش: طائر معروف»[1].

ولكني سأضيف هذه الفائدة من كتاب (العربية القديمة ولهجاتها)، وفيه: «ح ب ش: منقّط أو أرقط بين سواد وبياض»[2].

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط3، 1414 هـ/ 1994 م، ج6، ص (278) وما بعدها، مادة (حبش).

(2) عادل محاد مسعود مريخ، **العربية القديمة ولهجاتها**، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 1421 هـ/ 2000م، ص (287).

وأعود إلى (لسان العرب) للتعريف بالرُّقْطَة، وهي فيه: «سَوَادٌ يشُوبُهُ نُقَطُ بَياضٍ، أو بياضٌ يشُوبُهُ نُقَطُ سَوَادٍ»[1].

ويمكن استخلاص بعض هذه المعاني المفيدة في سبب تسمية السوق؛ ليجتمع عليها نظر العينين، ومنها:

- الأحبوش: هم الجماعة أيًّا كانوا، لأنهم إذا تجمّعوا اسْوَدُّوا.
- الأحابيش: سُمُّوا بذلك لاسْوِدادهم، سُمُّوا بذلك من قِبَل تجمُّعِهم، وصار التّحبيش في الكلام كالتجميع.
- روضةٌ حَبَشيّةٌ: خضراء تَضْرِب إلى السَّواد.
- حَبَشْتُ لفلانٍ وحبَّشْتُ له حُباشةً: جَمَعْتُ له شيئًا وكسبتُ له.
- الحُباشات: ناس ليسوا من قبيلة واحدة.
- الأحبش: الأرقط يجتمع فيه السواد والبياض.

فإنك ترى المعاني تكاد لا تخرج عن (التجمُّع / الاسوداد / الاخضرار الذي يقارب السواد / الجمع والكسب / اختلاف النسب / الرُّقطة). وباختصار، فإنها لا تخرج عن: (الجمع والاجتماع المتنوعين / اللون الأسود أو ما يقاربه أو ما يدخل فيه).

غير أن هذه المعاني، لا تغني الباحث عن السبب الحقيقي وراء تسمية السوق بهذا الاسم، ولكن لي رأيًا جعلته في نهاية هذا الفصل؛ كي لا يتقدم حديثَ المصادر.

● سُوقُ حُبَاشَةَ في الْمَصَادِرِ الَّتِي عُنِيَتْ بِوَصْفِهِ أَوْ تحديدهِ

❖ قال عبد الرزاق الصنعاني (126 ـ 211هـ) في (المصنَّف)، بعد أن تحدث عن نشأة النبي ﷺ: «فلما استوى وبلغ أشده وليس له كثير مال، استأجرته خديجة ابنة خويلد إلى سوق حباشة، وهو سوقٌ بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش، فقال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها: ما رأيت من صاحبة أجير خيرًا

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب** (مرجعٌ تقدّمَ)، مادة (رقط).

من خديجة؛ ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا. قال: فلما رجعنا من سوق حباشة، قال رسول الله ﷺ: قلت لصاحبي: انطلق بنا نتحدث عند خديجة، قال: فجئناها، فبينا نحن عندها إذ دخلت علينا منتشيةٌ من مولدات قريش، والمنتشية[1]: الناهد التي تشتهي الرجل، قالت: أمحمّدٌ هذا؟ والذي يُحلَف به إنْ جاء لَخاطبًا! فقلت: كلا! فلما خرجنا أنا وصاحبي قال: أمن خطبة خديجة تستحي! فوالله ما من قُرَشيّة إلا تراكَ لها كفوًا. قال: فرجعت إليها مرة أخرى، فدخلت علينا تلك المنتشية، فقالت: أمحمد هذا؟ والذي يُحلَف به إنْ جاء لَخاطبًا! قال: قلت على حياءٍ: أجلْ! قال: فلم تعصِنا خديجة ولا أختها، فانطلقت إلى أبيها خويلد بن أسد وهو ثمل من الشراب، فقالت: هذا ابن أخيك محمد بن عبد الله يخطب خديجة، وقد رضيت خديجة! فدعاه فسأله عن ذلك، فخطب إليه فأنكحه، قال: فخلّقت خديجة وحلت عليه حلة، فدخل رسول الله ﷺ بها، فلما أصبح صحا الشيخ من سكره، فقال: ما هذا الخلوق وما هذه الحلة؟ قالت أخت خديجة: هذه حلة كساك[2] ابن أخيك محمد بن عبد الله، أنكحتَه خديجةَ وقد بنى بها! فأنكر الشيخ، ثم صار إلى أن سلّم واستحيى»[3].

❖ وقال ابن سعد الزهريّ (168 ـ 230هـ) ـ رحمه الله ـ في (الطبقات الكبرى) في القسم المتمم: «أخبرنا محمد بن عُمَر، قال: حدثنا معمر بن راشد، عن الزهري، عن عروة قال: كان حكيم بن حزام رجلًا تاجرًا لا يدع سوقًا بمكة ولا تهامة إلا حضرها، وكان يقول: كان بتهامة أسواق، أعظمها سوق حباشة، وهي على ثماني مراحل من مكة طريق الـجَنَد[4]، فكنت أحضرها، وقد رأيت

(1) في الروض الأنف: مستنشئة، وهي الكاهنة.
(2) هكذا وردت، ولعل الصحيح: (كَسَاكَها).
(3) عبد الرزاق الصنعاني، **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 2، 1403، ج (5)، ص (314).
(4) جملة (من مكة طريق الـجَنَد) ناقصة. فقبل كلمة (طريق) أحرف ساقطة، كأن تكون حرف الجرّ (الباء) أو (في) أو (قُرب) أو (نحو) أو (عليها) أو (يمر بها). ولعل في التحقيق الميداني جِلاءً لها.

رسول الله ﷺ حضرها، فاشتريت بها بزًّا، فقدمت به مكة، فذاك حين أرسلت خديجة إلى رسول الله ﷺ تدعوه إلى أن يخرج لها إلى سوق حباشة[1]، وبعثت معه غلامها ميسرة، فخرجا، فابتاعا بزًّا من بزِّ الجَنَدِ وغيره، ومن ما فيها من التجارة، فرجعا به إلى مكة فربحا فيها ربحًا حسنًا، وكانت سوق [. . .][2] تقوم كل سنة في رجب ثمانية أيام»[3].

❖ وقال الأزرقي (000 ـ 250هـ) ـ رحمه الله ـ في (أخبار مكة): «وحُباشةُ سوقٌ للأزد، وهي في ديار الأوصام من بارق، من صدر قنونى وحلي بناحية[4] اليمن، وهي من مكة على ست ليالٍ، وهي آخر سوق خربت من أسواق الجاهلية. وكان والي مكة يستعمل عليها رجلًا يخرج معه بجند، فيقيمون بها ثلاثة (!) أيام من أول رجب متوالية، حتى قتلت الأزد واليًا كان عليها من غَنِيٍّ، بعثه داود بن عيسى بن موسى في سنة سبع وتسعين ومائةٍ، فأشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها، فخرّبها، وتُركت إلى اليوم.

وإنما تُرِك ذكرُ حباشة مع هذه الأسواق؛ لأنها لم تكن في مواسم الحج ولا في أشهُره، وإنما كانت في رجب»[5].

❖ وجاء في (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار (172 ـ 256هـ) ـ رحمه الله ـ:

(1) بداية انعقاد سوق حباشة في أول رجب سنة 26 للمولد النبوي، وهو العام الذي بلغ فيه رسول الله ﷺ عامه الـخامس والعشرين، وافق 9 من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (595) م، وهو موسم دفء في غور السراة.
(2) هكذا وردت: «وكانت سوق تقوم»، وهو نص لا يستقيم إلا بإحدى ثلاث طرق:
ـ إضافة كلمة (حباشة) في موضع ما بين الـحاصرتين، وهي أقوى هذه الطرق.
ـ أو: نصب كلمة (سوق) لتكون خبرًا لِـ(كانَ)، كالذي أورده الزبير بن بكار.
ـ أو: إضافة (أل التعريف) قبل كلمة (سوق).
(3) محمد بن سعد بن منيع الزهري، **الطبقات الكبرى**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1417 هـ/ 1996 م، ج (8)، ص (503).
(4) في طبعة د. عبد الـملك بن عبد الله بن دهيش: (بناحية). والنسخ التي قابل بينها رشدي الصالح ملـحس أربع، فاثنتان منها قالتا: (بناحية)، والأخريان قالتا: (من ناحية). رحم الله الـمحقِّقَيْنِ.
(5) أبو الوليد الأزرقي، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تـحقيق: رشدي الصالـح ملـحس، مكة، دار الثقافة للطباعة، ط 9، 1421 هـ / 2001 م، ج (1)، ص (191).

«حدثنا الزبير قال: قال الواقدي: وحدثني بعض ولد حكيم قال: كان حكيم رجلًا تاجرًا، لا يدع سوقًا بمكة ولا تهامة إلا حضره، وكان يقول: كان بتهامة أسواق، أعظمها سوق حباشة، وكنت أحضره. وقال: رأيت رسول الله ﷺ حضر، واشتريت منه بزًّا من بزّ تهامة، وقدمتُ به مكة، فذلك حين أرسلت خديجة إلى رسول الله ﷺ تدعوه إلى أن يخرج لها في تجارة إلى سوق حباشة، وبعثت معه غلامها ميسرة، فخرجا فابتاعا بزًّا من بزّ الجَنَدِ وغيره من ما فيها من التجارة، ورجعا إلى مكة، فربحا ربحًا حسنًا. وكانت سوقًا تقوم ثمانية أيام»[1].

❖ وجاء في (التاريخ الكبير) لأبي بكر بن أبي خيثمة (000 ـ 279هـ) ـ رحمه الله ـ: «وزيد [بن حارثة بن شراحيل، كان][2] أول من أسلَم، وزوّجه رسول الله ﷺ مولاته أم أيمن، فولدت له أسامة بن زيد، [وبه] يكنى زيد أبا أسامة، وكان يقال لأسامة: الحِبّ ابن الحِبّ، وزيد بن حارثة [أصابته مِنَّةٌ من رسول الله ﷺ، وهو][3] من سبايا العرب من كلب في بيتٍ منهم، كان حكيم بن حزام [رآه في سوق] حباشة، [(وهي)] سوق بناحية مكّة، [(كانت)] مجمعًا للعرب يتسوقون [بها في كل سنة، فاشتراه حكيم لعمته] خديجة بنت خويلد، فوهبته لرسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ أكبر [منه] بعشر سنين، فتبناه بمكّة، وطاف به على [حِلَق قريش] يقول: هذا ابني وارثًا وموروثًا»[4].

(1) الزبير بن بكار، **جمهرة نسب قريش وأخبارها**، تحقيق: محمود محمد شاكر، أشرف على طبعه: حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، ط2، ج (1)، ص (382).

(2) أصاب النص طمس في بعض كلماته، في مواضع متفرقة منه، فتركها ناشر الكتاب وحدد مقدار كلماتها، وقد وازنت بينها وبين (الاستيعاب) الذي سيرد نصه بعد هذا النص، فرأيته يكاد يكون منسوخًا من هذا، فأكملت ما أهمله الناشر، وجعلته بين حاصرتين، وجعلت ما غفل عنه بين قوسين محصورين بحاصرتين.

(3) تكملة ما بين الحاصرتين هاتين من: جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي (ت 762 هـ)، **تخريج الأحاديث والآثار**، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، الرياض، دار ابن خزيمة، ط1، 1414 هـ، ج (3)، ص (96).

(4) أبو بكر ابن أبي خيثمة، **التاريخ الكبير**، صلاح بن فتحي هلل، القاهرة، الفاروق الحديثة للطباعة، ط1، 1424 هـ/ 2004 م، ج (2)، ص (191).

❖ وقال الحافظ ابن عبد البر (368 ـ 463هـ) ـ رحمه الله ـ في (الاستيعاب): «زيد ابن حارثة بن شراحيل الكلبي، أبو أسامة مولى رسول الله ﷺ. . .

قال ابن الكلبي: وأم زيد: سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت من بني معن من طيئ. . .

كان زيد هذا قد أصابه سباء في الجاهلية، فاشتراه حكيم بن حزام في سوق حباشة، وهي سوق بناحية مكة، كانت مجمعًا للعرب، يتسوقون بها في كل سنة، اشتراه حكيم لخديجة بنت خويلد فوهبته خديجة لرسول الله ﷺ فتبناه رسول الله ﷺ بمكة قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين، وكان رسول الله ﷺ أكبر منه بعشر سنين، وقد قيل: بعشرين سنة، وطاف به رسول الله ﷺ حين تَبَنّاه على حِلَقِ قريشٍ، يقول: هذا ابني وارثًا وموروثًا، يُشهِدهم على ذلك، هذا كله معنى قول مصعب والزبير بن بكار وابن الكلبي وغيرهم»[1].

❖ وقال أبو عبيدٍ البكري (000 ـ نحو 487هـ) ـ رحمه الله ـ في (معجم ما استعجم): «الحباشة، بضم أوله وبالشين المعجمة أيضًا، على وزن فُعالة، ويقال حُباشة، دون ألف ولام: سوق للعرب معروفة بناحية مكة، وهي أكبر أسواق تهامة، كانت تقوم ثمانية أيام في السنة.

قال حكيم بن حزام: وقد رأيت رسول الله ﷺ يحضرها، واشتريت منه فيها بزًّا من بزّ تهامة.

وهي من صدر قنونى، أرضها لبارق»[2].

❖ وقال السهيلي (508 ـ 581هـ) ـ رحمه الله ـ في (الروض الأُنُف في شرح غريب السِّيَر): «ومجنة سوق من أسواق العرب بين عكاظ وذي المجاز، وكلها أسواق قد تقدم ذكرها... ومن أسواقهم أيضا حباشة، وهي أبعد من هذه»[3].

(1) أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، بيروت، دار الفكر، 1426 هـ / 2006 م، ج (1)، ص (324).

(2) أبو عبيد البكري، **معجم ما استعجم**، تحقيق: جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1418 هـ / 1998 م، ج (2)، ص (57).

(3) عبد الرحمن السهيلي، **الروض الأُنُف**، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، ط 1، 1387 هـ/ 1967م، ج(5)، ص (46).

❖ وقال ياقوت الحموي (574 ـ 626هـ) ـ رحمه الله ـ في (معجم البلدان): «حُباشة، بالضم والشين معجمة، وأصل الحباشة: الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة. وحبشت له حباشة، أي: جمعت له شيئًا.

وحُباشة: سوق من أسواق العرب في الجاهلية، ذكره في حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، قال: لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده وليس له كثير مال، استأجرته خديجة إلى سوق حباشة، وهو سوق بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش. قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها: ما رأيت من صاحبة أجير خيرًا من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا. قال: فلما رجعنا من سوق حباشة...

وذكر حديث تزوج النبي ﷺ خديجة بطوله»[1].

❖ وقال ابن حَجَر (773 ـ 852هـ) ـ رحمه الله ـ في (فتح الباري): «وذكر ـ يعني ابن الكلبي ـ من أسواق العرب في الجاهلية أيضًا حُباشة، بضم المهملة وتخفيف الموحدة وبعد الألف معجمة، وكانت في ديار بارق، نحو قنونا بفتح القاف وبضم النون الخفيفة وبعد الألف نون مقصورة، من مكة إلى جهة اليمن على ست مراحل، قال: وإنما لم يذكر هذه السوق في الحديث، لأنها لم تكن من مواسم الحج، وإنما كانت تقام في شهر رجب. قال الفاكهي[2]: ولم تزل هذه الأسواق قائمة في الإسلام، إلى أن كان أوّلَ ما تُرك منها سوقُ عكاظَ في زمن الخوارج، سنة تسع وعشرين ومائة، وآخر ما ترك منها سوق حباشة، في زمن داود بن عيسى بن موسى العباسي، في سنة سبع وتسعين ومائة. ثم أسند عن ابن الكلبي أن كل شريف كان إنما يحضر سوق بلده، إلا سوق عكاظ؛ فإنهم كانوا يتوافون بها من كل جهة، فكانت أعظم تلك الأسواق»[3].

---

(1) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، 1397 هـ / 1977 م، ج (2)، ص (210).

(2) هو محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي الكناني المكي، **مصنف كتاب (أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه)**، ولد سنة (217) وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة (275) من الهجرة، وعاصر الأزرقي.

(3) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، القاهرة، المكتبة السلفية، 1379 هـ، ج (3)، ص (594).

❖ وقال العيني (762 ـ 855هـ) ـ رحمه الله ـ في (عمدة القاري): «وأسواق الجاهلية أربعة، وهي: عكاظ وذو المجاز ومجنة وحباشة. . . وأما حباشة، فهي بضم الحاء المهملة وتخفيف الباء الموحدة وبعد الألف شين معجمة، وكانت بأرض بارق، نحو قَنُونا بفتح القاف وضم النون المخففة وبعد الواو الساكنة نون أخرى مقصورة، من مكة إلى جهة اليمن، على ست مراحل، ولم يذكر هذا في الحديث لأنه لم يكن من مواسم الحج، وإنما كان يقام في شهر رجب. وقال الرشاطي[1]: هي أكبر أسواق تهامة، كان يقوم ثمانية أيام في السنة، قال حكيم بن حزام: وقد رأيت رسول الله ﷺ يحضرها، واشتريت منه فيها بزًّا من بزِّ تهامة. وقال الفاكهي: ولم تزل هذه الأسواق قائمة في الإسلام، إلى أن كان أول [ما][2] تُرك منها سوق عكاظ، في زمن الخوارج، سنة تسع وعشرين ومائة، وآخر ما ترك منها سوق حباشة، في زمن داود بن عيسى بن موسى العباسي، في سنة سبع وتسعين ومائة»[3].

❖ وقال النجم عمر بن فهد (812 ـ 885هـ) ـ رحمه الله ـ في (إتحاف الورَى بأخبار أم القُرَى) في أحداث السنة الخامسة والعشرين من مولد النبي ﷺ: «ويقال إن خديجة لما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبله منها رسول الله ﷺ، فاستأجرت النبي ﷺ على أربع بكرات، ويقال استأجرت معه رجلاً آخر من قريش.

وخرج النبي ﷺ مع غلام لخديجة يقال له ميسرة، وجعل عمومة النبي ﷺ يوصون به أهل العِير، فبلغ سوق بُصرى ـ وقيل سوق حباشة بتهامة[4] ـ لأربع عشرة

---

(1) هو الحافظ أبو محمد عبد الله بن علي اللخمي الأندلسي، وكتابه (اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار).

(2) في الأصل: (من). ونص الفاكهي ليس في مطبوع الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش؛ ويوحي هذا بأنه في أوراق ساقطة.

(3) بدر الدين محمود العيني، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بيروت، دار الفكر، (لم تدوَّن سنة طبعه)، ج (10)، ص (104).

(4) من خلال ما أورده عبد الرزاق في (المصنَّف) عن النبي ﷺ: «ما رأيت من صاحبة أجير خيرًا من خديجة؛ ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا»، يتبين لنا أنه عليه السلام ذهب في تجارتها مِرارًا بصحبة غلامها.

ليلة بقيت من ذي الحجة[1]، فباع تجارته التي خرج بها، فربح ضعف ما كانوا يربحون، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلًا إلى مكة»[2].

● سُوقُ حُبَاشَةَ في الْمَصَادِرِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا ذِكْرُهُ دُونَمَا وَصْفٍ أَوْ تَحْدِيدٍ

❖ جاء في (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني (284 ـ 356هـ)، في خبر مقتل الشَّنْفَرَى الأزديِّ، بعد أن أورد خبرًا عن الحِرْمِيِّ بن أبي العلاء بسنده إلى محمد بن هشام النميري، ثم قال أبو الفرج في خبرٍ آخر عن سبب أسره ومقتله: «قال: وقال غيره: لا بل كان من أمر الشنفرى وسبب أسره ومقتله، أن الأزد قتلت الحارث ابن السائب الفهمي، فأبوا أن يبوؤوا بقتله، فباء بقتله رجل منهم يقال له حزام بن جابر قبل ذلك، فمات أخو الشنفرى. . . قال: فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فَهْم، فيقتل من أدرك منهم، ثم قدم مِنًى وبها حزام بن جابر، فقيل له: هذا قاتل أبيك! فشد عليه فقتله، ثم سبق الناس على رجليه، فقال:

قَـتَـلْـتُ حِـزَامًـا مُـهْـدِيًـا بِـمُـلَـبِّـدٍ ... بِبَطْنِ مِنىً وَسْطَ الْحَجِيجِ الْمُصَوِّتِ

قال: ثم إن رجلًا من الأزد، أتى أَسِيدَ بن جابر، وهو أخو حزام المقتول، فقال: تركت الشنفرى بسوق حباشة! فقال أَسِيد بن جابر: والله لئن كنت صادقًا لا نرجع حتى نأكل من جنى أليف أبيدة[3]! فقعد له على الطريق هو وابنا حزام، فأحسُّوه في جوف الليل وقد نزع نعلًا ولبس نعلًا؛ ليخفي وطأه، فلما سمع الغلامان وطأه قالا: هذه الضبع! فقال أسيد: ليست الضبع ولكنه الشنفرى! ليضع كل واحد منكما نعله على مقتله. حتى إذا رأى سوادهم نكص مليًّا؛ لينظر هل يتبعه أحد، ثم رجع حتى دنا منهم،

(1) السادس عشر من شهر ذي الحجة سنة 26 للمولد النبوي الشريف، وافق العشرين من نيسان (أبريل) سنة (596) م، والجو معتدل، ويصح السفر فيه إلى الشام أو إلى غور السراة.

(2) النجم عمر بن فهد، **إتحاف الوَرَى بأخبار أم القرى**، تقديم: فهيم محمد شلتوت، مكة، مطابع جامعة أم القرى، ط1، 1403هـ، ج (1)، ص (131).

(3) وردت هذه الجملة في مصادر أخرى بصيغة الغائب: «والله لا يرجع حتى يأكل...»، ولكل قراءة مدلولها، فهي بصيغة المتكلمين تنبئ أن الشنفرى قد حمى ـ بالرعب ـ شِعب أليف، الذي يهبط في وادي أبيدة، وأن هؤلاء ـ إن هم ظفروا بالشنفرى ـ سيأكلون من الجنَى بعد أن حُرِموه طويلًا، وهي بصيغة الغائب جزم منهم بأنه لن يرجع من سوق حباشة إلى بلاده إلا من خلال أليف أبيدة؛ حيث اعتادوا منه إتيانه؛ حيث يطلب الشنفرى ثأره عند أهل هذا الوادي!

فقال الغلامان: أبصرَنا! فقال عمهما: لا والله ما أبصركما، ولكنه أطرَد لكيما تتبعاه، فليضع كل واحد منكما نعله على مقتله. فرماهم الشنفرى، فخسق في النعل ولم يتحرك المرمي، ثم رمى فانتظم ساقي أسيد، فلما رأى ذلك أقبل، حتى كان بينهم فوثبوا عليه، فأخذوه فشدوه وثاقًا، ثم إنهم انطلقوا به إلى قومهم، فطرحوه وسطهم، فتماروا بينهم في قتله، فبعضهم يقول: أخوكم وابنكم! فلما رأى ذلك أحد بني حزام ضربه ضربة فقطع يده من الكوع، وكانت بها شامة سوداء، فقال الشنفرى حين قطعت يده:

لا تَـبْـعَـدِي إِمَّـا هَـلَـكْـتُ شَـامَـهْ ... فَـرُبَّ خَـرْقٍ قَـطَـعَـتْ قَـتَـامَـهْ

وَرُبَّ قِـرْنٍ فَـصَـلَـتْ عِـظَـامَـهْ»[1]

❖ قال البيهقي (384 ـ 458هـ) ـ رحمه الله ـ في (دلائل النبوة): «أخبرنا أبو الحسين ابن الفضل القطان ببغداد، قال: أخبرنا عبد الله بن جعفر بن درستويه، قال: حدثنا يعقوب بن سفيان، قال: حدثنا أصبغ بن فرج، قال: أخبرنا ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، قال: لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده وليس له كثير مال، استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حباشة، فلما رجع تزوج خديجة، فلبث رسول الله مع خديجة حتى ولدت له بعض بنيه، وكان له منها القاسم، وقد زعم بعض أهل العلم أنها ولدت له غلامًا آخر يسمى الطاهر، وقال بعضهم: ما نعلمها ولدت له غلامًا إلا القاسم، وولدت له بناتِهِ أربعًا: فاطمةَ ورُقيَّةَ وأمَّ كلثومٍ وزينبَ، فطفق رسول الله بعد ما ولدت له بعض بنيه يحبَّب إليه الخلاء»[2].

❖ وقال ابن عساكر (499 ـ 571هـ) ـ رحمه الله ـ في (تاريخ مدينة دمشق): «أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي، أنبأَنا الحسن بن علي، أنبأَنا أبو عمرَ ابنُ حَيَّوَيْهِ، أنبأَنا أحمد بن معروف، أخبرَنَا الحسين بن فهم، أخبرَنَا محمد بن سعد، أنبأَنا محمد بن عمر[3]، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة، عن عمر بن عبد الله

(1) أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، تحقيق: د. إحسان عباس وزميليه، بيروت، دار صادر، ط3، 1429هـ / 2008 م، ج (21)، ص (131).

(2) البيهقي، **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1408/ 1988، ج (2)، ص (68).

(3) ورد السند بطريقة المحدِّثين في اختصار الألفاظ، فأكملتُ ألفاظه، وكانت قبل إكمالها هكذا: «أخبرنا. . أنا. . أنا. . أنا. . نا. . نا. . أنا. . حدثني».

العنسي، قال: قال معاوية بن أبي سفيان: لما كان عام الحديبيّة، وصدت قريش رسول الله ﷺ عن البيت، ودافعوه بالراح، وكتبوا بينهم القضية، وقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمّي هند بنت عتبة، فقالت: إياك أن تخالف أباك، أو أن تقطع أمرًا دونه؛ فيقطع عنك القُوت! وكان أبي يومئذ غائبًا في سوق حباشة. قال: فأسلمت، وأخفيت إسلامي، فوالله لقد رحل رسول الله ﷺ من الحديبية وإني مصدق به، وأنا على ذلك أكتمه من أبي سفيان، ودخل رسول الله ﷺ عمرة القضية وأنا مُسْلمٌ مصدِّق به، وعلم أبو سفيان بإسلامي، فقال لي يومًا: لكنْ أخوك خيرٌ منك وهو على ديني! فقلت: لم آلُ نفسي خيرًا[1]. قال: فدخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح، فأظهرت إسلامي ولقيته، فرحَّب بي، وكتبتُ له»[2].

❖ وقال السهيلي (508 ـ 581هـ): «قال ابن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى بن امرئ القيس الكلبي، مولى رسول الله ﷺ وكان أولَ ذَكَرٍ أسلم وصلَّى بعد عليٍّ بنِ أبي طالب. قال ابن هشام: زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرئ القيس بن النعمان بن عامر ابن عبد وَدّ بن عوف بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة ابن ثور بن كلب بن وبرة. وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة وَصِيفٌ، فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد، وهي يومئذ عند رسول الله ﷺ فقال لها: اختاري يا عمَّةُ أيَّ هؤلاء الغلمان شئتِ فهو لك! فاختارت زيدًا، فأخذته، فرآه رسول الله ﷺ عندها، فاستوهبه منها، فوهبته له فأعتقه رسول الله ﷺ وتبناه، وذلك قبل أن يوحى إليه. وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعًا شديدًا، وبكى عليه حين فقده فقال:

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أَدْرِ مَا فَعَلْ ... أَحَيٌّ فَيُرْجَى أَمْ أَتَى دُونَهُ الْأَجَلْ!
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَسَائِلٌ ... أَغَالَكَ بَعْدِي السَّهْلُ أَمْ غَالَكَ الْجَبَلْ!

(1) أي: لم أدَع الخير ولا أزال أفعله لنفسي .(**لسان العرب**).
(2) أبو القاسم ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج (59)، ص (67)، بيروت، دار الفكر، 1995م.

. . . .»[1] الخ. ثم أورد بعد ذلك من حديث ابن هشام، وفيه أنه اشتري من سوق حباشة: «وأم زيد سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر من بني معن من طيئ، وكانت قد خرجت بزيدٍ لتُزيرَه أهلها، فأصابته خيل من بني القَيْنِ بن جَسْرٍ، فباعوه بسوق حباشة، وهو من أسواق العرب، وزيد يومئذ ابن ثمانية أعوام»[2].

❖ وقال المقريزي (766 ـ 845هـ) ـ رحمه الله ـ في (إمتاع الأسماع): «وكان حكيم ابن حزام قد رأى رسول الله ﷺ بسوق حباشة، واشترى منه بزًّا من بزِّ تهامة، وقدم مكة. فذلك حين أرسلت خديجة إلى رسول الله ﷺ تدعوه أن يخرج في تجارة إلى سوق حباشة، وبعثت معه غلامها ميسرة، فخرجا فابتاعا بزًّا من بزِّ الجَنَدِ وغيره من ما فيها من التجارة، ورجعا إلى مكة، فربحا ربحًا حسنًا، ويقال إن أبا طالب كلَّم خديجة حتى وكَّلت رسول الله ﷺ بتجارتها»[3].

● سُوقُ حُبَاشَةَ في مَصَادِرَ أَضَافَتْ فَائِدَةً في تحديدِه وَلَمْ تُصَرِّحْ بِهِ

هناك مصدران ذكرا أخبارًا من حوادث سوق حباشة، ونعتاه بالموسم، هما (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، و(معجم البلدان) لياقوت الحموي، غير أن الأصفهاني ظن أن الموسم يوم عرفة؛ بسبب بيت كثير عزة، الذي بدأه بقوله: أصادرةٌ حجاجُ كعبٍ ومالك.

وقد استعمل كثيّر هذه اللفظة البليغة، للإسراع في التبليغ.

❖ قال أبو هلال العسكري (000 ـ بعد 395هـ) ـ رحمه الله ـ في (الفروق اللغوية): «الفرق بين القصد والحَجّ: أن الحجّ هو القصد على استقامة، ومن ثَمَّ سمي قصد البيت حَجًّا؛ لأن من يقصد زيارة البيت لا يعدل عنه إلى غيره. ومنه قيل للطريق المستقيم محجة»[4].

(1) السهيلي، **الروض الأُنُف** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (3)، ص (9).
(2) السهيلي، المصدر نفسه، ج (3)، ص (17).
(3) تقي الدين المقريزي، **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1420هـ/ 1999 م، ج (1)، ص (15 ـ 16).
(4) أبو هلال العسكري، **الفروق اللغوية**، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة، 1418هـ/ 1997 م، ص (126).

❖ وقد أورد الأصفهاني في (الأغاني) خبر مقتل خندق الأسدي ـ سأختصر بعضه ـ فقال:

«حدثني محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثني محمد بن حبيبَ. وأخبرني وكيع، قال: حدثنا علي بن محمد النوفلي، عن أبيه. وأخبرنا أحمد بن عبد العزيز، قال: حدثنا عمر بن شبة، عن ابن داحة، قالوا: كان خندق بن مرة الأسدي، هكذا قال النوفلي. وغيره يقول خندق بن بدر، صديقًا لكثيّر، وكانا يقولان بالرجعة، وكانوا (!) خشبيين جميعًا[1]، فاجتمعا بالموسم، فتذاكرا التشيّع، فقال خندق: لو وجدتُ من يضمن لي عيالي بعدي لوقفت بالموسم، فذكرت فضل آل محمد، وظُلْمَ الناس لهم وغصْبَهم إياهم على حقِّهم، ودعوتُ إليهم وتبرأت من أبي بكرٍ وعُمرَ! فضمن كثيّرٌ عياله، فقام ففعل ذلك، وسب أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما، وتبرأ منهما.

قال عمر بن شبة في خبره: فقال: أيها الناس: إنكم على غير حق، قد تركتم أهل بيت نبيكم، والحقُّ لهم وهم الأئمة. ولم يقل إنه سَبَّ أحدًا[2]، فوثب عليه الناس، فضربوه ورموه حتى قتلوه، ودفن خندق بقنونى، فقال إذ ذاك كثيّر يرثيه:

أَصَادِرَةٌ حُجَّاجُ كَعْبٍ وَمَالِكٍ[3] ... عَلَى كُلِّ عَجْلَى ضَامِرِ الْبَطْنِ مُحْنِقِ
بِمَرْثِيَّةٍ فِيهَا ثَنَاءٌ مُحَبَّرٌ ... لِأَزْهَرَ مِنْ أَوْلَادِ مُرَّةَ مُعْرِقِ

* * *

حَلَفْتُ عَلَى أَنْ قَدْ أَجَنَّتْكَ حُفْرَةٌ ... بِبَطْنِ قَنَوْنَى لَوْ نَعِيشُ فَنَلْتَقِي
لَأُلْفِيتَنِي بِالْوُدِّ بَعْدَكَ دَائِمًا ... عَلَى عَهْدِنَا إِذْ نَحْنُ لَمْ نَتَفَرَّقِ
إِذَا مَا غَدَا يَهْتَزُّ لِلْمَجْدِ وَالنَّدَى ... أَشَمَّ كَغُصْنِ الْبَانَةِ الْمُتَوَرِّقِ
وَإِنِّي لَجَازٍ بِالَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ... بَنِي أَسَدٍ رَهْطِ ابْنِ مُرَّةَ خَنْدَقِ

(1) لا أدري لماذا عدل عن مِثل القول: «وكانا خشبيَّيْن كلاهما»؟!
(2) لعل هذا تورُّع من عمر بن شبة ـ رحمه الله ـ كي لا ينقل سِباب الشيخين، وإلا فإن ذكر فضل آل محمد ليس من مسوغات قتل ذلك الرجل!
(3) قال أبو الفرج: «وكعب من خزاعة، ومالك يعني مالك بن النضر بن كنانة، وكان كثير ينتمي وينمي خزاعة إليهم»، ولا أراه أصاب؛ بل أراه أراد كعبًا ومالكًا من بني أسد؛ فما يغني عنه إرسال قومه، وهل يوافقه قومه في الثناء على من سب الشيخين!

أخبرني الحِرْميّ بن أبي العلاء، قال: حدثنا الزبير بن بكار، قال: حدثني محمد بن إسماعيل، قال: حدثني حُمَيد بن عبد الرحمن أحد بني عِتوارة بن جُدَيّ، قال: كان كثيّر قد سلطه الله يَنسِب بِعَزَّةَ بنتِ عبد الله أحد بني حاجب بن عبد الله بن غِفَارٍ، قال: وكان نسوانهم قد لقينها وهي سائرة في نسائهم في الجلاء، في عام أصابت أهل تهامة فيه حَطْمة شديدة، وكانت عزة من أجمل النساء وآدَبِهِنَّ وأعقَلِهن، ولا والله ما رأى لها وجهًا قط، إلا أنه استهيم بها قلبه؛ لما ذُكر له عنها. فلقيه رجال من الحيِّ لما بلغهم ذلك عنه، فقالوا له: إنك قد شهرت نفسك وشهرتنا وشهرت صاحبتنا، فاكفف نفسك! قال: فإني لا أذكرها بما تكرهون، فخرجوا جالين إلى مصر في أعوام الجلاء، فتبعهم على راحلته، فزجروه، فأبى إلا أن يلحقهم بنفسه، فجلس له فتية من جُدَيّ، قال: وكان بنو ضمرة كلهم يهون عليهم نسيبُه لما يعرفون من براءتها، إلا ما كان من بني جُدَيٍّ، فإنهم كانوا صُمعًا غُيُرًا، فقعد له عونٌ، أحد بني جدي في تسعة نفر على محالج[1]، فلما جاز بهم تحت الليل أخذوه، ثم عدلوا به عن الطريق إلى جيفة حمار كانوا يعرفونها من النهار، فأدخلوه فيها وربطوا يديه ورجليه، ثم أوثقوا بطن الحمار، فجعل يضطرب فيه ويستغيث، ومضوا عنه، فاجتاز به خندق الأسدي، فسمع استغاثته، وهو خندق بن بدر، فعدل إلى الصوت حين سمعه، فوجد في الجيفة إنسانًا، فسأله من هو، وما خبره، فأخبره فأطلقه، وحمله وألحقه ببلاده، فقال كثيّر في ذلك، قال الزبير: أنشدنيها عمر بن أبي بكر المؤملي عن عبد الله بن أبي عبيدة معمر بن المثنى:

أَصَادِرَةٌ حُجَّاجُ كَعْبٍ وَمَالِكٍ ... عَلَى كُلِّ فَتْلَاءِ الذِّرَاعَيْنِ مُحْنِقِ

وذكر القصيدة كلها على ما مضت.

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء، قال: حدثنا الزبير، قال: حدثنا عمر بن أبي بكر المؤمّلي، عن أبي عبيدة، قال: خندق الأسدي هو الذي أدخل كثيّرًا في مذهب الخشبية.

أخبرني محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثنا محمد بن حبيبَ، قال: لما قُتل خندق الأسدي بعرفة (!) رثاه كثير، فقال[2]:

(1) المحالج: جمع مِحْلَج، وهو الخفيف من الحُمُر (محققو الكتاب).
(2) حذفت الشروحات وأوائل الأبيات؛ للاختصار.

لَقَدْ مُنِعَ الرُّقَادُ فَبِتُّ لَيْلِي ... تُجَافِينِي الْهُمُومُ عَنِ الْوِسَادِ
عَدَانِي أَنْ أَزُورَكَ غَيْرَ بُغْضٍ ... مُقَامُكَ بَيْنَ مُصْفَحَةٍ شِدَادِ
وَإِنِّي قَائِلٌ إِنْ لَمْ أَزُرْهُ ... سَقَتْ دِيَمُ السَّوَارِي وَالْغَوَادِي
مَحَلَّ أَخِي بَنِي أَسَدٍ قَنَوْنَى ... فَمَا وَالَى إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ
مُقِيمٌ بِالْمَجَازَةِ مِنْ قَنَوْنَى ... وَأَهْلُكَ بِالْأُجَيْفِرِ وَالثِّمَادِ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ نَغْدُو جَمِيعًا ... وَتُصْبِحَ ثَاوِيًا رَهْنًا بِوَادِ»[1]

❖ بينما أورد ياقوت ما يزيد الأمر وضوحًا بأنها في سوق حباشة، فقال:

«قَنَوْنَى، بالفتح ونونين، بوزن فَعَوْعَلْ من القَنَا، أو فَعُولَى[2] من القنّ ـ كما ذكرنا في قَرَوْرَى ـ من أودية السراة، يصب إلى البحر في أوائل أرض اليمن من جهة مكة قرب حلي، وبالقرب منها قرية يقال لها يبت، ولذلك قال كثيّر يرثي خندقًا:

بِوَجْهِ أَخِي بَنِي أَسَدٍ قَنَوْنَى ... إِلَى يَبَتٍ إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ

كان خندق الأسدي صديقًا لكثير، وكان ينال من السلف، يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال يومًا: لو أني أصبت رجلاً يضمن لي عيالي بعدي، لقمت في هذا الموسم [. . .][3] أبا بكر وعمر! فقال كثير: فلله عليَّ عيالَك من بعدك! قال: فقام خندق وسبهما، فمال الناس عليه، فضربوه حتى أفضوه إلى الموت، فحمل إلى منزله بالبادية، فدفن بموضع يقال له قنونى، فقال كثيّر يرثيه في قصيدة:

حَلَفْتُ عَلَى أَنْ قَدْ أَجَنَّتْكَ حُفْرَةٌ ... بِبَطْنِ قَنَوْنَى لَوْ نَعِيشُ فَنَلْتَقِي»[4]

ثم ذكر بعض الأبيات التي تقدّمت.

(1) الأصفهاني، **الأغاني** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (12)، ص (123 ـ 126).
(2) أرى هذا الوزن هو الصحيح، بفتح العين أو بضمها، وأنْ لا علاقة لها بالقنا.
(3) الكلمة في طبعة المعجم (وتكلمت)، وهو تحريف لا معنى له، والصحيح أنها (فلعنت)، نعوذ بالله من الخذلان!
(4) الحموي، **معجم البلدان** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (4)، رسم (قنونى).

● إِغْفَالُ الْحَدِيثِ عَنْ سُوقِ حُبَاشَةَ في مَصْدَرَيْنِ خَصَّا أَسْوَاقَ الْعَرَبِ بِالذِّكْرِ

مِن العجب الذي يَلفتُ نظر من يبحث في أسواق العرب، أن أحد أهم المصادر التي ذكرت أسواق العرب، أغفلت ذكر سوق حباشة، ويبلغ العجب مبلغه حين يكون ذلك منقولاً عن ابن دريد الأزدي (000 ـ 321هـ)، فقد قال المرزوقي (000 ـ 421هـ) ـ رحمهما الله ـ في (الأزمنة والأمكنة): «قال أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي في إسناد ذكره، إن أسواق العرب الكبيرة كانت في الجاهلية ثلاث عشرة سوقًا. فأولها قيامًا: سوق دُومة الجندل. . . ثم صُحارٍ، ثم دبَا، ثم الشِّحر، ثم رابية حضرموت، ثم ذو المجاز، ثم نطاة خيبر، ثم المشقّر، ثم حَجْر باليمامة، ثم منًى، ثم عكاظ، ثم عدن، ثم صنعا»[1].

وبعد أن أتم شرح أيام هذه الأسواق، وبعض ما يجري فيها، قال: «ثم تقوم سوق بُصرَى. . . ثم تقوم سوق أذرعات، وهي اليوم أطولها قيامًا. . . قال: وزاد بعضهم في الأسواق (المجنة) وهو قريب من ذي المجاز، والأسقَى خلف حضرموت»[2].

رجعتُ إلى كتاب (جمهرة اللغة) لابن دريد، فرأيته حين تحدث عن مادة (حبش)[3] لم يذكر السوق، وليس لابن دريد في ما بين أيدينا من كتبه قولٌ كاملٌ عن أسواق العرب؛ ولعل المرزوقي نقله من كتاب لم يصل إلينا، بحيث نعرف هل أغفل ابن دريد سوق حباشة فيه، أم إنه ذكرها في غير سياق الأسواق الثلاث عشرة، وقد نضرِبُ صفحًا عن تتبع ذلك حين نرى أنه لم يذكر سوق مجنة ضمن تلك الأسواق، وحين يرتب قيام الأسواق ترتيبًا يغاير ما جاء في المصادر الأخرى!

وأما المصدر الآخر، وهو أقدم من كتاب المرزوقي، ولعله أُلِّفَ بعد مصدر المرزوقي من كتب ابن دريد، فهو كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني، حيث يذهب

(1) أبو علي المرزوقي، **الأزمنة والأمكنة**، ضبط: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ/ 1996م، ص (382).
(2) المرزوقي، المصدر نفسه، ص (388).
(3) أبو بكر بن دريد، **جمهرة اللغة**، تحقيق: د. رمزي منير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1987، ج (1)، ص (278).

بعيدًا من بارق وغور السراة، ثم يلتفتُ عائدًا إليها، ولم يكن لسوق حباشة فيه ذكرٌ، ولـما ذكر أسواق العرب لم تكن سوق حباشة من بينها. قال: «أسواق العرب القديمة، وقد ذكرناها: عدن، ومكة، والجَنَد، ونجران، وذو المجاز، وعكاظ، وبدر، ومجنّة، وحجر اليمامة، وهجر البحرين»[1].

فهل كان لولاة مكة أو غيرهم أثر في إخفاء ذكرها؟!!

● نَفْيُ شِرَاءِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مِنْ سُوقِ حُبَاشَةَ فِي بَارِق

قبل نهاية هذا الفصل، والذي ورد ضمن نصوصه أن حكيم بن حزام اشترى زيد ابن حارثة ووهبه عمّتَه خديجة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وقد نصَّ بعضها على أنه اشتري من سوق حباشة، وبعضها على أنه من سوق عكاظ، وبعضها جعل حكيمًا جاء به من الشام.

إننا أمام ثلاثة أقوال، أحدها صحيح. ولكن ما هي الرواية التي يمكن الاطمئنان إليها؟!

لا خِلاجَ في أنها الرواية التي جاءت من حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصيّ نفسه، ونقلها إلينا أقرب الناس إليه في عمود النَّسب، وهو الزُّبَير ابن بَكّار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزّبير بن العوّام بن خويلد بن أسد في (جمهرة نسب قريش)، حيث ورد فيها:

«حدثنا الزبير، قال: وحدثني عن الواقدي، عن الضحاك بن عثمان، عن أهله قال: قال حكيم بن حزام: كنت أعالج البرّ[2] في الجاهلية، وكنت رجلاً تاجرًا أخرج إلى اليمن وإلى الشام في الرحلتين، فكنت أربح أرباحًا كثيرة، فأعود على فقراء قومي، ونحن لا نعبد شيئًا؛ نريد بذلك ثراء الأموال، والمحبة في العشيرة، وكنت أحضر الأسواق، وكانت لنا ثلاث أسواق: سوق بعكاظ، تقوم صبح هلال ذي

(1) الهمداني، **صفة جزيرة العرب** (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (296).
(2) عالج الشيء: مارسه وزاوله (المحقق). ووردت بتحقيق هاني الجراخ: البَزّ. وتتساوى كفّتا القبول بإحدى الكلمتين.

القعدة، فتقوم عشرين يومًا ويحضره[1] العرب، وبه ابتعت زيد بن حارثة لعمتي خديجة بنت خويلد، وهو يومئذ غلام، فأخذته بستّمائة درهم. فلما تزوج رسول الله ﷺ خديجة، سألها زيدًا فوهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ. وبه ابتعتُ حُلّةَ ذي يزن، كسوتها رسول الله ﷺ، فما رأيت أحدًا قطُّ أجمل ولا أحسن من رسول الله في تلك الحلة.

ويقال إن حكيم بن حزام قدم بالحلة في هدنة الحديبية، وهو يريد الشام، في عِيرٍ، فأرسل بالحلة إلى رسول الله، فأبى رسول الله أن يقبلها، وقال: لا أقبل هدية مشرك. قال حكيم: فجزعت جزعًا شديدًا حيث رد هديتي، فبعتها بسوق النَّبَط من أول سائم سامني. ودسّ رسول الله إليها زيد بن حارثة فاشتراها، فرأيت رسول الله ﷺ يلبسها بعد»[2].

ثم إنه قد مرَّ بنا ما نقله الزبير بن بكار من قول حكيم بن حزام إنه كان اشترى بزًّا من رسول الله ﷺ في سوق حباشة. ولو أنه اشترى زيدًا منها لذَكر شأنه.

وورد في الكتاب نفسه بعد هذا حديث عن حكيم، ليس من شأن كتابنا هذا، جاء في آخره: «قال نافع: وكان حكيم لا يُتَّهَمُ على ما قال»[3].

وقد مرَّ بنا قول السهيلي: «وأم زيد سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر من بني معن من طيئ، وكانت قد خرجت بزيد لتزيره أهلها، فأصابته خيل من بني القين بن جَسْرٍ، فباعوه بسوق حباشة، وهو من أسواق العرب، وزيد يومئذ ابن ثمانية أعوام»[4]، ويُفهم من هذا أن الواقعة حدثت بين بلاد طيئ وبلاد بلقين بن جسر القضاعيين. وبلاد طيئ كانت في ناحية حائل اليوم وفي أطرافها الغربية وفي رملة بحتر، وهي النفود الكبير، وبلاد بلقين في ناحية شماليّ حرة خيبر وجنوبي تيماء وفي ناحية الجوف وشمالي تبوك إلى خليج العقبة، وهذا يوحي بأن زيدًا بِيع في سوق حباشة التي في

(1) انتقل الضمير من التأنيث إلى التذكير!!
(2) الزبير بن بكار، **جمهرة نسب قريش وأخبارها** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (1)، ص (378).
(3) الزبير بن بكار، المصدر نفسه، ج (1)، ص (381).
(4) السهيلي، **الروض الأُنُف** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (3)، ص (17).

يثرب، والتي يختص بها بنو قينقاع اليهود، فهي سوق مفتوحة، ليس لها زمن محدد، ولعل من اشتراه منها نقله إلى عكاظ فباعه فيها؛ أقول ذلك للتوفيق بين القولين.

● عُتَيْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يَهْلِكُ فِي الطَّرِيقِ إِلَى سُوقِ حُبَاشَةَ

جاء في (ديوان حسان بن ثابت) ـ رضي الله عنه ـ برواية محمد بن حبيب (000 ـ 245هـ)، ما يلي:

«وقال حسّانُ لعتيبةَ بنِ أبي لهبٍ، وكان يكنى أبا واسعٍ، وكان شديدَ الأذى للنبي ﷺ، فقال النبي عليه السلام: اللهمّ سلط عليه كلبًا من كلابك. وخرج أبو واسعٍ في سفرٍ له ومعه عِدّةٌ من قومه، فخطا إليه السبع من بينهم حتى أكله:

سَائِلْ بَنِي الأَشْعَرِ إِنْ جِئْتَهُمْ   مَا كَانَ أَنْبَاءُ أَبِي وَاسِعِ!

لاَ وَسَّعَ اللهُ لَهُ قَبْرَهُ   بَلْ ضَيَّقَ اللهُ عَلَى الْقَاطِعِ»[1]

وورد تعليق في حاشية إحدى مخطوطات الديوان: «بنو الأشعر يعني الأشعريين. وقال بعض الناس: خرج عتيبة إلى ناحية اليمن إلى سوق حباشة ـ وكان رسول الله ﷺ خرج إلى سوق حباشة مع ميسرة غلام خديجة في مالها، وهو قريب من مكة ـ وبعضٌ يقول خرج إلى حوران. فمن قال «الأشعر» قال: خرج عتيبة إلى سوق حباشة، ومن قال «سايِل بني الأصفر» قال: خرج عتيبة إلى حوران»[2].

وواضحٌ الفرقُ بين مخاطبة حسانَ بني الأشعر وبين مخاطبته بني الأصفر، والرواية الأصلية في الديوان: سائل بني الأشعر، والبيان العربي لا يوَجّه إلا إلى العرب، ثم إنه من غير المقبول أن يجاوز حسان ممدوحيه من الغساسنة المسيطرين على حوران إلى الروم.

● لِمَ لَمْ يَبْلُغْنَا شَيْءٌ مِنْ أَدَبِيَّاتِ سُوقِ حُبَاشَةَ؟

لا بُدَّ لكلّ سوقٍ من أسواق العرب من أدبيات، تكون إما على هامش تجارتها كما في مجنة، وإما تشاطرها تجارتها كما في عكاظ، وإما تتصدر أعمالها كما في المِربَد.

واختصاص عكاظ بالمنافرات، حيث يتعاكظ الناس فيها ويفاخرون بأفعالهم

(1) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: وليد عرفات، بيروت، دار صابر، 2006 م، ج (1)، ص (429).

(2) ديوان حسان بن ثابت، المصدر المتقدم، ج (2)، ص (310).

ووقائعهم، لا ينفي أن غيرها من الأسواق خِلْوٌ من المنافرات، ولكنْ لعل عكاظَ كانت أول سوقٍ بدأ فيها هذا الأمر، أو لعلها كانت أول سوق قامت على نظامٍ واضحٍ متفقٍ عليه، فكان لها الفخر بهذا الاسم، ولعل حباشة تلتها في نسبة التسمية إلى نظام التجمُّع، فكانتا على غرار واحد من سبب التسمية، بينما سميت الأسواق الأخرى بأسماء مواضعها.

ولا يخالجني شكٌّ في أن لسوق حُباشة أدبياتٍ وخُطَبًا ـ كما فعل خطيب الخشبية خندق الأسدي ـ، وربما قصائد كالتي لغيرها من الأسواق، وإن لم تكن بشهرة ما يقوم في عكاظ، غير أنه لم تصل إلينا أخبارها؛ لأسباب نجهل الكثير منها، ولكني أسجل ما يمكن أن يكون ممكن الحدوث من تلك الأسباب، ومن ذلك:

- انقطاع نشاط سوق حباشة قبل سيادة عصور التدوين في حواضر العالم الإسلامي.
- أن ذلك لم يكن من ما يقوم في السوق كلَّ موسم.
- إعراض القبائل العدنانية عن المفاخرة فيها؛ ذلك لأن عكاظَ ومجنة وذا المجاز في ديارهم، ولا ريب في أن صدى فخر كل قبيلة عدنانية بين قومها سيكون أقوى منه بين القبائل القحطانية، التي تنظر إلى العدنانيين عنصرًا واحدًا.
- اختلاف ألسنة بعض قبائل جنوبي جزيرة العرب، ومفاخرتها في ما بينها؛ مما يتعذر له أو يصعب أن ينقل العدنانيون أخبارها إلى ديارهم.
- انصباب همِّ مدوِّني عصور التدوين على التزلف إلى العباسيين أصحاب السيادة، بتسجيل أخبار مُضَر، وتهميش أخبار ربيعة، وإغفال أخبار القحطانيين.
- نَقَلة الأخبار في عصور التدوين هم من قيس عيلان ومن أسد بن خزيمة ومن تميم، ومن بني حنيفة، ولا يتصل بحواضر العراق من القبائل القحطانية سوى طيِّئ، التي كانت قد ابتعدت عن منازل إخوتها منذ قرون.
- لن ينقل العدنانيون إلا أخبار قبائلهم، وما كان من منافرات في عكاظ أو في المربد، وسيتركون كل ما يمتُّ بِصِلةٍ إلى القحطانيين؛ كأخبار أيام خزازَى

والسُّلان بين قحطان وعدنان، وتوزيع الحارث بن عمرٍو الكندي أولاده ملوكًا على القبائل العدنانية، فكان منهم ما كان من جَوْرٍ وسُوءِ سيرة، غير ما كان من نأي أصقاع القحطانيين عن حاضرة الدولة العباسية، لعل كل ذلك أسهم في ضياع أخبار سوق حباشة.

- انشغال مدوّني اليمن بالصراعات بين دويلاتها، والاكتفاء بأخبارها.
- ضياع جانب كبير من نوادر أبي عليٍّ هارون بن زكريا الهَجَريّ وتعليقاته، التي استقاها من أفواه الرواة، وكان من بينهم كثيرون من أهل تهامة واليمن ومن قضاعة ومن الأزد ومَذْحِج وبني الحارث بن كعب وغيرهم، الذين يمكن الظنُّ بأنهم نقلوا إليه شيئًا من أخبار السوق، عمّن عاصروا السوق قبل تخريبها، أو نقلوا أخبارها عمّن أدركوها.
- تأخر ظهور مؤرخين أو مدونين جادّين في جنوبي جزيرة العرب كالهمداني، إلى زمن ما بعد أفول نجم سوق حباشة.

وههنا سؤالٌ: كيف استطاع نقلة الشعر إيصال بعض ما قاله الشَّنفَرَى من شعرٍ، حين نأخذ الشَّنفرى مثالاً؟

إن المجامعَ ـ كسوق حباشة ـ هي تلك التي حفظت مثل هذا التراث، ولم تذكر المصادر أن الشنفرى وقف خطيبًا في عكاظ، يُسْمِع الناس قولَه!

● مَنْ يَحْمِي حَاضِرِي سُوقِ حُبَاشَةَ؟

ورد في (الكامل في التاريخ) لابن الأثير ـ رحمه الله ـ (555-630هـ)، في خبر مقتل عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، وهو عروة الرّحّال على يد البرّاض الكناني حليف عبد الله بن جُدعان التَّيمي القُرَشيّ، بعد وصول خبره إليهم وهم في عكاظ، أخبرهم به رجل من بني أَسَد: «فخرج الأَسَديُّ حتّى أتى عكاظ وبها جماعة من الناس، فأتى حرب بن أمية فأخبره الخبر، فبعث إلى عبد الله بن جدعان التيمي وإلى هشام بن المغيرة

المخزومي، وهو والد أبي جهل، وهما من أشراف قريش وذوي السن منهم، وإلى كل قبيلة من قريش أحضر منها رجلًا، وإلى الحليس بن يزيد الحارثي، وهو سيد الأحابيش، فأخبرهم أيضًا، فتشاوروا، وقالوا: نخشى من قيسٍ أن يطلبوا ثأر صاحبهم منا؛ فإنهم لا يرضون أن يقتلوا به خليعًا من بني ضمرة. فاتفق رأيهم على أن يأتوا أبا براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلابٍ ملاعبَ الأسنة، وهو يومئذ سيد قيس وشريفها، فيقولوا له: إنه قد كان حَدَثٌ بين نجد وتهامة، وإنه لم يأتنا عِلمُه، فأجِزْ بين الناس حتى نعلم وتعلم. فأتوه وقالوا له ذلك، فأجاز بين الناس وأعلم قومه ما قيل له، ثم قام نفر من قريش فقالوا: يا أهل عكاظ: إنه قد حدث في قومنا بمكة حدثٌ أتانا خبره، ونخشى إنْ تَخَلَّفْنا عنهم أن يتفاقم الشّرّ، فلا يرُوعَنَّكم تَحَمُّلُنا. ثم ركبوا على الصعب والذلول إلى مكة. فلما كان آخر اليوم أتى عامرَ بن مالك ملاعب الأسنّة الخبرُ فقال: غَدَرَتْ قريش وخدعني حرب بن أمية! والله لا تنزل كنانةُ عكاظَ أبدًا»[1].

من خلال هذه الواقعة، رأينا أن أحد أعيان هوازن من أهل نجدٍ، لا من أهل الطائف، وهو أبو براء، كان له القول الفصل والأمر والنهي في موسم عكاظ، في حين أن الأرض لبني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن.

ومن خلال ما قدمناه، فإنه يمكن القول بأن سوق حباشة، وإن كان في ديار الأوصام، فإنه تحت حماية قبائل بارق كلها، تتصرف فيه في أمرها ونهيها ورضاها ومنعها. فإنْ قال قائل: لِمَ لا يكون الأمر والنهي فيه للأزد كلها؟ فإنَّ جوابه: ولِمَ لَمْ يكن أمر سوق عكاظ إلى قيسِ عيلانَ كلها، وهي سوق قيسٍ!

وأما القبائل التي تحضر السوق، أزديُّها وغيرُ أزديِّها، فإن وجهاءها وأهلَ الرأي فيها، يكُفُّون أذى سفهائها، إلا من كان خليعًا مباح الدّم، ولعل الشَّنفرى كان من بين أولئك المخلوعين، إلا أنه أَنِسَ بحرمة الاعتداء في الشهر الحرام، ولعل في قوانين السوق وتنظيماته ما يحفظ حياته وحياة أضرابه، فجاء إلى السوق مطمئنًّا.

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تعليق: عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1407هـ، ج (1)، ص (469).

● هَلْ تَقُومُ سُوقُ حُبَاشَةَ فِي غَيْرِ شَهْرِ رَجَب؟

مرَّ بنا قبل صفحات ما نقله إلينا ابن عساكر[1] حول إسلام معاوية ـ رضي الله عنهما - إبان صلح الحديبية، وأن أباه كان غائبًا في سوق حباشة، في ذي القعدة سنة ست من الهجرة.

كما مر بنا ما سطّره النجم عمر بن فهد، ومنه: «وخرج النبيّ ﷺ مع غلام لخديجة يقال له ميسرة، وجعل عمومة النبي ﷺ يوصون به أهل العِير، فبلغ سوق بُصرى ـ وقيل سوق حباشة بتهامة ـ لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، فباع تجارته التي خرج بها، فربح ضعف ما كانوا يربحون، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة»[2].

إن نصَّ ابن عساكر والشكّ الذي أورده ابن فهد في نَصِّه، إشارتان قويّتان إلى أن سوق حباشة تقام في غير موعدها المذكور في المصادر؛ فقد يكون قيامها الدهرَ كلَّه، وقد يكون قيامها في أيام أُخَرَ؛ لأسباب قد تصحُّ جميعُها أو بعضها، ومنها:

- قيام سوق حباشة في ذَوَيْ القَعدة والحجة، إضافة إلى قيامها في شهر رجب.
- قيام سوق حباشة في الأشهر الأربعة الحُرم.
- أن قيام سوقي عدن وصنعاء في شهر رمضان، يجعل سوق حباشة على طريق أهل مكة، فهم يمرون بها في شهر شعبان وأول رمضان وفي شهر شوال.
- أن رحلتي قريش في الشتاء والصيف رحلتان مفتوحتا التوقيت بالسنين القمرية، مما يجعلنا نظنُّ بقيام سوق حباشة في أوقات متفاوتة من السنة.
- أن النسيء، وهو نسخ حُرمة بعض الأشهر الحُرُم وتحليلها وتحريم بدائل لها، ربما يكون ساهم ـ أيضًا ـ في تبديل أزمنة قيام سوق حباشة.
- أن المصادر حين ذكرت قيام سوق حباشة في شهر رجب، إنما صار ذلك في الإسلام، وكانت في الجاهلية في أشهرٍ أُخَرَ.

---

(1) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (59)، ص (67).

(2) ابن فهد، **إتحاف الورَى** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (1)، ص (131).

- أن اختصاص شهر رجب إنما كان للتجمع العام، الذي تُنافِر فيه القبائل بعضها بعضًا، وأن سوق حباشة قائم في أيام أخر، لا يتعدى التبادل التجاري، حتى يعرف مرتادوه موعدًا واضحًا يأتون فيه لكي يسمعوا الأشعار ويظفروا بالأخبار ويحيطوا علما بفخر القبائل في ما بينها.

● رَأْيٌ فِي تَسْمِيَةِ سُوقِ حُبَاشَةَ وَاتِّخَاذِ مَوْقِعِهَا

جاء في (لسان العرب) في مادة «عكظ»: «تعاكَظَ القومُ: تعاركوا وتفاخروا. وعُكاظُ: سوق للعرب كانوا يتعاكظون فيها، قال الليث: سمّيت عكاظًا لأنّ العرب كانت تجتمع فيها فيَعْكِظ بعضُهم بعضًا بالمفاخرة»[1].

وجاء في (معجم ما استعجم) عن عكاظ بعد أن أورد قولاً لابن حبيبَ البغدادي: «وقال غيره: عكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء، وهي من عمل الطائف وعلى بريد منها، وأرضها لبني نصر، واتخذت سوقًا بعد الفيل بخمس عشرة سنة، وتركت عام خرجت الحرورية بمكة مع المختار بن عوف سنة تسع وعشرين ومائة إلى هَلُمَّ جَرًّا»[2].

وقال النابغة الجعدي:

وَلَقَدْ شَهِدْتُ عُكَاظَ قَبْلَ مَحَلِها ... فِيـهَا وَكُنْـتُ أُعَدُّ مِ الْفِـتْـيَانِ[3]

من خلال ما سبق، يمكننا معرفة كثير من خصائص أكبر أسواق العرب، وهي سوق عكاظ، لتطبيق ذلك على سوق حباشة. ومن تلك الخصائص:

- أن فكرة عكاظ وُلِدت بسبب المنافرات والمفاخرات بين العرب فيها، بحيث يأتي أحد القوم بمفخرة، فينقضها من هو أَوْلَى منه بتلك المفخرة. ويحتكم من حضر السوق إلى حَكَمٍ فيه يُرضَى حُكمه في مثل ذلك.
- اتخاذ عكاظ سوقًا بعد الفيل بخمس عشرة سنة، لا يعني أن مولدها آنذاك، بل

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب** (مرجعٌ تقدّمَ)، مادة (عكظ).

(2) البكري، **معجم ما استعجم** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (3)، ص (218).

(3) **ديوان النابغة الجعدي**، جمع: د. واضح الصمد، بيروت، دار صادر، ط 1، 1998 م، ص (176).

إنها اتُّخِذت في موقعها الأخير في ذلك التاريخ. ولعلها استقرت فيه بعد أن عظُم شأنها بين العرب.

- قول النابغة الجعدي ـ رضي الله عنه ـ يدل على قِدَم أمر عكاظ، وأنها كانت تقام في مواضع مختلفة.
- القول بأن أرض عكاظ لبني نصر من هوازن، يشابه قولهم: حباشة سوق الأزد، وهي في ديار الأوصام من بارق.

إننا حين نُقَولِبُ فكرة نشأة سوق حباشة في قالَب نشأة سوق عكاظ، نخرج بمنطقٍ مقبول، وهو أن سوق حُباشة كانت سوقًا للأزد، هم الذين ابتدعوها، في موقع ما من ديارهم، ولعلها كانت تقوم أحيانًا في السراة وأحيانًا في الساحل، فازداد عدد الناس الذين يحضرونها، فضاق رحب السراة بنَعَمهم ورواحلهم، تلك التي تحتاج إلى كلأٍ ومرعًى، ولم يكن بوسعهم متابعتها في الجبال، وازدادت سَمُومُ الساحل، وانقطع أهل الديار القاصية من أطراف نجد ونجران، فاختار الأزد أن يكون موقع السوق ثابتًا، في مكان يعتدل فيه حرّ الصيف عن مناخ الساحل، ويكون أدفأ في الشتاء وأكثر ملاءمةً للناس من زمهرير السروات، ويتوافر فيه المرعى وإن أجدبت الأرض، وتكثر فيه المياه الجارية، ولم يكن لهم مكان يلائم هذا الاختيار سوى ديار الأوصام من بارق.

وإذ قامت عكاظ على المنافرات والمفاخرات في بدء أمرها، فإن حباشة قامت على التحبيش وهو التجمع، واشتُقّ اسمها من تجمع تلك الجماعات التي لا تجمعها قبيلة واحدة، فكان تنافر أنسابهم وبلدانهم وألسنتهم[1] كالرُّقطة؛ وما ذلك إلا لأنها تستقطب زوّارًا من قبائل غير الأزد، من كنانة من الساحل بامتداده الطويل، ومن بني الحارث بن كعب ومَذْحِج وهمدان وقبائل اليمن والأبناء وقضاعة من الناحيتين الجنوبية والجنوبية الشرقية، ومن باهلة وكعب بن ربيعة وبني سعد من تميم وكندة من الناحيتين الشرقية والشمالية الشرقية، ومن قريش وهذيل وثقيف وهوازن من الناحية الشمالية.

(1) أعني أن منهم من يتكلم بلسان حميَر، وآخرين بلسان قضاعة... الخ. وهم هنا يختلفون عن حاضري سوق عكاظ؛ فكأن كلّ جماعة منهم تتحدث بينها بلسانها؛ حيث يتعذر فهم الآخرين إياه.

إنه لا بُدَّ لمثل هذا التجمع من موضع متسع متوسط بين هذه القبائل، يعرف بعضهم أخبار بعض، ويسمع الشماليون منهم حديث الجنوبيين، مطمئنين إلى لقائهم في الشهر الحرام، ومن دخل منهم من الشرق قبل شهر رجب كان في حماية الأزد، ومن سار منهم على الساحل كان في حماية كنانة حتى يدخل رجب فيكون قد وافَى سوق حُباشة. وأما قريشٌ؛ ففي إيلافهم ما يكفل لهم التمتع بالسير في بلاد العرب، فيصلون إلى سوق حباشة قبل بدء الشهر الحرام.

الفصل الثاني

سُوقُ حُبَاشَةَ فِي كِتَابَاتِ الْبَاحِثِينَ الْمُعَاصِرِينَ

جاءت كتابات الباحثين المعاصرين عن سوق حباشة متقاربة الفكرة، حيث تدور حول ارتباطها بوادي قنونى؛ ولعل ذلك كان من ندرة ذكر هذه السوق في المصادر، غير ما تمَحّله بعضهم من تعديل مواضع الفواصل بين الكلمات في المصادر؛ بغية زيادة التصور، الذي أدى إلى مزيد من الغموض.

ومن الكتابات الجادّة في هذا المجال، ما سطره الشيخ عاتق البلادي في كتابه (بين مكة واليمن)، وما سجله الشيخ حمد الجاسر في (مجلة العرب) وغيرها، وما ارتآه الشيخ حسن بن إبراهيم الفقيه، وما أفاده منه وزاد عليه الأستاذ عبد الله بن حسن الرزقي، وما ظنّه أو رآه الأستاذ الدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش، وما علّق به الأستاذ عبد الله بن محمد الفقيه البارقي بعد صدور العدد الخاص بسوق حباشة من حولياتها.

فإلى هذه الكتابات:

- **رَأْيُ الشَّيْخِ عَاتِقِ الْبِلَادِيِّ فِي رِحْلَتِهِ الأولَى وَنَقْلُهُ رَأْيَ الشَّيْخِ حَسَنِ الْفَقِيهِ (صفر سنة 1403هـ)**

في رحلته من مكة نحو الجنوب إلى تهامة، مر الشيخُ الدكتورُ عاتقُ بنُ غيثٍ البلاديُّ بالقنفذة، في 15 صفر سنة 1403هـ، والتقى الشيخَ الأستاذَ حسنَ بنَ إبراهيمَ الفقيهَ ـ رحمهما الله تعالى ـ وتدارسا ما قيل عن سوق حُباشة، فجاءت كتابة البلادي موضِّحةً رأييهما.

قال البلادي في الصفحة الـ (143) من كتابه (بين مكة واليمن)، وهو يتحدث عن وادي قنونى: «لقَنَونَى ذكر في الأدب القديم غير خامل، ويكاد ينحصر ذكره في سببين:

أولهما: وجود سوق حباشة الجاهلي فيه، على ما سيأتي.

وثانيهما: وفاة خندق الأسدي ـ صاحب كثيّر ـ فخلده كثير في شعره، وذكر قنونَى».

ثم إن البلادي سطّر رأيه في الصفحة الـ (148) من الكتاب نفسه، فقال:

«أين يقع سوق حُباشة؟

قال الأزرقي أثناء سياق روايته: وحُباشة سوق الأزد وهي في ديار الأوصام من بارق، من صدر قنونى وحلي، من ناحية اليمن، وهي من مكة على ست ليال.

قلت: هنا نقاط تحتاج إلى مناقشة:

1 ـ قوله: من صدر قنونى وحلي؛ المكانان لا يمكن جمعهما، فهما واديان يتباريان وبينهما عشرات الأكيال، فهو إما من صدر قنونى أو [من] صدر حلي.

2 ـ نص البكري على أنه من صدر قنونى.

3 ـ أجمعت النصوص [على] أنه في ديار بارق، وديار بارق من حلي وليست من قنونى، ولا أعتقد أنهم كانوا ينزلون قنونى ثم أزيحوا عنها؛ لأن كل ما جاورهم من ديار هي للأزد يمين بارق وشمالها، وبارق أزدية، وكل هذه القبائل [ما] زالت في منازلها القديمة.

فهذا مشكل من عدة وجوه:

أولاً: لا يمكن ـ كما قدمنا ـ الخلط بين صدر قنونى وصدر حلي.

ثانيًا: يصعب الجمع بين بارق وقنونى.

ثالثًا: ليس مع بارق إلا حلي.

4 ـ خالف أبو عبيدٍ محمدًا الأزرقيَّ في المدة التي تُقضى في السوق، فقال الأزرقي: هي ثلاثة أيام، وقال أبو عبيدٍ: بل ثمانية أيام.

وأرى قول أبي عبيد هنا أرجَحُ؛ إذ ليس من المعقول (!) أن يجتمع التجار كل سنة مرة واحدة ثم لا يقضون سوى ثلاثة أيام، فهو وقت غير كافٍ.

الأستاذ حسن يصر على أنه في قنونى:

أخي الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه عالم آثار وباحث مدقق، ويعرف هذه المنطقة شِعبًا شعبًا وجبلاً جبلاً، وعندما ناقشته في موقع سوق حباشة، وأشرت إلى مكان من حلي رأيته مظنة لمثل هذا الموقع، أكد لي أن الموقع في قنونى، وأنه يوشك أن يضع يده على البرهان القاطع، فقال:

أستنتج من القراءات والمشاهدات التي قمت بها ميدانيًا، أن سوق حباشة الذي أشار إلى موقعه المؤرخون، وخاصة الأزرقي والبكري، يقع في بداية تكوّن وادي قنونى، بعد اجتماع الأودية الأربعة المذكورة في بحث قنونى ـ وادي رحمان، ووادي الخيطان، ووادي الحفيان، ووادي بيان ـ جنوب غربي قرية الفائجة بحوالى (4) أكيال، شرق المحلة المعروفة بالحوائر[1] في بلاد بلقرن، وبلحارث منهم خاصة. ثم يقول: والناس هناك يسمون هذا الموضع السوق، وينطبق عليه إلى حد كبير التحديد الجغرافي القديم، والآثار الموجودة المشاهدة بما في ذلك من قبور وفخار وبعض آبار، حتى المباني القديمة.

على أنه لا يزال يتحرى ويتأكد لإكمال البحث.

قلت: هذا خبر جيد، وأعتقد أنه إذا لم يعثر عليه الفقيه فلن يعثر عليه غيره، فله من المعرفة في هذه الديار وأهلها ما لا يتيسر لغيره.

وسألته عن الأوصام من بارق، فقال: لا يعرفون[2] الآن»[3].

(1) سماها البلادي الحوائر، بينما تسمى ـ محليًا ـ الحواري.
(2) يبدو من خلال هذا القول، أن الفقيه آثر ترك النقاش حول الأوصام على الخوض فيه مع البلادي؛ لأنه يدرك إلمامه بالقبائل!
(3) عاتق بن غيث البلادي، **بين مكة واليمن**، مكة، دار مكة، ط1، 1404هـ/ 1984م، ص (143)، (148).

● رَأْيُ الشَّيْخِ عَاتِقِ الْبِلَادِيِّ في رِحْلَتِهِ الثَّانِيَةِ (ربيع الآخر سنة 1403هـ)

استكمل الشيخ الدكتور عاتق البلادي رأيه السابق في نهاية الصفحة الـ (150) من الكتاب نفسه، فقال:

«وفي رحلتي الثانية من هذا الكتاب حرصت على رؤية المكان الذي ذكره الفقيه، غير أني لاحظت أن سوقًا كهذا يجتمع فيه العرب من كل أقطار الجزيرة يحتاج إلى موقع أوسع من هذا[1]، كما أن هذا المكان منحرف عن الطرق وخاصة طريق العرضية، الذي أكّد أهل الديار أنه قديم، ولو لم يؤكد أخي الفقيه هذا الموقع لقلت: إن المعقص قَمِنَةٌ للسوق إذا صح وجوده في قنونى، وأراه يصح».

ثم قال في الصفحة الـ (337)، متحدثًا عن رحلته الثانية:

«بعد مراجعة معلومات تلك الرحلة الطويلة التي بدأت من مكة وانتهت عند حدود اليمن، وجدت فيها فجوة عن مكان حساس في هذه الرحلة، وقبائل مهمة لا يمكن إغفالها.

أما المكان فهو وادي قنونى الذي اشتهر بوقوع سوق حباشة فيه... لذا فقد رأيت لزامًا عليَّ القيام برحلة إلى تلك الديار وتقصي المعلومات هناك، وخاصة عن موقع سوق حُباشة».

ثم قال في الصفحة الـ (350):

«وعند قرية المعقَّص فرق إلى اليسار طريق ترابي أخذ وادي الحفيان قبلاً، وهو وادٍ ريَّانٌ يسيل غيلُه على وجه الأرض، وهو أحد الأودية الثلاثة الكبار التي يتكون منها وادي قنونى، وهي: وادي بيان، ووادي الحَفيان، ووادي الخيطان، فإذا اجتمعت سُمّي الوادي قنونى إلى البحر، وبيانٌ هو ساعده الجنوبي، والخيطان ساعده الشمالي، والحفيان وسطه، وعند التقاء هذه الأودية تتكون باحة واسعة تتوسطها قرية المعقَّص المنتشرة هنا، وهنا كان قد أقيم مكان لسوق حباشة، فمن أراد البحث عنه فليتحرّه هنا»[2].

---

(1) أجل! فهذه صفة الباحث الجيّد، فلقد كان البلادي في رحلته الأولى واثقًا بقدرة الفقيه على البحث عن السوق، ثم أدرك في رحلته الثانية أن كلام الفقيه لم يكن مقنعًا.

(2) البلادي، **بين مكة واليمن**، (المصدر المتقدم)، ص (150)، (337)، (350).

● رَأْيُ عَلَّامَةِ الْجَزِيرَةِ الشَّيْخِ حَمَدِ الْجَاسِرِ في مَوْقِعِ السُّوقِ (1405هـ)

واختصرت منه ما كان مكررًا في المصادر:

«حباشة: أشهر أسواق تهامة قديمًا

هذا الموضع التاريخي الذي ألّف ياقوت الحموي أعظم كتاب وصل إلينا في تحديد المواضع بسبب البحث عن ضبط اسمه، أليس جديرًا بأن يحدَّد ويبيَّن موقعه؟!

قال ياقوت في مقدمة معجم البلدان...

ثم إنه موضع ورد في ذكره من الأخبار والآثار التاريخية ما لا ينبغي لطالب العلم أن يجهله، فقد نقل الإمام ابن عبد البر في كتابه (الاستيعاب) في ترجمة زيد بن حارثة، عن عالم مكة الزبير بن بكار الزبيري وعن عمه مصعب: «كان زيد بن حارثة أصابه سباء في الجاهلية، فاشتراه حكيم بن حزام في سوق حباشة، وهو سوق بناحية مكة، كان مجمعًا للعرب، يتسوقون بها كل سنة، اشتراه حكيم لخديجة بنت خويلد، فوهبته خديجة لرسول الله ﷺ بمكة قبل النبوة، وهو ابن ثمان سنين، فتبناه رسول الله ﷺ فكان يدعى زيد بن محمد، حتى نزل قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾[1].

وأورد البكري في معجم ما استعجم...

ولعل أوفَى وصف لسوق حباشة وصل إلينا، ما أورده مؤرخ مكة الأزرقي في كتاب (أخبار مكة)، ونصه...

ويظهر أن ياقوتًا لم يطّلع على كتاب الأزرقي لأنه لم يذكر عن حباشة سوى قوله، بعد ذكر المعنى اللغوي للكلمة: «وحباشة سوق من أسواق العرب في الجاهلية، ذكره في حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزُّهري: لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده وليس له كثير مال، استأجرته خديجة إلى سوق حباشة، وهو سوق بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر»، وساق الحديث وأورد بعده خبرًا يتعلق بسوق آخر يسمى حباشة، يظهر أنه من أسواق المدينة النبوية قبل الإسلام، ولم يذكر موقع حباشة من تهامة.

---

(1) سورة الأحزاب، الآية (5).

وما ذكره الأزرقي في تحديد ذلك السوق واضح، فوادي قنونى ووادي حلي لا يزالان معروفين، وهما بناحية اليمن بالنسبة إلى مكة، إذ كل ما هو يمينها يسمى يمنًا، ولا يزال هذا معروفًا في عهدنا، فبادية مكة وما حولها يطلقون اسم الشام على ما هو واقع شمال مكة؛ واليمن على ما هو واقع جنوبها، ومن ذلك تقسيمهم قبيلة هذيل إلى هذيل الشام وهذيل اليمن، يعنون هذيلاً الساكنين شمال مكة، وهذيلاً يمنها.

وقبيلة بارق التي[1] يقع سوق حباشة في بلادها لا تزال معروفة مستقرة في مواطنها القديمة، التي هي في غور سراة عَنزٍ والحجْر، وهي أزدية قحطانية، صريحة النسب من مازن ابن الأزد. وقبيلة بارق أخت قبيلة ألمع التي لا تزال في بلادها القريبة من بلاد بارق. . .

ويحدّ بلاد هذه القبيلة من جهتي الشرق والشمال بلاد بني شهر من الحجر من الأزد أيضًا.

وبارق بلادهم منتشرة في صدور قنونى وما حولها من فروع الأودية.

ووادي قنونى من أشهر الأودية التي تخترق تهامة حتى تبلغ البحر عند ميناء القنفذة.

وهذا الوادي لا يلي وادي حلي - كما يفهم من كلام الأزرقي - بل يفصل بينهما وادي يبة. . . والأودية الثلاثة مشهورة قديمًا، ومعروفة الآن.

ويظهر أن موقع السوق من صدر قنونى، هو حيث يتسع حوض الوادي بمجاوزته ما كان يحصر مجراه من الجبال، وامتداده في سهل تهامة المتسع لنزول الكثير من الناس ممن يحضر ذلك السوق السنوي الشهير من مختلف الجهات.

وهناك في الأرض البراح ملتقى للطرق المسلوكة قديمًا وحديثًا، حيث تقع قرية تدعى (الأحد)، إذ يقام فيها سوق أسبوعي كل يوم أحد، لا أستبعد أن يكون موقع

(1) في كتابه (أهل السراة في الجاهلية والإسلام)، الصادر سنة (1427هـ)، والذي أعاده في سِفره العظيم (اليعسوب)، الصادر سنة (1430هـ)، أورد الدكتور عبد الله أبو داهش في الصفحة الـ (28) قول الشيخ حمد الجاسر مضيفًا إليه من رأيه الخاص بين حاصرتين: (يظن أنه)، فأصبح الكلام: «وقبيلة بارق التي [يظن أنه] يقع السوق في بلادها لا تزال معروفة مستقرة. . .».

سوق حباشة القديم بقرب هذه القرية، وأنه أعيد بعد تخريبه من قِبل أمير مكة داود بن عيسى، والتخريب - إن تمّ - يصدق على ما فيه من مبانٍ، والملاحظ في الأسواق التي لا تستمر زمنًا طويلاً، عدم الحاجة إلى المباني، بل الاكتفاء بالبيوت المنصوبة، كالخيام ونحوها من ما يسهل نقله عند انتهاء زمن السوق، الذي لا يزيد على أيام.

ثم إن من عادة القبائل، أنها تستعيد ما قد تحتاج إليه، عندما تقوى على استعادته، ومن المعروف أن سيطرة الدولة العباسية على هذه البلاد بدأت في الضعف منذ أول القرن الثالث الهجري، وأنها لم تتمكن من إخضاع جميع قبائل الجزيرة.

ويقع سوق حباشة على ما ظهر لي بقرب خط الطول 12َ/ 41°، وخط العرض 10َ/ 19° شرقي بلدة القنفذة[1] بنحو عشرين كيلاً.

وتحسن الإشارة إلى أن الأزرقي أشار في كتابه إلى العلة في عدم شهرة سوق حباشة، وأنه لم يرد ذكره كثيرًا مع أسواق العرب المشهورة، وهي أنه لم يكن في مواسم الحج ولا في أشهره، وإنما كان يقام في شهر رجب.

أما قول الأزرقي عن السوق: «يقيمون بها ثلاثة أيام»، فإنه لا يتفق مع قول البكري أن مدة الإقامة ثمانية، ولعل هذا أعدل القولين، فثلاثة الأيام قصيرة بالنسبة لإعداد ما يلزم لنزول السوق وتعاطي البيع والشراء فيه. وما أسهل تصحيف[2] كلمة (ثمانية) بـ(ثلاثة)!»[3].

• رَأْيُ الشَّيْخِ حَسَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْفَقِيهِ (1416هـ)

جاء هذا الرأي في العدد الأول من حوليات سوق حباشة، الصادر عن نادي أبها الأدبي (1416هـ/ 1996 م)، وهذا نصُّه:

«حُباشة بضم الحاء: اسم لثلاثة أمكنة في جزيرة العرب في ما ترويه لنا المصادر

(1) أضحت القنفذة مدينة كبيرة، تزداد نماءً يومًا بعد يوم.

(2) ذلك لأن الكلمة (ثمانية) كانت تكتب في المخطوطات القديمة (ثمنية)، والكلمة (ثلاثة) كانت تكتب (ثلثة)، ولعل الميم من (ثمنية) أطال عُرفَها ناسخُها، فظُنت لامًا، وساعد على التحريف طريقة رسم النُّقَط أو انعدامها.

(3) **مجلة العرب**، ج (5، 6)، السنة العشرون، ذوا القعدة والحجة 1405هـ.

المتاحة، أحدها وأشهرها: اسم لسوق من أسواق العرب المعروفة التي كانت قائمة في العصرين الجاهلي والإسلامي، والثاني ـ كما يُفهم من كلام الحموي ـ سوق لبني قينقاع. أما الثالث فهو اسم لقرية من قرى اليمن تقع في بلاد همدان، ذكر الشيخ محمد بن علي الأكوع أنها في أعلا أرحب. والمكانان الأخيران من هذه الأمكنة ليسا موضوع هذا المقال المختصر، وإنما موضوعنا هو الأول: (سوق حباشة).

والحُباشة ـ كما أصّلها اللغويون ـ: الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة. ولعل ذلك سبب تسمية هذه السوق بِـ(سوق حباشة)؛ لأنها كانت تضم بين جنباتها حين قيامها أخلاطًا شتَّى ممن كان يهبط إليها من مختلف القبائل للمتاجرة، أو التحاكم وفض النزاعات وفداء الأسرى، أو غير ذلك من الأغراض التي كانت تقوم بأسبابها الأسواق العربية الموسمية الكبيرة، وهو تأصيل يجتمع من حيث فكرة التأصيل مع تأصيل اسم أشهَر أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: (سوق عكاظ) من التعكظ أو المعاكظة التي تعني اجتماع العرب فيه للمفاخرة والمحاجّة والنظر في أمورهم التي تقوم السوق موسميًّا من أجلها.

المكان والزمان:

قامت سوق حباشة بتهامة، وحدد أبو الوليد الأزرقي: أنها «في ديار الأوصام من بارق إلى صدر قنونا وحلي من ناحية اليمن وهي من مكة على ست ليال». وهذه العبارة تجول بالباحث في منطقة واسعة عندما يبحث في تحديد الموقع، يضاف إلى ذلك أن قوله: «في ديار الأوصام» يزيد من عبء الباحث إذا علم أنه لا يُعرف في الحاضر أو الماضي اسم لقبيلة أو أرض بهذا الاسم: (الأوصام)، وإن كنتُ عددْتُه تحريفًا لاسم (الأواس) القبيلة الأزدية التي حلت هذه السوق في ديارها آنذاك من صدر قنونا، وهو الموقع الذي يُعدّ أقرب إلى الصواب في أنه يبعد ست ليال عن مكة، ويؤكد ذلك ما أورده أبو عبيد البكري عن أنها: «من صدر قنونا وأرضها لبارق»، وكانت (الأواس) صاحبة الموقع على نحو ما فصلت عنه في البحث المطول الذي أعددته عن هذه السوق، وعزمي أن أنشره قريبًا إن شاء الله.

ويذكر الأزرقي أن مدة إقامة مرتادي هذه السوق بها: «ثلاثة أيام من أول رجب متوالية»، لكن البكري يقرر أنها: «كانت تقوم ثمانية أيام في السنة»، ولا شك في أن

تخليد هذه السوق، وشيوع ذكرها في المؤلفات العربية القديمة إنما كان لكونها: «أكبر أسواق تهامة».

كما نعتقد أن أهمية موقعها في هذا الوسط أكسبها شهرة وميزة؛ ذلك لأنه الوسط الذي كان سكانه مشهورين بالاشتغال بالتعدين، وبخاصّة تعدين الذهب، مع قربه من موقع معدن عشم، أحد أشهر المعادن في الجزيرة العربية[1]، ولجودة ذهبه وغزارة معدنه، ولذلك قامت على وجوده قرية عشم، عاصمة المخلاف المسمى بها. وقربه ـ أيضًا ـ من أقصر الطرق التجارية الرابطة بين اليمن والحجاز، الذي نحسبه طريق رحلة الشتاء للقوافل التجارية القرشية، وهو المعروف بطريق المخاليف؛ لكثرة القرى الواقعة على امتداده، وفوق ذلك فقد خلّد الحديث الشريف اسم هذه السوق ورفع من ذكرها؛ حيث تاجر رسول الله ﷺ فيها قبل نبوّته وبعثته، فقد أرسلته خديجة رضي الله عنها مع رجل آخر في تجارة لها، في ما رواه الطبري حيث قال في ما قال: «عن ابن شهاب الزهري ـ وقد قال ذلك غيره من أهل البلد ـ: إن خديجة إنما كانت استأجرت رسول الله ﷺ ورجلاً آخر من قريش إلى سوق حباشة بتهامة». وكذلك ما أورده البكري في معجمه عن سوق حباشة، وفيه: «قال حكيم بن حزام: وقد رأيت رسول الله ﷺ يحضرها واشتريت منها بزًّا من بزّ تهامة»، ثم ما أورده الحموي بقوله: «وحباشة سوق من أسواق العرب في الجاهلية، ذكره في حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده، وليس له كثير مال، استأجرته خديجة إلى سوق حباشة، وهو سوق تهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش، قال رسول الله ﷺ، وهو يحدث عنها: ما رأيت صاحبة أجير خيرًا من خديجة؛ ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا، قال: فلما رجعنا من سوق حباشة. . . وذكر حديث تزوّج النبي ﷺ خديجة بطوله».

وفي طول عمر هذه السوق يكمن سبب من أسباب أهميتها وأهمية موقعها؛ فهي السوق العربية الكبيرة التي بقيت حية في العصر الإسلامي قرابة قرنين من الزمان، على

(1) لم تكن مصادر المعرفة القديمة تسمي جزيرة العرب بالجزيرة العربية، فهي في الحديث النبوي الشريف جزيرة العرب، وتسميتها بالجزيرة العربية خطأ جغرافي أدبي؛ حيث يكون وصفًا لكل جزيرةٍ في بحار العرب.

حين اختفت قبل هذا التاريخ بكثير الأسواق العربية الأخرى بما فيها (سوق عكاظ) الأشهر.

وكان ممكنًا أن تستمر حياة (سوق حباشة) لولا حادثة القتل التي استهدفت حياة الوالي الذي كان عليها من قِبَل أمير مكة العبّاسيّ، وكان والي هذه السوق من قبيلة غنيّ، وقد أشار فقهاء أهل مكة على الوالي العباسي بتخريب هذه السوق، فتركت، وكانت هذه الحادثة في سنة 197هـ»[1] اهـ.

● رَأْيُ الشَّيْخِ حَمَدِ الْجَاسِرِ، بَعْدَ قِرَاءَتِهِ رَأْيَ الْفَقِيهِ (1418هـ) حوليات سوق حُبَاشَة

هذا عنوان كتاب يحوي اثني عشر بحثًا، للأستاذ الدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش تحقيقًا أو دراسة، سوى واحدٍ منها عن «حُبَاشَة» بقلم الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه. . .

ولقد عرف الأستاذ الدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش بشدة تعلقه واهتمامه وعنايته واتجاهه لدراسة الأدب في تهامة، وما يتصل بها بحيث يُعدُّ من أوسع المهتمين بهذا الجانب اطلاعًا، وأطولهم باعًا في هذا الأدب، وقد أضيفت هذه الأبحاث إلى سوق حباشة، أحد أسواق العرب المشهورة في العهد الجاهلي وصدر الإسلام، الواقع على مقربة من مدينة (القنفذة) كما سيأتي توضيح هذا.

وفي تلك الأبحاث من الطرافة وغزارة الفائدة ما يستهوي القارئ المعني بما ترتبط به من موضوعات، أضفى عليها قلم عالم محقق جليل ما بسط الاستفادة منها ووسعها.

ولي وقفة قصيرة عند الحديث عن (سوق حباشة)، ذلك أن حبيبنا الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه أتى بمعلومات موجزة عن ذلك السوق، ويبدو من نشر

(1) عبد الله بن محمد أبو داهش، **حوليات سوق حباشة**، منشورات نادي أبها الأدبي، 1416هـ / 1996م، وهو العدد الأول من الحوليات، وقد استغرقت مقالة الشيخ حسن الفقيه الصفحات (37 - 42) من عنوانها إلى مصادرها ومراجعها.

مصور جغرافي لموقعه منسوبًا إلى مجلة (العرب) أن الباحث الكريم، قد اطلع على بحث منشور في تلك المجلة قبل أكثر من عشرة أعوام (من ذي القعدة وذي الحجة 1405هـ).

ولن أعتب عليه، إن كان قد اطلع على ذلك البحث عدم الإشارة إليه، فقد سلك نهجًا ليس هو الأول من سالكيه، ولكنني سأبدي ملاحظات موجزة عن تحديد موقع ذلك السوق، وعن إعادة رسم المصور الجغرافي الذي بدا في الكتاب غير واضح، وفي وقفات قصيرة عند ما ورد في كلام الأستاذ الفقيه، مع ملاحظة أن كل ما نقل من الأقوال عن تحديد السوق قد أوردتها في البحث المشار إليه.

1 ـ أورد الأستاذ الفقيه من كلام الأزرقي بهذا النص: «في ديار الأوصام من بارق إلى صدر قنونى وحلي في ناحية اليمن».

وفي هذا الكلام خطأ يغير المعنى، وصواب كلام الأزرقي هو: «وهي في ديار الأوصام من بارق من صدر قنونى وحلي».

2 ـ قال الأستاذ الفقيه: «قوله: في ديار الأوصام من بارق، يزيد من عبء الباحث إذا علم أنه لا يُعْرفُ في الحاضر أو الماضي اسم لقبيلة أو أرض بهذا الاسم: (الأوصام)، وإن كنت عددته تحريفًا لاسم (الإواس) القبيلة الأزدية التي حلت هذه السوق في ديارها آنذاك من صدر قنونى، وهو الموقع الذي يُعدّ أقرب إلى الصواب في أنه يبعد ست ليال عن مكة».

وغريب حقًّا أن يقول الأستاذ حسن: لا يُعرَفُ في الماضي ولا الحاضر اسم لقبيلة أو أرض بهذا الاسم (الأوصام)! أليس من الحسن أن يقال: لا يُعرف في الزمن الحاضر، أما الماضي فقد عُرفت قبيلة باسم (الأوصام)، وجهل الأستاذ الفقيه لها ليس من العِلم في شيء، وكان الأَولى القول بأنه هو نفسه لا يعرف، أما نفي العلم عن غيره فلا يتفق مع الحقيقة.

3 ـ متى حلت قبيلة الإواس موقع هذا السوق، وما المصدر الذي يعول عليه في ذلك؟

إن إطلاق القول هكذا، غريب من محقق فاضل كالأستاذ حسن الفقيه.

لقد أورد علماء النسب وإمامهم في ذلك ابن الكلبي، ذكر قبيلة تدعى (الأوصام) من بارق، فقد جاء في (مختصر كتاب جمهرة النسب)[1] مخطوطة راغب باشا، صفحة (209)، ما نصه: «ومن بني ثعلبة بن عمرو الأوصام وشبرُ ولوذان والنَّباج، قبائلُ كثيرة، فمن الأوصام الشاعر وسنان بن أبي عطاء، قتلته الحجرُ بطن في السراة، ومُنْذر بن عوفٍ الشاعر».

وجاء في كتاب (نسب معد واليمن الكبير)، ج (2)، ص (465): «وولد ثعلبة بن عدي بن حارثة: حارثة، فولد حارثة بن ثعلبة شنوًا ولوذان والنباح[2] والأوصام، قبائل جماعة».

وثعلبة بن عدي هو أخو بارق بن عدي، وقد جاء في كتاب (الإنباه على قبائل الرواة)[3]:

«وأما بارق: فماء بالسَّراة، فمن نزله أيام سيل العرم كان بارقيًّا، ونزله سعد بن عدي بن حارثة، وابنا أخيه مالك وشبيب ابنا عمرو بن عدي بن حارثة، فسموا بارقًا».

4 ـ قال الأستاذ حسن عن (الأوصام): «وإن كنت عددته تحريفًا لاسم الإواس، القبيلة الأزدية التي حلّت هذه السوق في ديارها آنذاك من صدر قنونى»، إلى أن قال: «وكانت الإواس صاحبة الموقع على نحو ما فصلت عنه، في البحث المطول الذي أعددته عن هذا السوق، وعزمت أن أنشره قريبًا إن شاء الله».

لعل من ما يفيد الباحث هنا، أن يعرف أن الإواس من القبائل الأزدية التي تقطن السراة، فقد جاء في كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) المنسوب خطأ إلى الأصمعي: «سألت أبا علي الهَجَري عمن خرج مع أحمس بن أنمار، فقال خرج معه بنو بجيلة بن أنمار، وبنو أقبل بن أنمار، فسألته عن أقبل، فقال: منهم شهران وكود وناهس والأوس وإواس»، إلى أن قال: «هذه القبائل تعرف بخثعم وبجيلة».

(1) هذا كتابٌ لابن الكلبي نفسه، ويُفهم من ذلك أنه كتبه بعد كتابة (الجمهرة).

(2) هذا خطأ طباعي؛ فمصدر الشيخ حمد الجاسر موجود لديَّ، وطبعته هي نفسها، وورد الاسم فيه: النباج، بالجيم المعجمة.

(3) هذا الكتاب للحافظ يوسف بن عبد البر النمري، رحمه الله.

وفي كتاب مغلطاي (الاتصال في مختلف النسبة): «الإِواس، بكسر الهمزة.. أبو أحمد الإواسي من شهران من خثعم، قال أبو علي الهجري: أنشدني رجزًا له».

وقال الرشاطي: «الإواسي في الأزد، ذكر الهمداني: قال الشنفرى بن مالك الإواسي»، ثم أورد له أبياتًا على قافية التاء. وفي (مختصر الفاسي لكتاب الرشاطي): الإواسي في خثعم، وفي (معجم البلدان) رسم «عِيَار»: «هضبة في ديار الإِواس بن الحِجر، ويوم حراق من أيامهم، غزت غامدٌ الإِواس بن الحجر، فوجدوا خمسين رجلًا من الإِواس في حضار، فأحرقوهم في هضبة يقال لها عِيار، فقال زهير الغامدي:

نَبْغِي الإِوَاسَ بِأَرْضِهَا وَسَمَائِهَا ... حَتَّى انْتَهَيْنَا في ذُؤَابَةِ يَكْبِدَا

حَتَّى انْتَصَبْنَا في عِيَارَ كَأَنَّنَا ... أَظْبٍ وَقَدْ لُبِدَ الرُّؤُوسُ مِنَ النَّدَى»

من ما تقدم يفهم: أن الإِواس كانوا من خثعم، فدخلوا في قبيلة الحجر كغيرهم من قبائل خثعم، وبلاد هؤلاء لا تزال معروفة.

5 ـ لقد كان من الأولى، وقد اختير لهذه الأبحاث إضافتها إلى اسم (سوق حُبَاشَة)؛ أن يحدد الأستاذ الفقيه، وهو من أهل تلك الجهة، موقع ذلك السوق باختصار، إذ لم ير المناسبة داعية إلى نشر بحثه كاملًا.

ومن هنا: فقد حسن إيراد ما جاء في مجلة (العرب) عن تحديد الموقع.. [..........][1].

أراني قد توسعت في الحديث عن تلك الأبحاث القيمة، التي كتبها الأستاذ الدكتور عبد الله أبو داهش، فرأيت إيضاح الموضع الذي أضيفت إليه لتتم الفائدة.

والكتاب من منشورات نادي أبها الأدبي سنة (1416هـ/ 1996م) في (292) من الصفحات في طباعة حسنة»[2].

(1) هنا أورد الشيخ حمد الجاسر مقالته عام (1405) بطولها.

(2) **المجلة العربية**، العدد (242)، السنة (21)، ربيع الأول عام 1418هـ، ص (100).

● رَأْيُ الْأُسْتَاذِ عِرْفَانَ حَمُّورٍ فِي مَوْقِعَيْ حُبَاشَةَ وَالْأَوْصَامِ (1419هـ):

في حديثه عن سوق حباشة في كتابه (مواسم العرب)، الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1419هـ، قال الأستاذ عرفان محمد حمور: «وحباشة اسم قرية بتهامة، واسم سوقها القديمة. ولعل القرية سميت بذلك لأن أهلها لم يكونوا من قبيلة واحدة، بل خليطًا من بطون أو قبائل مختلفة، وإن كانت أخبار السوق تشير إلى أنها كانت للأزد»، وقد ذكر في الهامش أن مصدره في أن حباشة اسم قرية بتهامة كان (تاج العروس). ثم إنه قال قبل نهاية حديثه عن حباشة: «والأوصام هي التي ذكرها الزَّبيدي باسم (الوصم)، وهي قرية بأول قنونَى، وهو واد من أودية السراة، يمتد من جبال خثعم إلى القنفذة، عند حدود أرض اليمن[1] للقادم من مكة. وإذا علمنا أن الوصمَ من معانيه العيب في الحسب، رَجح لدينا أن القرية إنما سميت بذلك لأن أهلها لم يكونوا من أصل واحد، أو من نسب واحد، وهذا يفسر تسميتها فيما بعد بالحباشة. وعلى ذلك فإن موقع حُباشة هو قرية الوصم، عند أول وادي قنونى من ديار بارق.

وكان في هذه السوق مثلُ ما كان في سائر المواسم: تجارةٌ، وفداءُ أسرى، والبحث عن الواترين طلبًا للثأر منهم، وبيعُ رقيق، إلى ما هنالك من أغراض مختلفة. . . وكان الشاعر الشنفرى يغير على منازل الأزد بتهامة، مع بعض بني فهم، ثم إنه قتل رجلًا منهم، فتعقبوه حتى رآه أحدهم في سوق حباشة، فأسرع إلى قومه ينبئهم بالأمر، فكمنوا له في بعض الطريق، ينتظرون منصرفه من السوق»[2] اهـ.

سأعلق على قول الأستاذ عرفان حمور، بما يغني عن الحديث عنه في غير هذا الموضع.

إن قول الأستاذ حمور بأن حباشة اسم قرية بتهامة، تأوُّلٌ في غير محله، فالزبيدي حين شرح قول الفيروزآبادي قال: «وحباشة: بلدة، وحباشة: سوق تهامة

(1) أين اليمن من القنفذة؟ إن بين القنفذة وتخوم اليمن مسيرة أربعة أيام بلياليها في صدر الإسلام، وتسعة في حدود اليوم السياسية.

(2) عرفان محمد حمور، **مواسم العرب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 2، 1427هـ / 2006م، ج (2)، ص (1065)، (1068).

القديمة»[1]، ولعل مصدر الفيروزآبادي كان من (صفة جزيرة العرب)، حيث قال الهمداني: «وبهذا الجوف من الأنهار داعم والخوير والمسيرب تصب كل هذه في الخارد وتمر بالمناحي وفرع الجوف الأعلى العقل ووَرْوَر والزروة وهيتان[2] وجبل ورور ومشام النخلة من مساقط أكانط وحباشة وقرية في أسفل محصم»[3]، ولن أقحم قلمي في ضبط هذه الأسماء أو اتخاذ علامات الترقيم بينها؛ خشية التأوّل بغير دليل، ولأنه إنما يعنيني معرفة مصدر الفيروزآبادي.

كما أن قوله: «والأوصام هي التي ذكرها الزَّبيدي باسم (الوصم)، وهي قرية بأول قنونى»، تأوُّلٌ آخر أو تدليس؛ إذ إن نص (تاج العروس): «والوصم: بلدة باليمن[4]، وأهمله ياقوت»[5]، وقد فصَل الصغاني في هذه المسألة في (التكملة)[6] في المادة نفسها، فقال: «الوَصم، بالفتح: قرية على ساحل بحر اليمن، بإزاء جبل كُدُمُّلٍ، في البحر». والوصم كانت ـ والله أعلم ـ تحت جبل الوصل، واسمه تحريف من الوصم، في شبه جزيرة تكاد تنعزل عن اليابسة، في غربي القحمة اليوم، على اثني عشر كيلومترا من ناحية كدُمّل الشمالية الغربية، ومن هنا يتبين أنه لا ارتباط بين الوصم والأوصام من بارق.

● رَأْيُ الْأُسْتَاذِ مَحْمُودِ بْنِ مُحَمَّدٍ آلِ شُبَيْلِي الْبَارِقِيِّ (1422هـ)

أَلَّف الأستاذ محمود بن محمد آل شبيلي البارقي كتابًا عن بلاد بارق، وألمح فيه إلى مواضع يرى إمكان قيام سوق حباشة في أحدها، ومن ما قاله: «بارق تقع في الوسط بين وادي حلي ووادي قنونا، ويتضح أن الأزرقي لم يكن يعرف السوق جيدًا،

(1) الزبيدي، **تاج العروس** (مرجعٌ تقدّمَ)، رسم (حبش).

(2) في مخطوطة جامعة الملك سعود: والرزوة وهينا.

(3) مخطوطة المكتبة البريطانية، بالرقم OR 1383/2، الصحيفة (114)، وهناك اختلافات بين قراءتها والمطبوع من الصفة.

(4) ليس الوصم من اليمن؛ لأنه دون كُدُمُّل من ناحية مكة، وسيتبين ذلك في ما بعد، غير أنه على بحر اليمن، وهو البحر الأحمر.

(5) الزبيدي، **تاج العروس** (مرجعٌ تقدّمَ)، مادة (وصم).

(6) الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني، **التكملة والذيل والصلة**، القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1979، ج(6).

وإنما سمع عنها أنها تقع في بارق بين قنونا وحلي»، وقوله عن أحد مواضع السوق الممكن قيامها فيها: «كما تتردد أقاويل حول وجوده حول قرية تسمى قرن مَخلد»[1].

- **قَوْلُ الْأُسْتَاذِ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ آلِ زَايِدٍ الْقَرْنِيّ (1423هـ)**

في معجمه الجغرافي لبلاد بلقرن، قال الأستاذ سعيد آل زايد القرني، في رسم (حباشة):

«على حدّ علمي، لم يستطع أحد تحقيق موقعه من قنونا، غير أنني وقفت على موضع في صدر قنونا يسميه الناس هناك السوق، يقع بين وادي طُلَعة ـ أحد فروع وادي قنونا ـ من الجنوب وبين وادي قنونا من الشمال، على نحو ستة أكيال جنوبي بلدة الفائجة، فيه آثار مبانٍ وقبور وفخار، وينطبق عليه إلى حد كبير التحديد الجغرافي في أغلب الكتب القديمة»[2].

- **رَأْيُ الْأُسْتَاذُ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَسَنٍ الرِّزْقِيّ (1426هـ)**

أصدر الأستاذ عبد الله بن حسن الرزقيّ القرنيّ كتيِّبًا، يقع في ست وخمسين صفحة من القطع المتوسط، ولعل ذلك كان في أواخر سنة 1426هـ.

وجاءت محتوياته على هذا النحو: التحقيق اللغوي، وتاريخ سوق حباشة، والمؤرخون وسوق حباشة، وما أورده المؤرخون عن سوق حباشة، ومدة إقامة السوق، والتأريخ المعاصر وسوق حباشة، وموضع[3] سوق حباشة، وقنونا / قنونى[4]، والوضع الجغرافي والطبيعي للوادي، وموضع (!) سوق حباشة من وادي

(1) محمود بن محمد آل شبيلي، **الشارق في تاريخ وجغرافية بارق**، جدة، ط 1، 1422هـ / 2001م، ص (90).

(2) سعيد آل زايد القرني، **المعجم الجغرافي لبلاد بلقرن**، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1423هـ، ص (75).

(3) سوق حباشة بذاته موضع، والبحث إنما يكون عن موقع ذلك الموضع.

(4) لم يبحث المؤلف في الفرق بين رسم الكلمتين من حيث النطق، بل رصد طريقة كتابتهما في المصادر. فأما قَنَوْنَى ـ بالألف اللينة ـ فهي بوزن فَعَوْلَى، ولها نظائر، منها: شَرَوْرَى، وقَرَوْرَى، وحَضَوْضَى، وعَدَوْلَى، وأما قَنُونَا، فبضم النون الأولى، ومن نظائرها: مَسُولاَ، جبل، وقَطُورَا ـ اسم قبيلة تذكر مع جرهم ـ ولكن معظم نظائرها عادةً ما تُمدُّ، فيقال: جَلُولاء، وحَرُورَاء. ولذلك فإني أرجح أن ضم النون الأولى في قنُونا طارئة مع انتشار العامية في القرون الوسطى، وأن أصلها قَنَوْنَى.

قنونى، وأمن السوق، ورؤية الباحث في المواضع المحتملة[1] (!) لوجود السوق من صدر قنونى، والنشاط التجاري لسوق حباشة، وأعلام شهدت سوق حباشة[2].

ولم يشأ مؤلفه أن يُراجَع كتابُهُ نحوًا وإملاءً في محتواه، وهو ما اضطرني إلى تصحيح أغلاط ما اقتبسته منه وجعلها بين حاصرتين، ونقلت ما خالف فيه الباحث فقه اللغة كما أورده. وأما فكرته التي ألَّف من أجلها كتيِّبه فظهرت فيه واضحة.

وجاء في الصفحة الـ (8) ضمن (التحقيق اللغوي): «الشاهد: بوجه أخي [بني] أسد قنونى إلى [يبة] إلى برك الغماد، وبنو أسد يقصد بهم هنا [أزدًا] بقنونى، ولهم فيها مآثر، بيد أنها طمست[3]، ونظرًا لأن المنطقة لم تنل نصيبًا من اهتمام المؤرخين، فإن المعلومات عن إقامة هذه القبيلة بقنونى شحيحة، ولكن لم يزل فروع من الأزد ـ بني القرن ـ يقطنون قنونى حتى اليوم».

ثم إن الباحث رسم خريطة رمزية، ظهرت عليها ثلاثة مواقع أخرى لسوق حباشة غير الموقع الذي رآه الفقيه، ولكن ندرة التفاصيل في الرسم منعت من استظهار مواقعها، وإن كان قد رسم جبل ثميدة في أطراف هذه المواضع الثلاثة.

وفي الصفحة الـ (13) ضمن (تأريخ سوق حباشة)، قال الرزقي: «وما من شك أن الأولين الذين قرروا ترسيم ووضع هذه السوق في العصر الجاهلي، نظروا إلى الأهمية التجارية ووسطية السوق بين أشهر موضعين للمعادن، وهما عشم: موضع معدن، وثميدة جنوبًا، وقد [أعددنا] له مبحثًا مسبقًا. فثماد: المقصود بها ثميدة، فليس هناك موضع مجاور لقنونى غير ثميدة، وتحقيقنا موصول بقول كثير عزة في رثائه لخندق الأسدي الأزدي (!):

(1) الاحتمال في الأصل: الغضب، والصبر، والتقلّد، والنقل أو الانتقال بين موضعين متباعدين، وهو اليوم مصطلح حديث شائع للتعبير عن «الظن بعد البحث في سبيل التحقق»، ليس له صلة بلغتنا الأولى، تجنبت الأخذ به!

(2) عبد الله بن حسن الرزقي، **سوق حباشة: دراسة تاريخية موجزة**، مركز الإشراف التربوي بالعرضيتين والمجمع القروي بثريبان، أبها، مطابع الجنوب، (لم تدوَّن سنة طبعه). ويغني ذكر الصفحات في المتن عن تكرارها في الهامش.

(3) إذا سلَّمنا بأن لهؤلاء مآثر طمست، فما مصدر معرفة وجودها!

مقامك بالمجازة من قنونى   وأهلك بالأجيفر فالثماد

وأما أثرية ثميدة فهي أثرية مصنعية، . . . أما معدنية ثميدة فإنها تنحصر في العديد من المعادن ومنها الرصاص، والكحل الذي تشتهر به جبال ثميدة، ولعل تلك المعادن مجتمعة من الموضعين الشهيرين من أهم موجودات بضائع سوق حباشة الشهير، خاصة [و]أن هذه السوق كانت تقام [نحوًا] من ستة أيام إلى ثمانية أيام (6 ـ 8) من أول رجب، حسبما أورده المؤرخون، وهذه المدة والمكان [يقضيان] بإمكان وصول تجارة ثميدة وعشم المعدنيتين لهذه السوق الشهيرة شمالاً وجنوبًا».

وفي الصفحة الـ (18) ضمن مبحث (المؤرخين وسوق حباشة) قال الرزقي: «أما قوله ـ يعني الأزرقي ـ من بارق من صدر قنونى وحلي من ناحية اليمن. . قوله: من بارق من صدر قنونى. . هناك [تباعد كبير] جدًا، فإما أنه من صدر بارق أو من صدر قنونى. . وهناك من المؤرخين من نظر في هذا الشأن، ومنهم الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه، والذي يصرّ على أن موضع السوق في قنونى. . . وقوله: وهي من مكة على ست ليال. . لم يشر المحققون إلى مناقشة هذه النقطة، وهي جديرة بالاهتمام؛ لأن تحقيق المسافة دليل مؤكد على تحقيق المكان، فالبرهان القاطع الذي نستنتجه من نص الأزرقي «وهي من مكة على ست ليال»، أن تقدير تلك المسافة التي يبعد بها سوق حباشة عن مكة، هي المسافة التي تبعد بها أصلاً قنونى عن مكة، والتي هي ست ليال، ويؤكد هذا أن هذه المسافة بالمراحل تتفق إلى حد كبير مع وضع مسافة قنونى وبعدها عن مكة، فتقدر المسافة الآن بـ (400) كيلومتر، وهنا تقارب جدًا بين المسافتين، باستثناء أن الدقة في حساب المسافة تحكمه عدة عوامل.

من جهة أخرى فإن المسافة تتطابق مع مسافة بُعد القنفذة، التي كانت تعرف بواديها قنونى هي مقدار ما حدده الأزرقي بست ليال، التي هي مقدار (300) كيلومتر باستثناء الخمسين [كيلومترًا]، فالطريق الحديث لا يسير بالضرورة مع طرق المراحل القديمة، وما تقدم مؤيد آخر، ومن المؤيدات المسافية أيضًا التي تثبت أن سوق حباشة بقنونى، أن الأودية التي وردت في نص الأزرقي مع قنونى هي أبعد مسافة عن مكة بأكثر من ست ليال، التي حددها الأزرقي كبعد صحيح عن موضع السوق من قنونى عن مكة».

ثم تحدث في المبحث نفسه في الصفحة العشرين عن (الأوصام)، فكان من ما قاله: «ولكن الأقرب للصواب أن الأوصام تصحيف عن الأواس (بني يوس) فرع من فروع خثعم بالسراة».

وفي مبحث (ما أورده المؤرخون عن سوق حباشة) في الصفحة الـ (23) أورد نص حكيم بن حزام رضي الله عنه، الذي نقله البكري، وجاء فيه: «وقد رأيت رسول الله ﷺ يحضرها، واشتريت فيها بزًّا من بزتها (!)، وهي من صدر قنونى أرضها لبارق»، ثم علّق في الهامش بقوله: «لعلهما كانا في قضاء أو مخلاف واحد وكانا يتبعان إمارة مكة [حينئذ]».

وفي الصفحة نفسها قال: «فبالإضافة إلى أهمية هذه السوق التي أشار لها الأزرقي بأنها سوق معروفة، يؤكد كبر هذه السوق وأنها أكبر أسواق تهامة».

ومن مبحث (التأريخ المعاصر وسوق حباشة)، من الصفحة الـ (26) وما بعدها، قال الرزقي: «أما الجهود البحثية الميدانية، فقد قام المؤرخ عاتق بن غيث البلادي عام 1403هـ برحلة تاريخية بحثية، رصد منها مشاهداته في كتابه (بين مكة واليمن) والتقى فيها بالباحث الأستاذ إبراهيم بن حسن (!) الفقيه، الذي أكد أن السوق من قنونى في موضع منها يسمى الحواري من بلحارث ببلقرن. وسوف نتناول ذلك في موضعه من هذا المبحث، باعتبار الفقيه حسن، نؤيد به [التأكيد] على أن السوق بقنونى وأن الموضع الذي أشار له أقرب للصواب، وإننا سوف نفرد مجالاً رحبًا عن الموضع من خلال رصد مشاهداتنا عن مواضع محتملة (!) بالإضافة إلى إشارات الفقيه، على أننا نحترم ونقدر للفقيه ما ذهب إليه في تحديداته، بيد أنا نضع مع ما أشار له [موضعًا] آخر يحمل الأهمية نفسها. . . ومن المهم توضيح أهم المشكلات التي ساهمت في غموض الصورة عن هذه السوق والتي منها: أولاً: أن أعلام المؤرخين كالأزرقي والبكري والحموي وما شاكلهم لم يقفوا على حال هذه السوق بأنفسهم. . . ثانيًا: اعتماد ياقوت الحموي وغيره على روايات العامة [وإملاءاتها] التي لا تخلو من خلط ولغط (!)، فنصه [المتقدم] عن السوق سوق حباشة لم يصدر عن مشاهداته الخاصة. . .».

وفي الصفحة الـ (40) ضمن مبحث (موضع سوق حباشة من وادي قنونى) قال الرزقي: «تحقيق صدر قنونى: ـ أقصى الجزء الشرقي الجبلي، أي من نقطة بدء تشكل

الوادي من غرب قرية المعقَّص وشرق قرية ناخسة إلى خروج الوادي من الجبال ـ هذا هو صدر قنونى. والباحث عن سوق حباشة لا يمكن له البحث في غير هذا النطاق، وأن البحث في غير هذا النطاق هو من قبيل ضياع الجهد والوقت دونما طائل».

وقال الرزقي في مبحث رؤيته عن (المواضع المحتملة (!) للسوق)، في الصفحة الـ (41): «في حداب القرشة ـ الحواري إلى الشرق من وادي قنونى وإلى الشمال منه، البعد يتراوح [بين] 500 ـ 600 [متر]. . . منطقة حداب ورضم ومقابر قديمة، من هذا الموضع الذي يحده وادي قنونى شمالاً وغربًا وجبال طلعة شرقًا وجنوبًا. بعد أن قمنا بعدة جولات ميدانية تخللها [سير] على الأقدام؛ نظرًا لتعذر سير السيارة في بعض المواضع من الأودية. . .

دراسة المنطقة: الإطلاق العام (حداب القرشة ـ الحواري) تحد شمالاً وغربًا بمجرى وادي قنونى، ومن الشرق تحدها منطقة جبلية من أشهرها جبل طلعة المشهور في المنطقة، أما من الجنوب فعبارة (!) عن حداب وأراضي (!) ومناطق جبلية من نهايات جبال ثميدة الشهيرة، وهذه المنطقة يسكنها جزء من قبيلة [بلحارث]، ويقدر الباحث أن مساحتها تتراوح [بين] 8 ـ 11 كيلومترًا مربعًا تقريبًا، تتخللها رضام ورجام، ومن المؤكدات بالمنطقة أن هناك [صخورًا] كبيرة متجمعة بعضها إلى بعض، كل مجموعة في جهة تبعد عن المجموعة الأخرى يطلق عليها السكان [حتى] اليوم «رهيّ السوق» وهذا من ما يؤكد الارتباط الوثيق بينها وبين السوق».

وفي مبحث (النشاط التجاري لسوق حباشة) جعل الرزقي عنوانًا جانبيًا هو: (بزة سوق حباشة)، وجاء فيه في الصفحة الـ (49): «أما ما يؤكد أن لحباشة بزة مخصوصة فهو [ما] قاله حكيم بن حزام. . . واشتريت فيها بزًّا من بزَّتها».

● رَأْيُ الشَّيْخِ حَسَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْفَقِيهِ (1430هـ)

جاء رأي الفقيه والمسطر بين طيات حولية سوق حباشة في عددها الخاص عن السوق، تكرارًا لرأيه المذكور في عددها الأول، وزاد عليه في التحديد وتأوُّل النصّ، غير أنه بدا حذِرًا من إعادة بعض ما نقده فيه الشيخ حمد الجاسر حول الأوصام. وها هو مقال الفقيه:

«أين يقع سوق حُباشة؟: (رأي في تحديد مكانه) ولتحديد موقع هذا السوق القديم، نورد في الآتي رأينا عنه، المبني على المعطيات المثبتة لموقعه من: الدلالات التاريخية، والجغرافية، والقبلية، والأثرية، والمشاهدة الميدانية.

فأولاً: نورد ما ذكره أبو الوليد الأزرقي (من رجال: ق 3هـ)، ونناقشه باختصار. يقول الأزرقي، وهو يتحدث عن أسواق العرب القديمة: «وحباشة سوق الأزد، وهي في ديار الأوصام من بارق من صدر قنونى، وحلي[1] من ناحية اليمن، وهي من مكة على ست ليال»، فقوله: «سوق الأزد، وهي في ديار الأوصام من بارق من صدر قنونى، وحلي ناحية اليمن»، يقرر أن هذا السوق هي للأزد، والأزد ديارها منذ القدم إلى يوم الناس هذا هي في المنطقة الجبلية: تهامتها الجبلية وسراتها.

أما قوله: إن حباشة «في ديار الأوصام من بارق من صدر قنونى»، فالأوصام غير معروفة اليوم، وبارق لا تزال معروفة أرضًا وقبيلة، وتقرب ديارها اليوم من صدر قنونى جنوبًا بما لا يزيد عن عشرين كيلاً، أي في المنطقة الجبلية التهامية أيضًا. أما قوله: «وحلي من ناحية اليمن»، فلعله يريد بأن حلي (!) تقع في ناحية اليمن عن سوق حباشة أو عن صدر قنونى، وإن كان بينهما قبل حلي وادي يبة، أو أنه يريد أن يعرّف موقع حباشة وصدر قنونى ـ وهما أقل شهرة من وادي حلي ـ بأن (حلي) من ناحية اليمن عن موقعيهما، وهو من قبيل تعريف المغمور بالمشهور، أو للتعريف بما هو أقل شهرة بالأشهَر والأكثر معرفة منه.

وأما قوله: «وهي من مكة على ست ليال»، فيحدد المسافتين الزمانية والمكانية بين سوق حباشة وبين مكة المكرمة التي تتبعها سوق حباشة، وتقع في نطاق إمارتها، وهي كذلك إلى اليوم، وهذا التحديد أقرب إلى الواقع.

وثانيًا: نورد ما ذكره أبو عبيد البكري (413 أو 423 ـ 496هـ) ترجيحًا عن حباشة، ونجتزئ منه ما يهمنا في هذا المقام، فقد قال عن حباشة: «وهي من صدر قنونى، وأرضها لبارق». وهنا يؤكد البكري على حقيقة أن موقع سوق حباشة في صدر قنونى،

(1) يلحظ أن الشيخ حسن الفقيه وضع فاصلة بين كلمتي (قنونى) و(حلي)، وكرر الفاصلة في الموضع نفسه بعد هذا، بحيث فك الارتباط بين طرفي الجملة قبل الفاصلة وبعدها.

وهو ما قاله قبله الأزرقي، وأن حباشة في أرض بارق، وهو ما يؤكد أيضًا أنها في ديار الأزد، وأنها سوقهم على ما ذكره الأزرقي أيضًا.

فنخلص من ما سبق [إلى] أن سوق حباشة بقبيلة[1] الأزد، وأن أرضها وموقعها في ديار الأزد، أي في المنطقة الجبلية من تهامة المعروفة إلى اليوم، فينتفي لذلك كون هذه السوق في سهل تهامة، وسهل تهامة من قديم الزمان موطن لفروع القبيلة الكبرى: كنانة، وأحد بني زيد إنما يقع في أرض قبيلة بني زيد بسهل تهامة، فلا وجه للاحتمال (!) بأنها: أعني هذه السوق، أو غير مستبعد وجودها بقرب قرية الأحد.

وأخيرًا، نشير إلى أن وادي قنونى، يمتد من منابع فروعه إلى مصبه في البحر الأحمر عند القنفذة لمسافة لا تقل عن مائة وخمسين كيلاً، ولمسافة تسعين كيلاً من تكوين رأسه. وصدره بعد موقع اجتماع فروعه إلى مصبه، فكيف يكون صدره على بعد عشرين كيلاً من القنفذة، حيث مصبه؟ وصحة المسافة خمسة عشر كيلاً، حيث تقع قرية الأحد التي تعد من دلتا الوادي، حيث يتفرع ليسقي الحياض الزراعية قرب ساحل البحر الأحمر.

ويحسن أن نختم الكلام بما وصل إليه جهد المقل عن تحديد موقع سوق حباشة، وباختصار في الآتي:

(1) بما أن سوق حباشة كما قرر الأزرقي والبكري، بأنه في صدر قنونى، فصدر قنونى إنما يقع في المنطقة الجبلية التهامية، حيث تقرب أرض قبيلة بلحارث القرنية الأزدية من أرض قبيلة بني بحير الوهوب القرنية الأزدية أيضًا، على حرفي وادي قنونى عندما تلتقي فروع هذا الوادي التي تصب مجتمعة فيه، وهو موقع يمتاز بالأرض البراح بين الجبال المجاورة له، حيث توجد المساحات المنبسطة الفسيحة شرق. . وجنوب شرق قرية الحواري.

ويظهر أن بلحارث قد امتدت على الأرض في الأزمنة الماضية بعد أن انحسرت جارتها بارق عن أرض السوق وما حولها[2]، وبين نهاية أرض

(1) هنا غلط طباعي أو سَقطٌ؛ ولعله أراد القول: (سوق حباشة خاص بقبيلة الأزد)، ثم إن الأزد قبائل وشعوب!

(2) لم تشر المصادر إلى امتداد بارق نحو الشمال من ديارها اليوم، ولا إلى انحسارها عنها.

بارق من الشمال وهذا الموقع اليوم مسافة لا تتجاوز العشرين كيلاً[1].

(2) ولكون سوق حباشة سوق الأزد، فهذا الموقع لا يزال من أرض الأزد بلا منازع إلى يومنا هذا، سواء كان لبارق الأزدية، أو لبلحارث الأزدية أيضًا كما هو حالها اليوم.

(3) الركائز الجغرافية والبيئية التي يستقيم عليها وجود السوق، هي أكثر توفرًا حول هذا الموقع وفيه، ومن أهمها:

(أ) وجود المياه السائحة على شكل غيل دائم الجريان بكميات غزيرة، وسهلة الجلب إلى موقع السوق حتى يوم الناس هذا، وهي شمال موقعه الذي نراه ببضع مئات الأمتار، وموقع هذه المياه أشهر أغزر موقع الغيل في صدر وادي قنونى، كما هو معروف ومشهور حتى اليوم، ولا ينقطع شتاءً وصيفًا.

(ب) وجود الفسحات المنبسطة الواسعة في هذا الموقع، التي تكفي لاستيعاب رواد السوق ومرافقه التي ذكرناها آنفًا.

(ج) وجود الدلالات الأثرية على استعمال هذا الموقع، بما فيه من المقابر القديمة، الجاهلية والإسلامية، والملتقطات من كسر الفخار الأثرية خاصة، ووجود ركامات أثرية للمباني القديمة التي نحسبها من مرافق السوق الأساسية، وقد تعرضت مؤخرًا لعبث بعض أصحاب المزارع القريبة منها.

(د) أن سكان الجهة التي بها الموقع يسمون هذا الموقع بالسوق، وإذا سئلوا: أي سوق؟ ومتى كان؟ فيجيبون بأنهم لا يعرفون له اسمًا غير السوق، ولا يعلمون لمن كان، ولا في أي زمان كان، أو أن هذا ما سمعه الخلف عن السلف منذ أقدم الأزمنة.

(هـ) ذكر الهمداني (280 ـ 355هـ) أسماء ديار بارق، وأنها بأقصاها من

(1) أقرب نقطة في أرض بارق من ناحية جربّة إلى الحواري بالقرشة تبلغ خمسة وأربعين كيلومترًا على السمت.

الشمـال، فقال: «وأعلا قنونى»، وهذا يؤكد القول بأن صدر قنونى هو في أعلا قنونى، حيث يحدد الأزرقي والبكري موقع سوق حباشة بأنه: في أرض بارق، وفي صدر قنونى بالتحديد.

(و) وقوع هذا الموقع قريبًا من الطرق والمسالك التي تربط بينه وبين ما يمتد جنوبًا وشمالاً وشرقًا وغربًا عنه، حيث يسلكها الوافدون إلى السوق»[1].

● آرَاءُ الأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ [أبو] دَاهِشٍ (1430هـ)[2]

ظهرت آراء الأستاذ الدكتور عبد الله بن محمد [أبو] داهش، في العدد الخاص بسوق حباشة من حولياته المسماة باسمها، في مقدمة وأبوابٍ أربعة، اخترت منها رحلته إلى قنونى، إلا أني سأبدأ بأسطر من مقدمته، التي جاء فيها:

«حينما وفقني الله تعالى لإصدار كتابي السنوي المتخصّص، الباحث في دراسات أدب الجزيرة العربية وتاريخها: (حوليات سوق حباشة) في عدده الأول سنة (1416هـ/ 1995م) كان من ما عزمت عليه ـ بعون الله تعالى ـ حينذاك، إصدار عدد خاص منه يختص بذكر موقع سوق حباشة، ولـما كان ذلك هدفي فقد وفقني الله تعالى لتحقيق هذا الشأن في هذا العدد: الخامس عشر من هذه الحوليات الدورية. . . إذ تيسر لي ـ بعون الله تعالى ـ زيارة المكان الذي يُظنّ بأنه موقع سوق حباشة في الحواري بالقرشة، بصدر قنونى بتهامة، في جنوبي الوادي نفسه»[3].

ثم قال في باب (حباشة: آخر سوق خربت سنة (197هـ) لماذا؟):

«ولا أشكُّ في أن هذه السوق نفسها قد تعرضت لعبث سرّاق الآثار عبر السنين الماضية؛ حيث يستيقن الناظر في موضعه اليوم افتقاره إلى تلك الآثار، التي يمكن أن توجد من النقود والنقوش ونحوها، إلا إذا كان الدهر قد أخنى عليها بأيامه ولياليه،

(1) **حوليات سوق حباشة**، العدد (15)، السنة (15)، 1430هـ/ 2009 م، ص (17 ـ 23).
(2) **حوليات سوق حباشة**، العدد (15) (المصدر نفسه)، والصفحات مسجلة وَفقَ كلّ مقطع.
(3) **حوليات سوق حباشة**، العدد (15) (المصدر نفسه)، ص (11).

فسفت الرياح على موقعه، وضيّع الزمن معالمه؛ إذ يحتاج وضعه إلى التنقيب والحفر، فلربما وجد ما يعين الباحث على درسه، وهو المأمول من دارسي الآثار، إن يمموا طرفًا من جهودهم شطره، لعلهم يحققون مكانه ويستدلون على موقعه!»[1].

وهذا بعض ما جاء في رحلته:

«رحلتي إلى صدر وادي قنونى بتهامة في يوم الأحد 5 شوال 1429هـ[2]

كنتُ أمنّي نفسي بزيارة هذا المكان مذ صدور العدد الأول من حوليات سوق حباشة سنة 1416هـ/ 1995م، ولم يتحقق ذلك، لظروف العمل العلمي، وما يتصل به من أسباب إدارية وأخرى علمية، مثل التأليف والتحقيق، والتدريس وإلقاء المحاضرات، وحضور بعض المؤتمرات والندوات، حتى إذا تسنّى ذلك قمتُ بهذه الرحلة، وأنا يومئذ مقيم في داري بتنومة بني شِهر بعسير، إذ كان خروجي من منزلي عندئذ: فجر يوم الأحد، لعلّه يوافق الخامس من شهر شوال المبارك سنة 1429هـ صحبة ابني محمّد بن عبد الله أبو داهش. . .

عبر بنا الطريق قرية الفائجة من بلدة (؟) قنونى، متجهين نحو الجنوب، ليقطع بنا صدر وادي قنونى المشهور، الذي ينساب ماؤه في مجاريه دون توقف، في تزاحم مثير لنبات الحلفاء، وعلوّ باسق لنخله الوافر الكثير، في مشاهد مثيرة في طريقنا من قبل للحصون القديمة المنقوشة بالمرو، المزينة بالشرفات البديعة، التي لم تسلم من عبث بعض الأهلين.

هناك في قرية الحواري، في ما يُظنّ بأنه موقع السوق، عبر بنا الركب جانب جبل قطّارة، لنستقرّ في هذه القرية التي تعرف عند الأهلين اليوم بقرية السوق، أو رهي السوق، أو رهوة السوق، إذ هم حتى الآن يقولون: (السوق)، مشيرين بهذا اللفظ إلى هذا الموضع، حيث يظنون بمكانه هنا. ولا مُشاحّة، فالأزرقي يقول: «وحباشة سوق الأزد، وهي في ديار الأوصام من بارق، من صدر قنونى وحلي، وهي من مكة على ست ليال، وهي آخر سوق خَربت»، إذ هو بالفعل في صدر وادي قنونى، أي

(1) **حوليات سوق حباشة**، العدد (15) (المصدر نفسه)، ص (52).
(2) **حوليات سوق حباشة**، العدد (15) (المصدر نفسه)، ص (29 ـ 41).

أعلاه، وهو في بعده عن مكة المكرّمة بقدر ست ليال، أي: مراحل ـ كما قال ـ وهو قريب من خط الرحلة والحج إلى مكة الـمكرّمة، بل هو معها، حيث: «إن من أراد طريق زبيد أخذ من مكة إلى إدام، ومن إدام إلى مركوب، ومن مركوب إلى الليث، ومن الليث إلى عُليب، ثم القرما، ثم قنونى، ثم إلى حلي، ثم إلى المعقد، ثم إلى ضنكان، ثم إلى زنيف، ثم إلى بَيض، ثم إلى حاوي، ثم إلى العُرُش من جازان». وهذا الطريق هو الذي يقول فيه أحد الباحثين المعاصرين: «ولا ريب أن هذا الترتيب في مراحل طريق الحج على درجة كبيرة من الصحة؛ لأن الجَنَدي من أهالي اليمن الذين كانوا يسلكون هذا الطريق مرارًا في حجهم إلى مكة المكرمة».

أما ذكر بارق وحلي، فلشهرتهما بتلك النواحي، ولعل بلدة بارق يومئذ من المخاليف التي شملت ولايتها هذا الموضع، لقول إسماعيل الأكوع: إن من مخاليف تهامة: «... اللؤلؤة، لحسبة، حكم، العُرُش، عكاد، عكوتان، بارق، برك الغماد، بيش، عتود، ضمد، الخصوف، دوقة».

ولقد قال الهمداني: «في مساقط بلاد بارق من غور السراة... من ناحية ذات أعشار ووادي قنونى...»، وأما الأزد فلعل اسم حباشة الذي يدل على جماعة من الناس ومن القبائل، أن الأزديين في جبالهم وجرِّها[1] من أولئك، وكانوا يومئذ الغالبين على حضوره والتسوق فيه، ولكونه في أرضهم. وأما قوله: في ديار الأوصام، فلعل ساكنيه يومئذ كانوا منهم، على الرغم من الظن بأن هذا اللفظ أُبدل بمسمى آخر، فيه تطور لفظي أو نحوه، أو يكون قد وقع فيه تصحيف، أو تحريف للفظٍ آخر، ولربما أن العمل العلمي الميداني هنالك قد يكشف حقيقة هذا الظن...». [ثم أورد أقوالاً عن بارق والأوصام، حتى قال]:

«وإزاء هذا القول يمكن الظن بوجود قبيلة تسمى الأوصام بهذا الاسم، وأنها ربما أصاب رسم حروف لفظها تبديل أو تصحيف أو تحريف، وأنه من أجل ذلك يمكن القيام بمسح ميداني لقرى تلك الأنحاء ومواضعها، إلى جانب التعمق في الدرس العلمي ومصادره المخطوطة المجهولة اليوم وفي مظانها، وبخاصة في مراكز الفكر

(1) علق الأستاذ الدكتور أبو داهش على هذه اللفظة في الهامش، فقال: «يقول الهمداني: الجرّ والحلام أطراف الجبال الناعفة»، **حوليات سوق حباشة**، العدد (15) (المصدر نفسه)، ص (36).

والأدب المجاورة لتلك البلدان، مثل الحجاز واليمن؛ إذ هما دون شك يضمّان العديد من الآثار المخطوطة المنسية المهمة، أو لربما أمكن النهوض بمسح ميداني لقبائل تلك الجهات ومواضعها: عامرها وموفيها، وعقد اللقاءات العلمية مع المعمّرين وذوي النباهة الفكرية من أبنائها؛ لمعرفة حقيقة هذا المسمّى، وهل أصابه شيء من التحريف أو التبديل اللغوي؟ وما أظن ذلك سوى طريق لمعرفة الواقع، وما ذاك في بيانه على الله بكبير[1]...

ولقد حاول الدارس (!) عبد الله بن حسن الرزقي في كتابه (سوق حباشة: دراسة تاريخية موجزة)، أن يلقي الضوء على موقع هذا السوق، وما يتصل به من آثار، لولا أن عمله في هذا الكتيّب لم يسلم من التصحيف والتحريف وبعض المآخذ العلمية، ومهما يكن الأمر فلم يخلُ هذا الجهد من الفائدة». [ثم أورد بعض أقوال الرزقي، ثم قال]:

«وهذا يزيد في حقيقة تحديد موقع هذا السوق، وبأنه في صدر وادي قنونى، أي في أعلاه، وأنه قريب من مجراه نحو الجنوب، وأن الآتي من قبل الطريق العام الرئيس المتجه نحو مكة، يجد حين يتجه نحو أعلا (صدر) وادي قنونى أرضًا زراعية خصبة تعمرها المزارع والحصون والقرى، وأنها تدنو من وادي قنونى نفسه عبر أكبر ضواحيه المعروفة بالفائجة، حيث إن سالكها لا يلبث حتى يقطع الوادي: وادي قنونى نفسه، ليتجه نحو موقع السوق جنوبًا، ليصل إلى موقع الحواري بالقرشة، هنالك ترنو الآثار الدارسة إلى الماضي بعين أسيفة، تزيد في الإيمان، وتذكي الشعور العلمي المنصف الجاد...

نعم ها هي آثار تلك البقعة! يغالبها الظن أنها آثار سوق حباشة التهامي المشهور نفسه، وعند الله العلم، وعنده اليقين.

وخاتمة القول: إن هذه السوق التي يظن بوجودها في صدر وادي قنونى، إنما هي بالفعل تقع فيه، في حداب القرشة اليوم، أي في صدره، حيث كانت من قبل ضمن

(1) هذه الجملة توحي بأن الدكتور أبا داهش لم يراجع ما كتبه؛ فالعثور على مخطوطات أو مقابلات أولي الخُبْرِ أمور دنيوية بحتة.

حوار[1] (؟) بلاد بارق، ومن ولايتها وأرضها، لقول الهمداني: «وخبت أذن، وهو في مساقط بلاد بارق من غور السراة، وهي بقرة والملصة ويسران وذات أعشار وثربان جبل لهم من ناحية ذات أعشار، وأعلا قنونى[2] . . .» بما يؤكد حقيقة وجود هذه السوق في هذا الموضع القائم بآثاره الظاهرة حتى الآن.

أقول: هنا في موقع السوق آثار، وردوم، وحجارة مركومة، وبعض القبور، ودوائر ظاهرة في الأرض تختلف في سعتها، وقلّة مساحتها، لعلها ح[ظ]ائر لبيع الأغنام، أو مواضع للنخاسة، أو غير ذلك، وفي تلك الأرض الواسعة التي تقدّر مساحتها بنحو كيل في نصف الكيل توجد أحجار بركانيّة سوداء فيها قطع فخار، وأخرى قطع من الحجارة ذات اللون الأخضر، التي يظنّ بأنّها من تكوين الأرض نفسها ذات العروق الملونة، والغرابيب السود، وعند بحثي الميداني فيها لم أعثر عبر تجوالي في الموضع، ولا صحبي على شيء من النقود، أو العلامات الفارقة، سوى حجر صغير أبيض بحجم قبضة الكف، فيه حفرة صغيرة في وسطه، يظنّها الناظر وعاءً للمداد، على استبعاد ذلك تمامًا.

ولا زال[3] موضع السوق قائمًا لم يتغير، سوى أنّه قيل لي: إنّ رجالاً من أبناء قبيلة بلحارث الأزدية من شرق وادي قنونى نفسه، همّوا بإقامة سوق حديث في موضع السوق القديم، وأرادوا تسميته سوق الثلاثاء، وأنّهم حرّوا طرفًا من أرض السوق القديم من قبل الشرق، ولكنّهم اختلفوا فتركوه حتى الآن، ممّا شوّه تلك الآثار، وأفسدها. وليتهم لم يفعلوا!. . . ومن أجل ذلك كله، هذه دعوة للقائمين على الآثار في بلادنا، أن يعتنوا بهذا الموقع في إيجاد سياج حوله، وكذا ابتعاث المختصين لدراسة موضعه وتحديده، ودعوة أخرى لأبناء قنونى وبلديّتها، أن يهتّموا بهذا الموقع نفسه، وأن يحافظوا عليه، وليس في الأمر كبير عناء سوى حراسته وإقامة سياج حوله، حتى يأتي من المختصين مَن يدرسه ويهتمّ به قبل فوات الأوان حين لا ينفع التأسّف والندم».

(1) لعله أراد (حواري بلاد بارق) أو (أحوازها) فأشكل الخط على الطابع فأسقط أو صحّف أو جمع بين الأمرين!

(2) وضع د. أبو داهش فاصلة بين (ذات أعشار) و(أعلا قنونى)، وهو اجتهاد يقوّض مُراد الهمداني في تحديد جبل ثربان.

(3) (لا زال) صيغة دعاء، والصحيح: (ما زال) أو (لا يزال).

● رَأْيُ الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ بْنِ مُرِيفٍ الْبَارِقِيِّ (1431هـ)

ألّف الأستاذ أحمد بن مريف بن أحمد آل سعيد البارقي كتابًا عن قبائل بارق المعاصرة، ورَبَطَها بتاريخها القديم، وفي مبحثه عن سوق حباشة قال: «وقد أجريت لقاء مع الشيخ أحمد بن حسن بن علي الهيازعي البارقي أحد أعيان بارق وعلمائها. . . فيقول: اطلعت على كتاب (أخبار مكة) وقرأت ما أورده الأزرقي حول سوق حباشة، وعندما قرأت اسم حباشة تبادر إلى ذهني أنه اسم لفخذ من قبيلة المهاملة، واسمهم آل حبشان، لأن حباشة هذا ليس موجودًا لدينا، ولا يوجد إلا محل يسكنه آل حبشان، ويقع غرب جبل السوداء في قرية الرّسّ، وجبل السوداء هذا به آثار لسوق ومسجد كان قائمًا، وأذكر إزالة أحجار المسجد عام 1388هـ، من قِبَل الشيخ محمد بلقاسم ـ رحمه الله ـ والذي أخذ حجارته وبنى بها مسجدًا آخر في قرية الخوش، وقد ذهبت في عام 1388هـ إلى هذا الجبل ووجدت فيه شِعبًا يمتد من رأس الضلع شرقًا ثم يميل شمالاً حتى ينزل في أراضٍ زراعية، ومشيت بمحاذاته، ووجدت آثار مبانٍ من الحجر، وهي على شكل ثلاثة أضلاع بارتفاع متر ونصف [المتر]، والضلع الرابع واجهة أمامية مفتوحة، ووجدت عددًا كثيرًا من هذه المباني، وهي في منظرها العام تبدو كهيئة سوق قديم، أما الآن فقد أحدث فيها المواطنون بالجرافات والمباني وأزيل أغلبها سوى بعضٍ منها في رأس الجبل، وهذه الآثار تقع في الجهة الشرقية من جبل السوداء، كما أنَ موقع هذه الآثار كان قريبًا جدًا من محلة آل حبشان، ولذلك يمكن القول إن السوق نسب إليهم، وكانوا يسكنون قرية الرس، وهي أرضهم وبلادهم حتى اليوم»[1].

● رَأْيُ الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ غَيْثَانَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ جُرَيْسٍ (1432هـ)

أورد الدكتور غيثان رأيه هذا في كتابه (بلاد القنفذة خلال خمسة قرون)، وأدرجه ضمن عنوانه (سوق حُباشة ومعدن عشم)[2]، فبعد أن أورد أقوال حكيم بن حزام والبكري وياقوت، وآراء حمد الجاسر وعاتق البلادي وحسن الفقيه، خلص إلى رؤًى

(1) أحمد بن مريف البارقي، **قبائل بارق المعاصرة**، الرياض، ط 1، 1431هـ/ 2010م، ص (154).

(2) أ. د. غيثان بن علي بن جريس، **بلاد القنفذة خلال خمسة قرون**، الرياض، مطابع الحميضي، ط1، 1432هـ/ 2011 م، ص (96 ـ 97)، باختصار.

خمس، يمكن تلخيصها في نقاطٍ خمسٍ، كُلٌّ منها تختصر رؤية من رؤاه، كما يلي:

1 - التعدد والتباعد في قول الأوائل: «ديار الأوصام من بارق من صدر قنونا وحلي»، وأن بعضها غير معروف، كبلاد الأوصام، وأن بلاد بارق تبعد نحو مائة كيلومتر جنوبًا من وادي قنونا، وأن وادي حلي لا يجاور قنونا، وأنْ ليس من المقبول أن تشترك قبائل هذه الأماكن المتباعدة في سوق واحدة.

2 - لم يُسلّم برأي الفقيه حول تحريف اسم الأوصام من الإواس، وجعل الدراسة العلمية الأثرية لموقع السوق مُنهيةً للتضارب حوله، وأن معرفته تسهم في معرفة القبيلة المسؤولة عنه. واستبعد أن يكون لبارق وقبائلها صلة بهذه السوق.

3 - ذكر حادثة قتل الوالي الغنوي في السوق، ثم رأى أن السوق ربما أعيدت بعد حين.

4 - عزا اشتهار سوق حباشة دون غيرها من أسواق تهامة إلى مجيء رسول الله ﷺ إليها قبل البعثة، وجزم بأن هناك أسواقًا كانت أنشط وأكبر من هذه السوق؛ بسبب وقوع منطقة القنفذة على طرق الحج والتجارة ووجود معدنَي ضنكان وعشم، وأن هذه الأسواق تحت حماية القبائل المتعددة.

5 - نفى رأي الشيخ حمد الجاسر بأن السوق التي اختار موقعها في شرقي القنفذة بنحو خمسة وعشرين كيلومترًا ليست في صدر قنونا، وظن بأن الجاسر يعني بقرية الأحد موضعًا في العرضية الشمالية، وقارَبَ بين رأيَيْ البلادي والفقيه في المعقّص والحواري.

● مَقَالَةُ الأُسْتَاذِ أَحْمَدَ عَسِيرِي الَّتِي تَسَاءَلَ فِيهَا عَنْ مَوْقِعِ السُّوقِ (1432هـ)

ليس من عجبٍ أن نرى أحد الصحفيين المبرزين في صحيفة (الوطن) حريصًا على معرفة موقع سوق حباشة، وهي أشهر سوق وأكبرها في جنوب جزيرة العرب، بينما تنافرت الآراء حول موقعها بغير دليل قطعي. وهذا نص مقالة الأستاذ أحمد عسيري:

«أين يقع سوق حباشة؟

قلة الحظ تلازمنا عند دراساتنا الجغرافية والتاريخية، فنحن لا نأخذ بمناهج البحث

العلمي الرصين، والدراسات الآثارية، واستقصاء سير الحضارة وتطورها، مستلهمين المعارف والخبرات التي وفرتها حركات الكشف الجغرافي والتاريخي في العصر الحديث، والتي تقودنا إلى ثوابت وقوانين علمية يقينية، وتؤسس لأحكام قاطعة، وحقائق بحثية دقيقة وصحيحة من خلال الفحص والاستقراء، مهما اضطربت الحقائق وقلّت المصادر، وهذا ما لمسته وأنا أقرأ عن سوق حباشة، حيث يقول الأزرقي في كتاب (أخبار مكة): «حباشة سوق الأزد، وهي ديار الأوصام من بارق، من صدر قنونى وحلي، وهي من مكة على ست ليالٍ، وهي آخر سوق خربت من أسواق الجاهلية»، ويقول حكيم بن حزام: «رأيت رسول الله ﷺ يحضرها واشتريت فيها بزًّا من بزّ الجاهلية»، وقال الطبري: «إن خديجة رضي الله عنها إنما استأجرت رسول الله ﷺ ورجلًا من قريش إلى سوق حباشة بتهامة»، ويقول حمد الجاسر: «يقع شرق بلدة القنفذة بحوالي خمسة وعشرين كيلومترًا»، ويقول البلادي: «قد يكون بقرية المعقّص ببلاد بني المنتشر من خثعم»، ويقول حسن الفقيه: «يقع في بداية تكوّن وادي قنونى جنوب غربي قرية الفائجة بحوالي أربعة كيلومترات شرق المحلة المعروفة بالحوائر في بلاد بلقرن وبلحارث منهم بخاصة، والناس هناك يسمون هذا الموضع بالسوق»، ويقول الفقيه: «إن الأوصام كلمة محرفة يقصد بها الأواس القبيلة الأزدية التي استوطنت هذه البلاد منذ القدم وكان هذا السوق في ديارها»، وقد رد الدكتور غيثان بن جريس على هذه المقولات من خلال دراسته التاريخية والحضارية لبلاد القنفذة، حيث يرى: أن هذه الآراء تحتاج إلى براهين قوية، ودراسات علمية أثرية لموقع السوق حتى نخلص من هذا التضارب حول موقعه، وقد نفى الجريس واستبعد أن يكون لبارق وقبائلها صلة بهذا السوق بخاصة إذا كان السوق في صدر قنونى؛ لبعد المسافة بين المكانين، وجزم أنه يقع في منطقة القنفذة على طرق الحج والتجارة بين اليمن والحجاز، ثم وجود بعض المعادن المشهورة بها كمعدني ضنكان وعشم، بالإضافة إلى أنها مأهولة بالبطون والقبائل العربية المتعددة، والتي غالبًا ما توجد أسواق في بلادها وتحت حمايتها. ولا أعرف كيف حسم الدكتور غيثان الأمر وحدد موقع السوق وهو الذي يطالب بدراسات علمية أثرية تدلنا وترشدنا إلى موقع سوق حباشة، رغم أن أغلب الدلائل الآثارية والتي تعارف عليها أغلب المؤرخين تقول إن

هذا السوق يقع في (آل حبشان) بمنطقة بارق، كما وردت في كتاب (بارق من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث) لمؤلفه أحمد بن مريف البارقي»[1].

• رَأْيُ الْأُسْتَاذِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْفَقِيهِ الْبَارِقِيِّ (1432هـ)

بعد صدور العدد الخاص بسوق حباشة من الحوليات، وظهور آراء الأفاضل حسن الفقيه وعبد الله الرزقي وعبد الله [أبو] داهش، كتب الأستاذ عبد الله بن محمد الفقيه البارقي مقالة صحفية، بيّن فيها أن البحث في موقع سوق حباشة لا يصح أن يكون بعيدًا من الأرض التي تحُلها بارق.

وهذا نص مقالته، بعد حذف شيء من ما تقدم من أقوال البلدانيين:

«سوق حباشة: حقائق تاريخية وأهواء بشرية

سوق حباشة من أسواق العرب المشهورة في الجاهلية وصدر الإسلام، وقد تواتر قول القدامى من أمثال الأزرقي والبكري، والمعاصرين وإمامهم في هذا علامة الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - على أن سوق حباشة في ديار الأوصام من بارق، إلا أنه من الملاحظ في الآونة الأخيرة أن الأهواء البشرية تريد أن تعبث بالحقائق التاريخية، معتمدة على أقوال اجتهادية جانبها الصواب، منادين ومصرّين على أن سوق حباشة في قنونى، وحجتهم في هذا الأمر محاولات عبد الله بن حسن الرزقي في كتابه (سوق حباشة: دراسة تاريخية موجزة) و(كتاب حوليات سوق حباشة) للأستاذ الدكتور عبد الله أبو داهش، وما ورد فيه حول سوق حباشة، ولعله الداعم الأقوى لكل من يذكر أن سوق حباشة في حداب القرشة بوادي قنونى، ولي في هذا الشأن وقفات موثقة بإذن الله:

- الأولى: نقد الدكتور عبد الله أبو داهش للدراسة التي قام بها عبد الله بن حسن الرزقي في كتابه (حوليات سوق حباشة: عدد خاص بموقع سوق حباشة وبعض أخباره) عدد 15، س 15، 1430هـ/ 2009م، حيث يقول في ص (38): «لقد حاول الدارس عبد الله بن حسن الرزقي في كتابه (سوق حباشة: دراسة تاريخية

---

(1) صحيفة الوطن، العدد (3928)، السبت 1/ 8/ 1432هـ.

موجزة) أن يُلقي الضوء على موقع هذا السوق وما يتصل به من آثار، لولا أن عمله في هذا الكتيب لم يسلم من: التصحيف، والتحريف، وبعض المآخذ العلمية»، وهذه شهادة كافية على عدم أهلية هذه الدراسة لتحديد موقع السوق.

- الثانية: تأرجح موقف الدكتور عبد الله أبو داهش بين الجزم والنفي في كتابه (حوليات سوق حباشة: عدد خاص بموقع سوق حباشة وبعض أخباره) عدد 15، س 15، 1430هـ/ 2009 م، ففي ص (39) يجزم بقوله: «وخاتمة القول: إن هذه السوق التي يظن بوجودها في صدر وادي قنونى إنما هي بالفعل تقع فيه». وفي ص (40) ينفي بقوله: «وعند بحثي الميداني فيها لم أعثر عبر تجوالي في الموضع، ولا صحبي على شيء من: النقود، أو العلامات الفارقة، سوى حجر صغير أبيض بحجم قبضة الكف فيه حفرة صغيرة في وسطه يظنها الناظر وعاءً للمداد على استبعاد ذلك تمامًا»، ومعنى هذا عدم وجود شواهد ودلائل لوجود السوق.

- الثالثة، وهي الأهم: تفنيد الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - لما أورده حسن بن إبراهيم الفقيه من أن سوق حباشة في قنونى في (المجلة العربية)، العدد (242)، السنة (21)، ربيع الأول عام 1418هـ/ يوليو - أغسطس 1997م، ص (100) و(101)، حيث يقول ما نصه:

«حوليات سوق حُبَاشَة: هذا عنوان كتاب يحوي اثني عشر بحثًا...» [وقد نقل الأستاذ البارقي رأي الشيخ حمد - الذي تقدم - بطوله].

- الرابعة: أحمد للأستاذ الفاضل الدكتور عبد الله أبو داهش أمورًا وأعتب عليه في أمور.

أما الأمور التي أحمدها له فهي:

1 - اتخاذه سوق حباشة عنوانًا لكتابه، لافتًا الأنظار إلى إرث تاريخي مميز تميزت به قبائل بارق.

2 - شفافيته الملحوظة عند حديثه عن كتاب الرزقي، ومشاهدته الميدانية لما يظن أنه موقع سوق حباشة.

3 ـ جهوده المتميزة في إظهار أدبيات وموروث منطقتنا بشكل علمي مؤصل.

أما الأمور التي أعتب عليه فيها، فهي تتمحور حول سوق حباشة، وتتمثل في الآتي:

1 ـ عدم إيراد ـ أو على الأقل التلميح لـ ـ رَدّ الشيخ حمد الجاسر على الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه، الذي نشره في (المجلة العربية) عام 1418هـ، والذي يتعلق بسوق حباشة في عدده الخاص بسوق حباشة وأخباره، مع العلم أن الموضوع يخص سوق حباشة.

2 ـ الجزم بوجود سوق حباشة في قنونى، مع أن الجزم في هذه الأمور يحتاج إلى التريث، حيث لا علامات فارقة ـ كما قال ـ وكذلك لا شواهد تصل إلى درجة الجزم، وكان الأَوْلَى ـ وهو الأعلم بذلك ـ أن يرجح، إذ إن الاستنتاجات التي بنى عليها جزمه من أن صدر قنونى كان من قبل ضمن حوار بلاد بارق ومن ولاياتها لم تغب عن الشيخ حمد الجاسر، وهو من هو، وقد تعرض لموقع سوق حباشة كما ذكر في معرض رده على حسن الفقيه، إذ إنها ليست دليلاً قاطعًا ولا مستأنسًا به على وجود السوق بتلك الجهات.

3 ـ عدم تقصي حقيقة سوق حباشة في بلاد بارق، وهي مليئة بما ذكر أثناء زيارته لقنونى من ردوم وحجارة مركومة وقبور ودوائر ظاهرة في الأرض، إذا كان في هذا دليل لوجود السوق.

4 ـ محاولة سلب قبائل بارق إرثًا تاريخيًّا عريقًا وإهدائه لقبيلة أخرى عبر زيارة خاطفة، ومن خلال استنتاجات اجتهادية قابلة للصواب والخطأ.

وأخيرًا: أشكر الأستاذ أحمد عسيري، الذي أثار هذا الموضوع في صحيفة (الوطن)؛ بحثًا عن الحقيقة، فشكر الله له وكثر من أمثاله، وقد لاحظت هذا الأمر منذ زمن، إلا أني لم أعر الموضوع اهتمامًا، كونه يحتاج إلى جهات مختصة، تبعث اللجان المتمكنة في الأمر للوقوف على حقيقته، إلا أنه وبعدما تعالت الأصوات المنادية باعتماد السوق في قنونى، وتعاقب تصريحات المسؤولين في تلك الجهة، منهم محافظ القنفذة ومدير بلدية ثريبان، أصبح لزامًا توضيح الحقائق؛ ليكون للهيئة

العامة للسياحة والآثار، وهي المعنية بهذا الأمر دور فعال إزاء الأصوات القائلة بأن سوق حباشة في قنونى، ببعث المختصين في التاريخ والآثار؛ للوقوف على حقيقة سوق حباشة، وارتباطه الوثيق عبر العصور بتاريخ بارق، ووجوده في بلاد بارق، ولا تتيح الفرصة لمن يتخذ الأقوال الاجتهادية ذريعة لتغيير مجريات التاريخ، وفقًا لأهوائهم وتحقيقًا لرغباتهم ومصالحهم»[1]. اهـ

● وَقَفَاتٌ عِنْدَ مَا أَوْرَدَهُ الْبَاحِثُونَ الْمُعَاصِرُونَ

سوف أسطّر هذه الوقفات في ثلاثة جوانب:

- الجوانب الإيجابية.
- جوانب القصور.
- آراء الباحثين المفنَّدة.

وقد صرفت النظر عن بعضٍ يسيرٍ من هذه الجوانب حين لم أرَ لإيرادها ما يزيد البحثَ نفعًا.

فإلى هذه الجوانب.

● الْجَوَانِبُ الْإِيجَابِيَّةُ فِي آرَاءِ الْبَاحِثِينَ

ومن أوضحها:

- ثقة الشيخ الدكتور عاتق بن غيث البلادي بأن بارقَ لا يمكن أن يكونوا سكنوا قنونى ثم أزيحوا عنها.
- قول البلادي: لا يمكن الخلط بين قنونى وحلي.
- قوله: إن ديار بارق من حلي وليست من قنونى.
- قوله: يصعب الجمع بين بارق وقنونى.
- قوله: ليس مع بارق إلا حلي.

(1) صحيفة الوطن، العدد (3998)، السبت 12/ 10/ 1432هـ.

- عدم قبول الشيخ البلادي بأن مدة سوق حباشة ثلاثة أيام.
- رأي الشيخ البلادي بأن المعقص أجدر موضع في قنونى لقيام السوق، وهذا يوحي بأن البلادي يدرك بأن من أهم شروط السوق الاتساع.
- رأيه الذي لم يبيّنه عندما ناقش الفقيه في موقع سوق حباشة، وأشار إلى مكان من حلي رآه مظنة لمثل هذا الموقع. وهذا دليل على أن البلادي لو لم تَرُدَّه ثقتُهُ بالشيخ حسن الفقيه، لاختار موقعًا في حلي، ولا أراه يجد موقعًا إلا في المساحات الواسعة في أعاليه من ناحية شرقيّ حلية. وأُراهُ ـ وإن لم يكن في بلاد بارق ـ سيكون واقعًا على طريق.
- تحديد الشيخ حسن الفقيه ثلاثة أماكن، كلها تشترك في اسم (حُباشة).
- موازنة الشيخ الفقيه مناشط سوق حباشة بمناشط سوق عكاظ، وهي التي كانت أكثر أسواق العرب أخبارًا في المصادر.
- قول الشيخ الفقيه بأن أهمية موقعها زاد في شهرتها. ولكن الفقيه لم يبيّن مكانها.
- رأي الشيخ حمد الجاسر بأن موقع السوق من صدر قنونى هو حيث يتسع حوض الوادي بمجاوزته ما كان يحصر مجراه من الجبال، وهذا يوحي أيضًا بأن الجاسر يدرك أن من شروط السوق الاتساع، وهو الذي بحث في موقع سوق عكاظ قبل ذلك.
- قول الشيخ الجاسر: الملاحظ في الأسواق التي لا تستمر زمنًا طويلاً، عدم الحاجة إلى المباني، بل الاكتفاء بالبيوت المنصوبة كالخيام ونحوها من ما يسهل نقله عند انتهاء زمن السوق.
- قول الجاسر: فثلاثة الأيام قصيرة بالنسبة لإعداد ما يلزم لنزول السوق وتعاطي البيع والشراء فيه، وما أسهل تصحيف كلمة (ثمانية) بـ (ثلاثة).
- تعريف الجاسر بالإواس، وأنْ لا صلةَ لهم ببارق.
- قول الأستاذ محمود آل شبيلي بأن بارقَ بين قنونى وحلي.
- قول محمود آل شبيلي بأن الأزرقي لم يكن يعرف السوق جيدًا، وإنما سمع عنها أنها تقع في بارق بين قنونى وحلي.

- قوله بأن هناك من يقول بقربها من قرن مَخْلَد.
- قول الأستاذ سعيد آل زايد القرني بأنه لم يستطع أحد تحقيق موقع سوق حباشة من قنونى.
- محتويات كتاب الأستاذ عبد الله بن حسن الرزقي الشاملة.
- قول الرزقي: إن الأودية التي وردت في نص الأزرقي مع قنونى هي أبعد مسافة من مكة بأكثر من ست ليال.
- قوله: «البعد يتراوح [بين] 500 ـ 600 [متر]. . . منطقة حداب ورضم ومقابر قديمة». وهذا اعتراف منه بضيق مساحة السوق للنازلين حولها، واعتراف بوجود مقابر في السوق ورضمٍ، ربما كان يراه من مؤشرات السوق!
- وضع الرزقي ثلاثة مواقع في خريطته ليكون أحدها مكانًا لسوق حباشة.
- تحديد الرزقي صدر قنونى بأنه «أقصى الجزء الشرقي الجبلي، أي من نقطة بدء تشكل الوادي من غرب قرية المعقَّص وشرق قرية ناخسة إلى خروج الوادي من الجبال».
- نفي الشيخ حسن بن إبراهيم الفقيه بأن تكون السوق في ناحية أحد بني زيد، وأن تلك الناحية في بلاد كنانة لا في بلاد الأزد.
- نقد الأستاذ الدكتور عبد الله بن محمد أبي داهش التصحيف والتحريف وبعض المآخذ العلمية في كتاب الرزقي.
- تقدير أبي داهش مساحة الموقع الذي في حداب القَرْشة بأنها كيلومتر واحد في نصف كيلومتر. وهو تقدير مبالغ فيه.
- مقابلة الأستاذ أحمد بن مريف البارقي مع الشيخ أحمد بن حسن الهيازعي، لمحاولة تعرُّف موقع سوق حباشة.
- عدم موافقة الأستاذ الدكتور غيثان بن جريس قول الفقيه بتحريف اسم الأوصام.

- عدم موافقة الدكتور غيثان قولَ الجاسر بأن السوق في شرقي القنفذة بنحو خمسة وعشرين كيلومترًا.
- نقد الأستاذ أحمد عسيري رأيَ الأستاذ الدكتور غيثان بن علي بن جريس وكيف حسم الأمر وحدد موقع السوق وهو الذي يطالب بدراسات علمية أثرية ترشد إلى موقعها.
- امتداح الأستاذ عبد الله الفقيه البارقي جوانب ذات قيمة علمية وتاريخية في دراسات أبي داهش، وأهمها اتخاذ اسم سوق حباشة عنوانًا لدراساته.
- نَقْدُ الفقيهِ البارقي أبا داهش في عدم تقصي حقيقة سوق حباشة في بلاد بارق، وهي مليئة بالردوم والحجارة المركومة والدوائر، إذا كان أبو داهش يرى في مثل هذه دليلًا على وجود السوق.

● جَوَانِبُ الْقُصُورِ فِي تَصَوُّرِ الْبَاحِثِينَ

ومن بينها:

- قول الشيخ عاتق البلادي عن المعقَّص: «هنا كان قد أقيم مكان لسوق حباشة»، حيث إن قوله: «كان قد أقيم» جملة قطعية الدلالة.
- قولاه: «على أن الفقيه لا يزال يتحرى ويتأكد لإكمال البحث» و«ولو لم يؤكد أخي الفقيه هذا الموقع لقلت...»، قولان متضادان، فالفقيه ما زال يتحرى، والفقيه يؤكد!
- نقل الشيخ حسن الفقيه كلام الأزرقي بتغيير حرف الجر، وهو: «من بارق من صدر قنونى وحلي»، فجعله: «من بارق إلى صدر قنونى وحلي»، وإن كنت أظنه خطأً نقليًّا؛ إذ لا فائدة تُذكر من تغيير حرف الجر، إلا أن عدم اعتذار الشيخ الفقيه عن ذلك في أبحاث لاحقة، يجعل الملامة عليه قائمةً.
- جزم الشيخ الفقيه بأن الأوصام تحريف عن الأَوَاس.
- جعله السوق في بلاد الأَوَاس. وأقول: هل الأَوَاس [أو الإواس، بكسر الهمز، وذلك ضبطها الصحيح] من بارق لكي نحفظ مصداقَ النَّصّ القديم؟!

- نفيُه معرفة (الأوصام) من قبائل بارق في الماضي والحاضر، ويكفينا ما ردّ به الشيخ حمد الجاسر عليه.
- عدم تحديد الفقيه موقعًا واضحًا لسوق حُباشة، وكأنما كان يريد نشره في كتاب مستقل.
- عدم تعليقه حول اختلاف مدة قيام السوق بين ما ورد في كتابَيْ الأزرقي والبكري.
- رأي الفقيه بأن أهمية سوق حباشة جاءت من كونها واقعة في وسطٍ سكانه مشغولون بالتعدين، وبخاصّةٍ تعدين الذهب. وأقول: إن المعادن الثمينة ينقلها الناس مصوغةً، فالذهب ـ مثلاً ـ يُنقَل بعد صوغِهِ لا تِبْرًا مَشُوبًا، ثم إن وجود قرى التعدين على طرق تهامة يُيَسِّر شراءَ بعضها من مواطنها!
- رؤية الشيخ حمد الجاسر في أن السوق قريبة من موقع قرية الأحد. وذلك أن قرية أحد بني زيد وما حولها ليست في صدر قنونى بل في أسفلها، وهي في نطاق ديار كنانة القديمة.
- قول الجاسر بأن بلاد بارق منتشرة في صدور قنونى وما حولها من فروع الأودية. ولعله بنى قوله على ما جعله الهمداني مساقط بارق، والتي مدّها إلى هذه الناحية.
- اكتفاء الأستاذ محمود آل شبيلي بسرد الأماكن التي يمكن الظن بوجود سوق حباشة في أحدها، وعدم تعليل أسباب اختيار بعضها.
- ظن الأستاذ عبد الله الرزقي أن خندقًا أزدي وأن بني أَسَدٍ من الأزد، بينما هم بنو أَسَد بن خُزيمة بن مُدرِكة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان. وينطق الاسم في أَسَد بن خزيمة بفتح السين، بينما ينطق اسم الأَسْد ـ وهو أحد نظيري[1] كلمة (الأَزْد) ـ بتسكين السين.
- جزم الرزقي بأن الثماد التي ذكرها كثيّر عزة في رثاء خندق الأسدي هي جبل

(1) النظير الآخر هو (العَسْد).

ثميدة، بينما تقع الثماد في ناحية من بلاد بني أسد بن خزيمة في نجد، ولعلها بقرب الأجيفر في ناحية شمالي جبل سلمى، في شرقي حائل اليوم.

- قول الرزقي بأن السوق كانت تقوم بين (6 ـ 8) أيام. ولم يرد في المصادر ذكرٌ لأيامٍ ستة.
- ظنُّه أن معادن ثميدة وعشم من ضرورات وجود السوق بقربهما.

هل يتعذر نقل المعادن المصنعة أو الكحل إلى أماكن بعيدة؟!

وهل عشم قريبة من قنونى قربًا واضحًا؟!

- قول الرزقي إن الفقيه يصرّ على أن السوق في قنونى، يوحي بأن الرزقي ينفي ذلك. فاستخدامه الفعلَ (يُصِرُّ) جاء في غير موضعه. وقد اعتمد الرزقي في نقل هذه الكلمة على كتاب عاتق البلادي (بين مكة واليمن).
- تذبذب قياس المسافة بين مكة وقنونى عند الرزقي، فتارة تبلغ (400) كيلومترٍ، وتارة هي (300) كيلومتر.
- نقل الرزقي قول حكيم بن حزام رضي الله عنه، ومنه: «واشتريت فيها بزًّا من بزّتها»، ثم استقاء عنوانٍ منه عن بزة سوق حباشة.

هذا توهُّمٌ من النقل المغلوط، حيث كان النقل من كتاب (بين مكة واليمن) لعاتق البلادي في الصفحة ذات الرقم (148)، وهو خطأ لا يمكن للبلادي ـ ولا من هو دونه في المعرفة ـ الوقوعُ فيه، ولكنه خطأ طباعي ألغى المسافة بين كلمتي (بزّ تهامة) وحذف آخرها، ولعل الطابع ظن الحرفين الأخيرين فاصلة في أصل خط البلادي. وكان على الرزقي أن ينقل من المصادر لا من المراجع.

- حين وضع الرزقي في خريطته ثلاثة مواقع يمكن الظن بأحدها مكانًا لسوق حباشة، فإنه لم يبين صفاتها، على الرغم من اقتناعه بأن رأي الفقيه هو الأقرب إلى الصواب.
- رأي الرزقي بأن الباحث عن سوق حباشة لا يمكنه البحث عنه في غير هذا النطاق، وهو رأي مبني على الفكرة المقدَّمة على النتيجة.

- قوله: «وأن البحث في غير هذا النطاق هو من قبيل ضياع الجهد والوقت دونما طائل» يدلُّ على عدم ثقة الباحثين بما وصلُوا إليه، وهو منهم.
- تقدير الرزقي مساحة ما جعله سوقًا في الحواري بما بين (8 ـ 11) كيلومترًا مربعًا، وواقع الحال أنها لا تزيد عن ثلثي كيلومتر مربع، حين نصرف النظر عن الالتزام بالمساحة المقبولة لإقامة السوق هناك، ونُغفِل المرتفعات الصخرية التي تنتشر في أرضها.
- فصل الفقيه بين كلمتي (قنونى) و(حلي) في قول الأزرقي مما يوحي بأن التحديد بعد الفاصلة لموقع حلي، غير مرتبط بموقع سوق حباشة.
- قول الفقيه بأن بين موقع السوق في قنونى وبين طرف بلاد بارق لا يجاوز عشرين كيلومترًا.

وواقع حاله أن البعد بينهما يبلغ خمسة وأربعين كيلومترًا على السمت وهو على دروب الأقدمين أطول.

- تأول الفقيه في العبارة التي اقتصها من قول الأزرقي، وهي: «وحلي من ناحية اليمن». ويمكن للقارئ العودة إلى قوله.
- قول الفقيه إن الموقع الذي اختاره يتميز بالأرض البراح بين الجبال المجاورة.

وأقول: هل هذا البراح كافٍ لإقامة سوق سنوية بقدر سوق حباشة؟! كلا! إنه مكانٌ لا تجتمع فيه سارحتان.

- تراخي الفقيه عن نسبة السوق إلى بارق واكتفاؤه بنسبتها إلى الأزد.
- رؤية الفقيه بأن الهمداني ذكر من ديار بارق أعلا قنونى. بينما كان الهمداني يتحدث عن تحديد جبل ثربان.
- اختلاف رؤية الأستاذ الدكتور عبد الله أبي داهش في طرفَي حديثه في خراب السوق؛ إذ يقول: «يستيقن الناظر في موضعه اليوم افتقاره إلى تلك الآثار»، ثم يقول بعد نحو سطرين: «لعلهم يحققون مكانه ويستدلون على موقعه»؛ فهو في أول الكلام يتحدث عن السوق في موقع يعرفه، ثم يتبيّن أن السوق غير معروفة

الموقع! في حين أن الأستاذ سعيد آل زايد القرني أشار إلى وجود فخار في ذلك المكان[1].

- زعم الأستاذ الدكتور عبد الله أبو داهش بأن لبارق مخلافًا، في الصفحة الـ (36) من (حوليات سوق حباشة)، فقال: أما ذكر بارق وحلي، فلشهرتهما بتلك النواحي، ولعل بلدة بارق يومئذ من المخاليف التي شملت ولايتها هذا الموضع، لقول إسماعيل الأكوع: إن من مخاليف تهامة: «... اللؤلؤة، لحسبة، حكم، العُرُش، عكاد، عكوتان، بارق، برك الغماد، بيش، عتود، ضمد، الخصوف، دوقة».

ولا مناصَ من التعليق على هذا القول في نقاط، هي:

1 ـ نسب الدكتور في هامش الصفحة ما قاله إلى كتاب القاضي إسماعيل الأكوع، فقال: (مخاليف اليمن 227 ـ 246). والكتاب الذي أحال إليه الدكتور لديَّ نسخة منه، وهو من إصدارات المجمع الثقافي في [أبو] ظبي في الإمارات العربية المتحدة، عام 1423هـ/ 2002م.

2 ـ ما بين الأقواس، يوهم بأن الأكوع قد قاله نصًّا. ونصٌّ بهذا المقدار يبلغ سطرين، كيف يوضع بين أقواس ثم يستغرق عشرين صفحة من كتاب؟!

3 ـ قلّبت صفحات الكتاب، وظننت بأن الأرقام خولف بينها، أو أن سقطًا في الصفحات حدث في نسختي، ورجعت إلى فهارس الكتاب، فلم أقرأ من هذه المخاليف سوى ثلاثة، هي مخلاف بيش ومخلاف حكم ومخلاف العرش. ولم ترد الأسماء الأخرى فيه لا كونها مخاليفَ ولا قُرًى.

3 ـ الصفحات المذكورة في هامش أبي داهش من كتاب الأكوع، احتوت عنوانين، هما:

«باب فُعلان، بضم الفاء وسكون العين» واستغرق الصفحات من (227) إلى (239)، و«باب ما ورد من الأسماء على وزن فعّال بفتح الفاء وتشديد العين

(1) سعيد بن عبد الله آل زايد القرني، **المعجم الجغرافي لبلاد بلقرن** (مرجعٌ تقدّمَ)، ص (75).

المفتوحة»، واستغرق الصفحات من (241) إلى (245). أما الصفحتان ذواتا الرقمين (240) و(246) في الكتاب فلا كتابة فيهما.

5 - حين رجعت إلى أسماء المواضع المذكورة في المعاجم والخرائط اليمنية، أدركت أن بعضها لا يمكن أن يكون مخلافًا[1]؛ فاللؤلؤة بستان شمال غربي صنعاء على بضعة عشر كيلومترًا منها! وعكوتان جبلان متقابلان! وهما غير عكوتي صبيا. وبارق ولَحْسَبَة ودَوقة كلها تقع خلف أم جحدم التي قال الهمداني إنها حدّ ما بين أعمال اليمن وأعمال مكة! وأما اللؤلؤة فليست تهامية! وأما برك الغماد، فإن أراد القاصية فإن المعلومات عنها نادرة، ولا أراها تُعَدُّ مخلافًا، وإن أراد البِرك ـ التي وَهَمَ الباحثون المعاصرون فجعلوها بَرك الغماد ـ فهي أيضًا خلف أم جحدم من نحو مكة.

6 - أورد القاضي إسماعيل الأكوع سردًا في آخر كتابه بمخاليف اليمن، وعددها عند اليعقوبي (82) مخلافًا، وعند ابن خرداذبه في (المسالك والممالك) (128) مخلافًا، وعند الهمداني (36)، وعند المقدسي البشّاري في (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) (112) مخلافًا، وعند ياقوت في (معجم البلدان) (75)، وعند الصغاني كما نقلها مصنّف (تاج العروس) (44) مخلافًا، ولم تكن بارق من بين هذه المخاليف.

7 - ظنُّ أبي داهش بتبعية بلدان السراة ذات حين من الدهر لليمن، في حين أن الأزد انخلعت من ربقة اليمن منذ انتشارها، لا يوجد في المصادر اليمنية ما يوافق رأيه، سوى التنظيمات الإدارية في سواحل تهامة، التي قد تخضع لليمن بخضوع أصحاب النفوذ الذين كانت تتبعهم حينًا.

- تكرار أبي داهش التشكيك في اسم الأوصام بأنه ربما أبدل بلفظ آخر أو تَطَوَّرَ لفظه.

السؤال: كيف يمكن التأكد من اسم الأوصام حين تتبدل حروف رسم الكلمة؟!

(1) عن اللؤلؤة وعكوتين وبعض المواضع اليمنية الأخرى يُنظر: إبراهيم بن أحمد المقحفي، **معجم البلدان والقبائل اليمنية**، ج (2)، صنعاء، دار الكلمة، 1422هـ/ 2002م.

- يبدو أن أبا داهش لم يراجع ما قاله، فهو تارة يظن بوجود السوق في الحواري… وتارة أخرى يجزم بوجوده فيها، وتارة يحتار فيه؛ حيث لم يعثر على ملتقط… تؤكد موقع السوق. واختتم رؤيته بقوله: نعم ها هي آثار تلك البقعة! يغالبها ال… أنها آثار سوق حباشة التهامي المشهور نفسه، وعند الله العلم وعنده اليقين.

- ظن أبي داهش بكفاية مساحة تلك الأرض لتكون سوقًا. فإن تكن سوقًا ف… تكون منازل مرتاديها!

- عندما نقل أبو داهش كلام الهمداني عن مساقط بارق، ومنه: «وثربان جبل لـ… من ناحية ذات أعشار وأعلا قنونى»، وضَعَ فاصلة بين (ذات أعشار) و(أعلا قنونى) ليدخل أعلا قنونى في بلاد بارق، بينما كان هذا الكلام تحديدًا لجـ… ثربان بأنه من ناحيتَيْ ذات أعشار وأعلا قنونى.

- ظن الدكتور غيثان بأن قرية الأحد التي عناها الشيخ حمد الجاسر في العرضـ… الشمالية.

● آراءُ الْبَاحِثِينَ الْمُفَنَّدَةُ

- آراء الأستاذ عرفان حمور التي ردَدْتُها في موضعها من هذا الفصل.

- اتفقت أقوال الباحثين حسن الفقيه، وعبد الله الرزقي، وعبد الله أبي داهش، عـ… أن المكان الذي بين الحواري وحداب القَرْشة يُعرف عند الأهالي باسم السو… مضافًا إليه رهوة السوق ورُهِيّ السوق.

لو أن السوق التي يحفظ الأهالي موقعها كانت سوق حباشة، لاستطاعوا الحفا… على نسبتها إلى حباشة، ولو بشيء من التحريف. وإذا كان أولئك الثلاثة، الذين بحـ… عن سوق حباشة، قد أجازوا لأنفسهم الظن أو الجزم بتحريف اسم الأوصام وبر… قبيلة، فإن التحريف بأسماء المواضع ألصق، وهو أمرٌ محسوس في عصرنا هذا.

ويحق لسكان تلك الناحية أن تكون في ذلك المكان سوق محلية لهم؛ لافتقار… إلى المساحات الفسيحة في غيره.

- قول الشيخ الفقيه: «فهذا الموقع لا يزال من أرض الأزد بلا منازع إلى بو…

هذا، سواء كان لبارق الأزدية، أو لبلحارث الأزدية أيضًا كما هو حالها اليوم»، مساواة بين رأيه الظَّنّيّ وبين قول المصادر الصحيح، وكأن ارتباطًا قريبًا بين بارق وبلحارث، فلِمَ لَمْ يظُنَّ أنّ بلحارث هم ورثة الأوصام، بدلاً من ظنّه بأن الأوصام تحريف الإواس؟!

- قول الدكتور أبي داهش إن موقع حداب القرشة قريب من خط الرحلة والحج إلى مكة.

هذا القول والذي قبله قد ردَّهُما من قَبلُ الشيخ عاتق البلادي - تغمده الله بواسع رحمته - في كتابه (بين مكة واليمن)، فقال: «وفي رحلتي الثانية من هذا الكتاب حرصت على رؤية المكان الذي ذكره الفقيه، غير أنني لاحظت أن سوقًا كهذا، يجتمع فيه العرب من كل أقطار الجزيرة يحتاج إلى موقع أوسع من هذا، كما أن هذا المكان منحرف عن الطرق، وخاصة طريق العرضية الذي أكّد أهل الديار أنه قديم»[1].

- رأي أبي داهش أن موقع حداب القرشة قريب من مجرى الوادي نحو الجنوب، وأن الآتي إليه من الطريق العامة المتجهة إلى مكة يسلك واديًا خصيبًا معمورًا بالمزارع والحصون والقرى.

إن عمران الوادي وخصبه لا يغنيان شيئا في التخفيف من طول الطريق التي سيدخل فيها سالك مسار الساحل، وذلك حين نعرف أن بين موقع حداب القرشة وانفراج الجبال أسفل من سبت الجارة نحو ثلاثين ميلاً، أي أطول من مسيرة يوم اعتيادية.

- قول أبي داهش إنه يمكن القيام بمسح ميداني لقرى تلك الأنحاء ومواضعها، وعقد اللقاءات العلمية مع المعمرين وذوي النباهة الفكرية من أبناء قبائل تلك الجهة لمعرفة حقيقة اسم الأوصام.

وأقول: إنه لو كان للاسم شبيه محرّف أو مطوّر لَعُرِف في فروع القبائل المتوسطة أو في أُسرها الصغيرة.

---

(1) البلادي، بين مكة واليمن (مرجعٌ تقدّم)، ص (150).

ثم أقول: إن أئمة الأنساب كابن الكلبي وابن حزم أوردوا اسم الأوصام، و
ينبغي لباحثٍ بمكانة أبي داهش التشكيكُ في عِلْمٍ يؤخذ بالنقل لا بالتجريب.

- نفي الدكتور غيثان بن جريس أن يكون لبارق وقبائلها صلة بالسوق. وإن كان هذ
ناجمًا عن ربط السوق بصدر قنونى، التي لم تكن يومًا لبارق، إلا أنه نسف
لمرجعية المصادر.

• الْأَفْكَارُ الْعَامَّةُ الَّتِي خَرَجَ بِهَا الْبَاحِثُونَ الْمُعَاصِرُونَ

خرج الباحثون المعاصرون، حين أرادوا الربط بين ما ورد في المصادر القديم
وبين الواقع اليوم، بآراءٍ لم تَرْوِ ظمأَ الصادي عن مكان سوق حباشة؛ وكان
نتيجتها:

- إغفال نسبتها إلى بارق، وتأوُّل اسمٍ غير الأوصام؛ ليكون مقبولاً في نظر
موقعها الذي لم تكن فيه يومًا!
- وضعها في أرض ليست لبارق، وهي صدر قنونى، وتأوَّل بعضهم أن تكون بارق
قد نزلت صدر قنونى حينًا من الدهر.
- تكرار الباحثين قول الشيخ حسن الفقيه بأنها في ناحية الحواري شرقيَّ حلل
القَرْشة.
- التماس الشيخين حمد الجاسر وعاتق البلادي مكانًا متَّسعًا للسوق، غير ما قال
الآخرون.
- التذبذب في أقوال الباحثين الذين جعلوه في أعلا قنونى، فتارةً يرون أنه إن بحث
آخرون في موقع السوق فعليهم ألا يجاوزوا ذلك الحيّز، وتارةً أخرى يجزمون
بما وصلوا إليه.
- الفكرة كانت واحدة، جاء بها الشيخ حسن الفقيه، ونقلها عنه بشيءٍ من التعديل
الأستاذ عبد الله الرزقي، ونقلها عن الرزقي لَمْ يَعْدُ ما قالَ قِيدَ أنملةٍ الدكتور
عبد الله أبو داهش.

الفصل الثالث

بَارِقُ: نَسَبُهُمْ وَبِلَادُهُمْ وَكِتَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُمْ

● اشْتِقَاقُ اسْمِ بَارِق

اشتق الاسم من جذر (ب ر ق).

جاء في (لسان العرب): «البَرْقُ: واحد بُروق السحاب، والبَرقُ الذي يَلمع في الغيم وجمعه بُروق، وبرَقت السماء تَبْرُق بَرْقًا وأَبْرَقتْ: جاءت بِبَرق، والبُرْقةُ: المقدار من البَرْق. . . وأَبْرَق القوم: دخلوا في البَرْق، وأَبرقُوا البرْق: رأَوْه. . . بَرق السيفُ وغيره يَبْرُق بَرْقًا وبَرِيقًا وبرُوقًا وبَرَقانًا: لَمَع وتَلأْلأَ، والاسم البَرِيق. وسيفٌ إبْريق كثير اللَّمَعان»[1].

ويظهر أن الاشتقاق كان من بروز القبيلة وكثرتها، وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أنهم سُمُّوا بجبل من ناحية اليمن أو بموضع في تهامة، واستقصاء ذلك ليس من مناحي كتابنا هذا.

● نَسَبُ بَارِق

- قال البَتِّيُّ (000 ـ 488هـ) ـ رحمه الله ـ في (تذكرة الألباب)[2]: «وأما كهلان بن سبأ، فقبائله المشهورة إحدى عشرة قبيلة: الأَزْد، وبَجِيلة، وخثعم، وكِندة،

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب** (مرجع تقدّم)، مادة (برق).

(2) أحمد بن عبد الوليّ البتي، **تذكرة الألباب بأصول الأنساب**، دراسة: د. علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 1426هـ/ 2006 م، ص (35).

ولخم، وجُذام، وعاملة، وخولان، والأشعر، ومَذحِج، وهمدان. فأما الأ
فعمائرها عظيمة لاحقة بالقبائل، وهي متفاضلة في الكثرة والشُّهرة. فمنها:
التي منها ملوك الشام. والأوس والخزرج وهم الأنصار. وخزاعة، والأ
وبارق، والعَتِيك، وهذه كلها تجتمع في عمرٍو مُزَيْقِياءَ بنِ عامرٍ ماءِ السما
حارثةَ الغطريفِ بنِ امرئ القيسِ بنِ ثعلبةَ بنِ مازنِ بنِ الأزدِ».

- ونَسَبَ القاسم بن سلام (154 ـ 224هـ) ـ رحمه الله ـ في (كتاب النسب
بسندٍ إلى الشهابي أحمد بن أبي عبيدة، شيخٍ من أهل اليمن قوله: «وولد
ابن حارثة بن عمرو بن عامر: سعدًا، وهو بارق، بطنٌ، وعمْرًا وعمران
بارق: كنانة، منهم سراقة بن مرداس الشاعر، ومعقِّر بن أوس الشاعر.

وعمرو بن عدي بن حارثة، وهم الهُجن، منهم: عرفجة بن هرثمة
جنَّد الموصل، وعداده في بارق، والرَّبَعَة بن عمرو، وثعلبة، وشبيب، وال
بطون كلهم، فدخل الرَّبَعة في هَدَاد بن زيد مناة بن الحجر بن عمران بن
مُزيقياء».

❖ وحيث إن في كتاب (جمهرة النسب) لهشام بن الكلبي ورقاتٍ لم توجد في
عُثر عليه من مخطوطات الكتاب، فإن أنساب الأزد كانت من بين ما فُقد
وقد أمكنت الاستعاضة عن ذلك بما أورده ياقوت الحموي عن ابن الكلبي
(المقتضب)[2]، حيث ورد فيه: «نسب بارق، وليس من غسان: ولدَ عامرُ
حارثة [بن عمرٍو مزيقياء بن عامرٍ ماء السماء][3] بن امرئ القيس البطريق بن
ابن مازن بن الأزد بن الغوث: سعدًا، وهو بارق، وعمْرًا، وعمران. فولد بار
كنانة، فولد كنانة: عوفًا، وثعلبة، وأنمارًا. فولد عوف: الحارث، وولد ال
مازنًا، وعمْرًا، وسعدًا. منهم: سراقة بن مرداس بن أسماء بن خالد بن عوف

(1) أبو عبيد القاسم بن سلام، **كتاب النسب**، دراسة: مريم الدرع، بيروت، دار الفكر، ط 1، 1410هـ/ 1989 م، ص (293).

(2) ياقوت الحموي، **المقتضب من كتاب جمهرة النسب**، دراسة: د. علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 1430هـ/ 2010 م، ص (197).

(3) ما بين الحاصرتين سقط، لا يستقيم عمود النسب إلا به، ولعله من سهو النُّسّاخ.

عمرو بن سعد بن ثعلبة بن بارق، ومُعقِّر بن أوس بن حمار بن شِجنة بن مازن بن ثعلبة، وهو شاعر جاهلي. وولد أنمار بن كنانة: مالكًا.

وولد عمرو بن عدي: مَلِكًا، وهو الهُجن، وثعلبة، والرَّبَعَة، وهم في هُدَاد بن زيد مناة. ومُلادِس، ونُعمان، وثعلبة، وشبيبًا، وألمعَ، وزيدًا، منهم: بنو منبِّه بن أشرك بن ألمع. وولد ثعلبة بن عمرو بن عَدِيّ: حارثة. فولد حارثة: شِبْرًا، ولَوذانَ، والنّسّاج[1]، والأوصام، قبائل كثيرة.

وولد عِمران بن عَديّ: عَمْرًا، فولد عمرو: وَألانَ، وهو شَكْرٌ، وهم حيٌّ بالسراة، ولهم عدد وجَلد، وليس بالعراق منهم أحد، ويقال: إن شَكْرًا هو خزيمة بن أنمار».

• بلاد بارق

إن كتاب (صفة جزيرة العرب) للحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (280 ـ نحو 360هـ)، كان وما زال مصدرًا ومرجعًا لكل من أراد الكتابة أو البحث في مواضع جنوبي جزيرة العرب. ولعل كل من نقل إلينا شيئًا من أخبار تلك الناحية العظيمة، إنما كان عالةً على كتاب الصفَة[2]، إلا ما جاء في نُتَفٍ متفرقة في المصادر كنوادر الهجري.

وسوف أسرد بعض ما يفيد القارئ في تحديد بلاد بارق، وإن لم يكن بين يديَّ سوى أقوال الهمداني المتناثرة في كتابه، ونُتَفٍ وردت في (التعليقات والنوادر) للهجري، وما جاء في (معجم البلدان)، تاركًا ما كان فيه ذكر سوق حُباشة؛ خشية التكرار.

(1) ورد الاسم في مصادره: (النساج) و(النباج). وربما كان مصحّفًا، وأن صحة لفظه (التَّيَّاح)، لوروده في أسماء من القبائل الأزدية في العراق بعد الإسلام. ومعنى النساج: الزّرّاد، وهو الذي يعمل الدروع، (**تاج العروس**)، والله أعلم.

(2) على الرغم من امتلاكي صوَرًا من نسختين مختلفتين من مخطوط (الصفة)، أتحفني بإحداهما أستاذي ذو الفضل محمد بن عبد الله الخيّال ـ شكر الله سعيَه ـ إلا أنّ بعض الأسماء التي وردت فيهما، لا يمكن الجزم بصحة ضبطها. ومن المآخذ على كتاب (الصفة) أن الهمداني ربما كتبه على فترتين متباعدتين، فجاءت بعض مواضعه ومواضيعه متضادة، وربما لم يستطع الهمداني أن يبيِّض نسخة وافية من مسوّدة الكتاب، بل ـ وهذا أشد وطئًا ـ قد يكون لخصوم الهمداني يدٌ في تحريف بعض ما جاء في الكتاب.

- قال الهجري في (التعليقات والنوادر): «[رِسْلٌ] من الأزد من بارق، بصدر الحَضَنة من تهامة»[1].

- وقال: «وبنو رِسْلٍ حيّ من الأزد ثم من بارق، بصدر الحَضَنَة من تهامة»[2].

- وقال: «قال الزهيري زهير نهدٍ: يَرْفَا، وهو ابن الهنو بن الأسْد، قَبيلٌ من الأزد مخبِتون[3]، معناه: منزلهم الخبت، والخَبْتُ أقرب أرض التَّهَمة إلى البحر، ثم الحَضَنَة، وهي جَرُّ الطّود، ثم الطود»[4].

- وقال الهمداني في (صفة جزيرة العرب): «ثم الجبل الأسود إلى الشقرات[5] وسعيًا من أرض جرش، وغوريُّ هذه البلاد هي أعلا زنيف وضنكان والمعقَّد وحرة كنانة، ووسط أرض طود وحقوفتان ونجد الطار.

ثم يتلوها سراة عنز وسراة الحجر، نجدها خثعم وغورهم بارق، ثم سراة ... من الأزد، وبنو القرن وبنو الخالد، نجدهم خثعم، وغورهم قبائل من الأزد»[7].

---

(1) أبو علي هارون بن زكريا الهجري، **التعليقات والنوادر**، دراسة حمد الجاسر وترتيبه، الرياض، 1413هـ/ 1992م، ص (1679)، وأشار الجاسر في الهامش إلى أنه لم يستطع قراءة الكلمة الأولى وهي اسم هذه العشيرة. وقد أفادني الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع في 1435/6/19هـ اسم هذه العشيرة: (رِسل)، وأن الهجري قد كتبها بصيغتين. وقد اطّلعتُ على بعض صفحات نسخة الشيخ حمد ـ رحمه الله ـ، فألفيته تصويرًا سيئًا، وأنَّ من أخرج مئات الصفحات من باطن الصور، لَجديرٌ بالإجلال؛ إذ عمل فوق ما يعمله الراسخون في علم قراءة المخطوطات.

(2) الهجري، المصدر نفسه، ص (1761).

(3) حدد الهمداني موطن يرفا، فقال في (صفة جزيرة العرب)، ص (235): «والشرى في شرقي ... أسدي ليرفا بن عثمان».

(4) الهجري، المصدر نفسه، ص (1906).

(5) في الأصل والمطبوعة: الشقرار. والصحيفة ساقطة من مخطوطة المكتبة البريطانية، والتصحيح من الأصول كلها في شرح منظومة الرداعي في آخر الكتاب. والشقرات هي الشجرة في لغة المهرة. ... أحمد طويب سعد المهري، **جوهرة قاموس اللغة المهرية**، أبو ظبي، مكتبة الفقيه، ط1، 1430هـ.

(6) في المطبوعة: ناه. وفي مطبوعة الشيخ محمد بن بليهد ـ رحمه الله ـ (باه). ولعل أولئك ـ إن صحت قراءة المطبوعة ـ من يسمون اليوم النهي من العوامر من بني شهر، ... عمر بن غرامة العَمْرِيّ، **(قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام)**، ج (1)، ص (212).

(7) الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، مخطوط، جامعة الملك سعود، برقم (7939)، صحيفة (81/82).

- وقال: «خبت البزواء بناحية عليب، وعليب واد بين الخبتين خبت البزواء وخبت أذن، وهو في مساقط بلاد بارق من غور السراة، وهي بقْرة والملصة ويسران وذات أعشار، وثربان[1] جبل لهم من ناحية ذات أعشار وأعلا[2] قنونى»[3].

● إِلَى أَيْنَ كَانَ امْتِدَادُ أَرْضِ بَارِق؟

ضنّت المصادر بتحديد أرض بارق، إلا ما جاء فيها متفرقًا، يُفاد منه بعد جمعه واستخلاصه، ومن ذلك ما أورده أبو عليٍّ الهجري عن عشيرة بني رِسل البارقية التي كانت تسكن الحضَنة أو تتبدّى فيها، ومنه ما أورده الهمداني في ذكر مساقط بارق، ومنه ما استخلصته من كتاب (الطريق) المنسوب إلى القاضي وكيع، حول محجة الجَنَد العليا، التي بحثتها في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

يضاف إلى ذلك قول الهمداني في تحديد مساكن الأزد، ومنه: «وأما من سكن السَّروات فالحجر بن الهنو ولهب وناه وغامد ومن دوس وشَكر وبارق السَّوداء وحاء[4] وعليّ بن عثمان والنمر وحوالة وثمالة وسلامان والبقوم وشمران وعمرو». غير أني لن أبحث في منازل بارق السوداء التي تخرج عن نطاق كتابنا هذا.

بيّن الهجري مستقر بني رِسلٍ من بارق، بأنه في الحَضَنَة، حيث قال: «والخبت أقرب أرض التَّهَمة إلى البحر، ثم الحَضَنَة، وهي جَرُّ الطّود، ثم الطود». وبيّن في أحد قوليه، أن بني رسلٍ يتبدَّون الحضنة، وأنهم في صدر الحضنة في قولٍ آخر، أي إن جزءًا منهم ربما نزلوا من ديار بارق المعروفة اليوم في موسم الخصب، وإن بعضهم في صدر الحضنة. ومع اختلاف مدلول القولين، إلا أنهما يوحِيان بأن أرض الحضنة لبارق. والقبائل لا تنزل إلا بقرب المياه، ولعل بني رسل في موسم الخصب ينتشرون بين قنونى وحلي.

---

(1) في مخطوطة المكتبة البريطانية والمطبوعة: تربان، بالتاء المثناة الفوقية.

(2) في مخطوطة المكتبة البريطانية: وأعالي.

(3) **صفة جزيرة العرب**، مخطوط، جامعة الملك سعود، صحيفة (202).

(4) في مخطوطة جامعة الملك سعود: وحال.

ولنستعدْ قول الهمداني؛ لنستخلص الصورة بعد قول الهجري. قال الهمداني:

«وعُلَيْبُ واد بين الخبتين خبت البزواء وخبت أذن، وهو في مساقط بلاد بارق من غور السراة، وهي بقرة والملصة ويسران وذات أعشار، وثربان جبل لهم من ناحية ذات أعشار وأعلا قنونى»[1].

واضح من خلال واقع الأرض أن خبت أذن، حيث يجاور عُلَيْبًا بعيد عن مساقط بلاد بارق، ولكن يغلب على الظن أن الناسخ أسقط سطرًا آخره كلمة (أذن)، أو سقط سطر كامل بين قوله: (خبت أذن) وقوله: (وهو في مساقط بارق)، وإلا فإن أودية دوقة والأحسبة وقنونى، كلها تفصل خبت أذن عن مساقط بارق، ولكنْ إن صحَّ ظني أو كان غير ذلك، فإن في ما قاله الهجري غُنْيَةً لتحديد بلاد بارق إبّانئذ.

نلاحظ أن الهجري ذكر انتجاع الحَضنة لباديةٍ من بارق، وسُكنى صدر الحضنة لبعضهم، وإذا ما اتخذنا تعريف الهجري دليلاً للوصول إلى بُغيتنا، وجدنا أن أطراف أسفل حليٍ، من ناحية الرَّكْح، حيث نهايات الجبال، كانت منازل لبادية بارق، فهي فوق الخبت الذي تحتله كنانة العدنانية، وتمتد حتى أعالي الجَرد الذي يمر بطرف وادي يبة، فتلك الحضنة التي توالي الخبت، وأما صدر الحضنة الذي يوالي أطراف الجبال العالية، ففيه يجري وادي شِسَع حتى مهبطه في قنونى، وفيه موقِعَا جمعة ربيعة وخميس حرب اليوم، وفيه ذات أعشار، وجبل البكرتين، وغربي ثربان وجنوبيه وجزء من شرقيه، وكل ثربان بين ذات أعشار وأعلا قنونى لبارق، وَفْقَ هذا القول، وإن كان مثل هذا التحديد يأتي على التغليب. وأما أودية المَلْصة ويُسران وذات أعشار، فتصب جميعها في وادي يبة، ومما يدل على أن وادي يبة وادٍ بارقيٌّ، تجاهُلُ الهمداني إياه حين ذَكر روافدَه تلك وذكر وادي خاط في موضع آخر من كتابه.

لقد انحسرت بلاد بارق عن الحضنة كلها إلى ما دون ذات أعشار، ولعل من بين الحلقات المفقودة في تواريخ العصور الوسطى، مآل بني رِسْلٍ من بارق، هل انضمت بالحلف إلى قبائل أخرى مثل كنانة العدنانية أو يرفا الأزدية، أم اتخذت اسمًا غير

---

(1) صفة جزيرة العرب، مخطوط، جامعة الملك سعود (مصدرٌ تقدّمَ)، صحيفة (202).

بارق، فنَسِيَتْ انتماءها إلى بارق على مدى قرونٍ، أم عادت إلى قبيلتها في أصطمّة[1] ديارها! وإن كنتُ أراها ـ أو بعضَها ـ كانت وما زالت في حُميضة اليوم.

● كتاب رسول الله ﷺ لبارق

قال ابن سعد ـ رحمه الله ـ في (الطبقات):

«وفد بارق:

قالوا: وقدِم وفد بارق على رسول اللّهِ ﷺ فدعاهم إلى الإسلام فأسلَموا وبايعوا، وكَتَب لهم رسولُ اللّهِ ﷺ:

[هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللّهِ لِبَارِق أَلاَّ تُجَذَّ ثِمارُهُمْ وَأَلاَّ تُرْعَى بِلَادُهُمْ في مَرْبَع وَلاَ مَصِيفٍ إلاَّ بِمَسْأَلَةٍ مِنْ بَارِق، وَمَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ في عَرَكٍ أَوْ جَدْبٍ فَلَهُ ضِيَافَةُ ثَلاثَةِ أَيَّام، وَإِذَا أَيْنَعَتْ ثمارُهُمْ فَلابْنِ السَّبِيلِ اللُّقَاطُ يُوَسِّعُ بَطْنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْتَثِم. شَهِدَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَحُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَكَتَبَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ]»[2].

شرح بعض معاني هذا الكتاب[3]:

- الجَذُّ: القَطع المستأصِلُ الوَحِيّ.
- العَرَكُ: ما وُطِئ وأُكل من النبات. وعَرَكَ الإبلَ في الحمض: إذا خلّاها فيه كي تنال منه حاجتها.
- الجَدْبُ: المحْلُ، وهو انقطاع المطر ويُبس الأرض من الكلأ.
- اللُّقاطُ: السنبل الذي تخطئه المناجل يتلقطه الناس. وما يوجد ساقطا فيؤخذ.
- توسيع البطن: مصطلح معروف عند العرب.

قال هدبة بن الخشرم العذري لامرأته[4]:

---

(1) أصطمة المكان: مُعظمُ الشيء ومجتمَعه أو وَسَطه .(**تاج العروس**).
(2) محمد بن سعد بن منيع الزهري، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط1، 1968، ج (1)، ص (353).
(3) من كتب: تهذيب اللغة للأزهري، وتاج العروس للزبيدي، والطبقات الكبرى لابن سعد.
(4) د. يحيى وَهيب الجبّوري، **شعر هدبة بن الخشرم العذري**، الكويت، دار القلم، ط 2، 1406هـ/ 1986م، ص (114).

فَلَا تَنْكِحِي إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا ... أَغَمَّ الْقَفَا وَالْوَجْهِ لَيْسَ بِأَنْزَعَا
مِنَ الْقَوْمِ ذَا لَوْنَيْنِ وَسَّعَ بَطْنَهُ ... وَلَكِنْ أَذِيًّا حِلْمُهُ مَا تَوَسَّعَا
كَلِيلًا سِوَى مَا كَانَ مِنْ حَدِّ ضِرْسِهِ ... أُكَيْبِدَ مِبْطَانَ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا

- الاقتثام: الجمعُ والاجتراف والاستئصال.

إذا كانت قبيلة بارق، أو إن شئنا فلنقل: قبائل بارق، قد اتخذت هذا الكتاب وثيقة شرفٍ، كُتِبت على إثر وِفادتهم على رسول الله ﷺ وإسلامهم، فإن هذا الكتاب يحمل من المعاني ما لم يُكتب لغيرها من قبائل العرب عامة وقبائل الأزد خاصة.

ومن (الطبقات الكبرى) لابن سعد استخلصت نصوص بعض كتب النبي ﷺ لقبائل أو أفرادٍ؛ بغية الموازنة بينها وبين كتابه عليه السلام لبارق، وَفق الجداول التالية.

المكتوب لهم	محتوى الكتاب
ثقيف	نصه: «هذا كتاب من محمد رسول الله إلى المؤمنين إن عضاه وَجٍّ وصيده لا يعضد فمن وجد يفعل ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ النبي وهذا أمر النبي محمد بن عبد الله... فلا يتعدينه أحد فيظلم نفسه في ما أمر به محمد رسول الله»
بارق من الأزد	نصه: «هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق ألا تجذّ ثمارهم وألا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق ومن مرّ بهم من المسلمين في عرك أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام فإذا أينعت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير أن يقتثم»

كتابا النبي ﷺ لثقيف وبارق للموازنة بينهما

مصدر الجدول: الطبقات الكبرى، لابن سعد.

المكتوب له	محتوى الكتاب
خالد بن ضماد الأزدي من أزد شنوءة	أن له ما أسلم عليه من أرضه على أن يؤمن بالله لا يشرك به شيئًا ويشهد أن محمدًا عبده ورسوله وعلى أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم شهر رمضان ويحج البيت ولا يؤوي محدِثًا ولا يرتاب وعلى أن ينصح لله ولرسوله... وعلى محمد النبي أن يمنعه من ما يمنع منه نفسه وماله وأهله وأن لخالد الأزدي ذمة الله وذمة النبي إن وفى بهذا.
نُعيم بن أوس الداري اللخمي	أن له حبرى وعينون بالشام قريتها كلها سهلها وجبلها وماءها وحرثها وأنباطها وبقرها ولعقِبِهِ من بعده لا يحاقه فيها أحد ولا يلجه عليهم بظلم ومن ظلمهم وأخذ منهم شيئا فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.
عبد يغوث بن وعلة الحارثي	أن له ما أسلم عليه من أرضه وأشائها ما أقام الصلاة وآتى الزكاة وأعطى خمس المغانم في الغزو ولا عشر ولا حشر ومن تبعه من قومه.
يزيد بن المحجل الحارثي	أن لهم نَمِرَةً ومساقيها ووادي الرحمان من بين غابتها وأنه على قومه من بني مالك وعقِبِه لا يُغزون ولا يحشرون.
بديل بن ورقاء وبسر بن سفيان وسروات بني عمرو من خزاعة	نصه: «أما بعد فإني لم آثم بِإِلِّكم ولم أضع في جنبكم وإن أكرم أهل تهامة علي وأقربهم رحمًا مني أنتم ومن تبعكم من المطيبين أما بعد فإني قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسي ولو هاجر بأرضه إلا ساكن مكة إلا معتمرًا أو حاجًا فإني لم أضع فيكم منذ سالمت وأنكم غير خائفين من قبلي ولا محصرين أما بعد فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة وابنا هوذة وهاجرا وبايعا على من تبعهم من عكرمة وإن بعضنا من بعض في الحلال والحرام...»
أبو ظبيان الغامدي	يدعوه ويدعو قومه إلى الإسلام.
مطرِّف بن الكاهن الباهلي	نصه: «هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ولمن سكن بيشة من باهلة أن من أحيا أرضًا مواتًا بيضاء فيها مناخ الأنعام ومراح فهي له وعليهم في كل ثلاثين من البقر فارض وفي كل أربعين من الغنم عتود وفي كل خمسين من الإبل ثاغية مسنة وليس للمصدق أن يصدقها إلا في مراعيها وهم آمنون بأمان الله»
مهري بن الأبيض المهري	نصه: «هذا كتاب من محمد رسول الله لمهري بن الأبيض على من آمن من مهرة أنهم لا يؤكلون ولا يغار عليهم ولا يعركون وعليهم إقامة شرائع الإسلام فمن بدل فقد حارب الله ومن آمن به فله ذمة الله وذمة رسوله...»

كتب النبي ﷺ لبعض الأفراد وجماعاتهم لموازنتها بكتابه لبارق

مصدر الجدول: الطبقات الكبرى، لابن سعد.

المكتوب لهم	محتوى الكتاب
بعض أهل اليمن	أمرهم ﷺ بجمع الصدقة والجزية ودفعهما إلى معاذ بن جبل ومالك بن مرارة وأمرهم بهما خيرًا.
بنو قرة بن أبي نجيح النبهانيون	أنه أعطاهم المظلة كلها أرضها وماءها وسهلها وجبلها حمًى يرعون فيه مواشيهم.
بنو أسد	نصه: «من محمد النبي إلى بني أسد... أما بعد فلا تقربُنّ مياه طيئ وأرضهم فإنه لا تحل لكم مياههم ولا يلجنّ أرضهم إلا من أولجوا وذمة محمد بريئة ممن عصاه وليَقُم قضاعي بن عمرو».
بنو غفار	أنهم من المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وأن النبي عقد لهم ذمة الله وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم ولهم النصر على من بدأهم بالظلم وأن النبي إذا دعاهم لينصروه أجابوه.
خثعم	نصه: «هذا كتاب من محمد رسول الله لخثعم من حاضر ببيشة وباديتها أن كل دم أصبتموه في الجاهلية فهو عنكم موضوع ومن أسلم منكم طوعًا أو كرهًا في يده حرث من خبار أو عزاز تسقيه السماء أو يرويه اللثى فزكا عمارة في غير أزمة ولا حطمة فله نشره وأكله وعليهم في كل سيح العشر وفي كل غرب نصف العشر»
ثمالة والحدّان الأزديون	نصه: «هذا كتاب من محمد رسول الله لبادية الأسياف ونازلة الأجواف من ما حازت صحار ليس عليهم في النخل خراص ولا مكيال مطبق حتى يوضع في الفداء وعليهم في كل عشرة أوساق وسق».
أهل نجران	نصه: «هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل نجران أنه كان له عليهم حكمه في كل ثمرة صفراء أو بيضاء أو سوداء أو رقيق فأفضل عليهم وترك ذلك كله على ألفي حلة حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة وفي كل صفر ألف حلة كل حلة أوقية فما زادت حلل الخراج أو نقصت على الأواقي فبالحساب وما قبضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم فبالحساب وعلى نجران مثواة رسلي عشرين يومًا فدون ذلك ولا تحبس رسلي فوق شهر وعليهم عارية ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا إذا كان باليمن كيد وما هلك من ما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسلي حتى يؤدوه إليهم ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبِيَعهم وصلواتهم لا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته ولا راهبًا عن رهبانيته ولا واقفًا عن وقفانيته وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس رِبًا ولا دم جاهلية...»

كتب النبي ﷺ لبعض القبائل والجماعات لموازنتها بكتابه لبارق

مصدر الجدول: الطبقات الكبرى، لابن سعد.

• مَحاور كتب رسول الله ﷺ بوجهٍ عامٍ من خلال الكتب الواردة في الجداول

1 - الدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه وإقامة أركانه، ككتابيه ﷺ لخزاعة وأبي ظبيان.

2 - إقرار الناس على أرضهم وأموالهم حين يُسلمون، ككتبه ﷺ لخالد بن ضماد وعبد يغوث الحارثي ومهري بن الأبيض.

3 - عقد ذمة الله للمسلمين واستعدادهم لنصرة الله ورسوله، ككتابه ﷺ لغفار.

4 - ألا يُغير أحد على أهل الذمة وألا يُثقَلوا بظلمٍ ما نصحوا، ككتبه ﷺ لمن لم يسلموا من أهل نجران.

5 - تفصيل الزكوات، ككتبه ﷺ لخثعم وابن الكاهن وثمالة والحدّان.

6 - جمع الصدقات والجزية، ككتابه ﷺ لبعض أهل اليمن.

7 - إقطاع أرَضين، ككتابيه ﷺ لنعيم الداري ويزيد الحارثي.

8 - إقطاع أحماء ومراعٍ، ككتابه ﷺ للنبهانيين.

9 - النهي عن العدوان، واختص بذلك بني أسد لكيلا يلجوا أرض طيئ.

10 - حماية الأرض وإظهار سيادتها، ككتابه ﷺ لثقيف في حماية شجر وادي وَجٍّ وصيده والإبلاغ عن أي مخالفة. وككتابه ﷺ لبارق ألا يؤخذ شيء من أرضهم إلا بإذنهم.

ولكنْ:

• هَلْ يَخْتَلِفُ كِتَابُ النَّبِيِّ ﷺ لِبَارِق عَنْ كُتُبِهِ الْأُخْرَى؟

أجلْ! فكتابه لبارق لا يشابه في شأنه الكتب الأخرى إلا في مقاصد يسيرة في كتابه ﷺ لقبيلة ثقيف.

وهذا نص كتابه عليه السلام لثقيف كما أورده ابن سعد في (الطبقات الكبرى):

«هذا كتاب من محمد رسول الله إلى المؤمنين: إن عضاه وَجٍّ وصيدَه لا يُعضد، فمن وُجد يفعلُ ذلك فإنه يؤخذ فيبلَّغ النبي، وهذا أمر النبي محمد بن عبد الله رسول

الله. وكتب خالد بن سعيد بأمر النبي محمد بن عبد الله، فلا يتعدَّيَنَّه أحد فيظلِمَ نفسه في ما أمر به محمد رسول الله».

ومن ما جاء في كتاب (الأموال) للقاسم بن سلام (154 ـ 224هـ) في (باب كتب العهود التي كتبها رسول الله ﷺ وأصحابه لأهل الصلح)[1] ما أورده بسنده إلى عروة ابن الزبير قوله: «هذا كتابُ رسولِ الله ﷺ لثقيفٍ: [بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب رسول الله لثَقيفٍ، كتب أنّ لهم ذمّةَ الله الذي لا إله إلا هو، وذمةَ محمدِ بن عبد الله النّبيّ، على ما كَتَبَ عليهم في هذه الصّحيفة: أنّ واديَهم حرامٌ محرّم لله كله: عضاهُهُ وصَيْدُهُ، وظلمٌ فيهِ، وسَرَقٌ فيه، أو إساءةٌ، وثقيفٌ أحقُّ النّاس بِوَجٍّ، ولا يَعبُرُ طائفَهم، ولا يدخُلُه عليهم أحدٌ من المسلمين يغلِبُهم عليه، وما شاءوا أحدثوا في طائفِهم من بنيانٍ أو سواه بِواديهم، لا يُحشَرونَ[2] ولا يُعْشَرونَ، ولا يُستكرَهونَ بمالٍ ولا نفسٍ، وهم أمةٌ من المسلمين يتولـجون من المسلمين حيث ما شاءوا، وأين تَولجوا وَلجوا، وما كان لهم من أسيرٍ فهو لهم، هم أحقُّ النّاس به حتى يفعلُوا به ما شاءوا. . .]».

وجه الشبه بين كتابه ﷺ لثقيف وكتابه لبارق: سعة ديار ثقيف، ووقوعها على طرق تربط بين اليمن ومكة، وبين نجد والطائف، وتلك الطرق تمر بوادي وَجٍّ، وهذه السعة تحول بين ثقيف وبين السيطرة الوافية على أطراف بلادها.

وأما أرض بارق الواسعة، فلنقرأ هُوِيَّتها في تحليل السؤال أدناه.

● مَا الَّذِي يُمْكِنُنَا أَنْ نَقْرَأَهُ مِنْ كِتَابِهِ ﷺ لِبَارِق؟

لم يكن كتاب رسول الله ﷺ لبارق وثيقة فخر فحسب، بل هي وثيقة تتضمن نواحي المجتمع والأرض في التأريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع، يمكن الإفادة منها في بعض مناحي البحث.

(1) أبو عبيد القاسم بن سلام، **كتاب الأموال**، تحقيق د. محمد عمارة، بيروت، دار الشروق، ط 1، 1409هـ/ 1989م، ص (282).

(2) معنى (لا يحشرون): تؤخذ منهم صدقات المواشي بأفنيتهم، يأتيهم المصدق هناك، ولا يأمرهم أن يجلبوها إليه. المصدر: حميد بن زنجويه، **كتاب الأموال**، تحقيق د. شاكر ذيب فياض، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط 2، 1428هـ/ 2007 م، ج (1)، ص (455).

ويُفادُ من هذا الكتاب[1] الجوانب التالية:

1 ـ لم يتضمن الكتاب اشتراطًا على بارق، كأن يؤمنوا بالله لا يشركون به شيئًا، ويشهدوا أن محمدًا عبده ورسوله، وعلى أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأن ينصحوا لله ولرسوله.

هذا مؤشر على أن بارقَ أسلموا رغبة في الإسلام، وأن رسول الله ﷺ عرف هذا منهم، بما علّمه الله.

2 ـ أن بلادهم تتخللها الطرق، وأنها غير معزولة.

3 ـ سعة بلاد بارق وارتفاعها عن حرّ تهامة ورطوبتها، وانخفاضها عن برد السراة جعلت منها مرعًى، ربما زاحمتهم فيه القبائل الأخرى المجاورة إن شحت مراعيها.

إننا حين ننظر إلى الأرَضِين المحيطة ببلاد بارق، نراها صخرية غير فسيحة، ما خلا ما انحدر نحو الساحل.

4 ـ أن بساتينهم ليست بمنأًى عن الطرق.

5 ـ توثيق سيادة بارق في أرضها، وتقرير هُويّتها.

6 ـ اجتماع كلمة بارق وتكافُؤُهم، فلم يكن في أرضهم إقطاع لسيّدٍ منهم أو لقوم منهم، أو أن يؤَمَّر على كل فرع منهم أميرٌ منه.

7 ـ لم يسبق أحدٌ من بارق أحدًا منها إلى الإسلام، بل إن الوثيقة توحي بأن إسلامهم كان في زمنٍ واحد.

إن من بين هذه الجوانب التي ذكرتها آنفًا، ما يوحي بأن اختيار سوق حباشة في ديارهم لم يكن مصادفةً أو جُزافًا، بل إن طبيعة ديارهم هي التي جعلت الأزد لا

(1) للأستاذ حسن بن محمد بن عوض البارقي رأي أفادني به، عن الشاهديْنِ والكاتب، وملخصه: أن الكاتب أبيًّ بن كعبٍ النجّاري الأنصاري: أقرأ الأمة لكتاب الله، وأن أحد الشاهدين أبو عبيدة عامر بن الجراح القُرشي: القَوي الأمين، وأمين هذه الأمة، وأن الشاهد الآخر حذيفة بن اليمان العبسي: حليف الأنصار، وصاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين.

يختارون غيرها؛ فهي في أدنى الثلث الأقصى من ديار الأزد عن مكة، فكانت أقرب إلى تجارة اليمن وحضرموت ونجران، والطرق إليها تنزل من السراة من ناحية اليمن، وتصعد من الساحل من ناحية اليمن أيضًا، وبخاصةٍ طريق الجَنَد. كما أن موقع ديار بارق يسامت أعراض بيشة العليا، حيث يَسْهل الوصول إليها منها.

الفصل الرابع

الطُّرُقُ التِّجَارِيَّةُ وَمَسَالِكُهَا بَيْنَ مَكَّةَ وَجَنُوبِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَعِلَاقَتُهَا بِبَارِق

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾[1].

بين مكة وجنوبي جزيرة العرب، في اليمن وحضرموت وعمان، وفي جنوبي المملكة العربية السعودية، طرق كثيرة، تخرج من مكة أو تتجه إليها.

ويمكن أن نتبين طرقًا ثلاثًا، هي الطريق النجدية بين مكة واليمن، والطريق التهامية التي تحاذي البحرَ، وقد تكون طريقين خُلط بينهما بسبب ارتفاع بعض منازل الطريق عن البحر، وقرب بعضها من خط ساحله، وبين الطريقين الرئيستين نتبين طريقًا تحت منحدرات السروات الغربية، وحظ هذه الطريق الإهمال في المصادر؛ وسبب ذلك أنها طريق غير مباشرة من مكة أو من اليمن؛ فيسلكها من أراد أن يجمع في سيره بين الطريقين الرئيستين، وسيتبين لنا مكانة هذه الطريق.

ولكنّ جانبًا مهمًّا علينا الالتزام بإيضاحه، يتمثل في ما بين السطور في تحديد محمد بن سعد والأزرقي موقعَ سوق حباشة، وفي ما أورده الهمداني من إضاءات

(1) سورة الحج، الآيات (26 - 29).

حول بعض منازل محجة اليمن التهامية العليا، من وجود طريق رابعة لها أهميتها، هي فوق طريق الساحل ودون طريق الأصدار، وإن سارت على بعض مساراتها في بعض أجزائها، وسأوردها في نهاية هذا المبحث بإذن الله.

ولعلنا نتحدث عن هذه الطرق الأربع؛ للإحاطة المنظَّمة بها.

● الطَّرِيقُ النَّجْدِيَّةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ

حيث إن ما يتعلق ببلاد بارق من الطرق لا صلةَ قريبةً له بطريق حضرموت أو طريق عمان إلى مكة؛ حيث تبتعدان عن السراة، وحيث إن ما اقترب من طريق حضرموت العليا نحو اليمن يأخذ مسار طريق اليمن، فإن من الأَولَى ترك الحديث عنهما؛ خشية الإطالة في ما لا يفيد بحثنا هذا.

قال جامع كتاب (الطريق) المنسوب إلى القاضي وكيع (000 ـ 306هـ): الطريق اليمن إلى مكة، وهما طريقان، فطريق على [النجد][1]، وطريق على تهامة.

فطريق [النجد]: من صنعاء إلى الرحابة. . .»، [حتى قال]: «ومن حلاحل إلى طلحة الملك، ومنها إلى قبور الشهداء، ومن قبور الشهداء إلى ذات عُشٍّ، ومن ذات عش إلى كتنة، ومن كتنة إلى يبنبم، وبينهما الماء. ومن يبنبم إلى بنات حرب، وبينهما الماء بنَجْرٍ، ثم ماء بهرجاب، ومن بنات حرب إلى بيشة، وبينهما المسلة، ثم جسداء، ثم الميثاء. ومن بيشة إلى تبالة، ومن تبالة إلى أجرُب، ومن أجرُب إلى كرا، وهي حرة [. . .][2] وبينهما بئر خلافة، ثم الماء بارح (؟) ثم القريحاء. ومن كرا إلى تربة، ومن تربة إلى صفن، ومن صفن إلى أوقح، وبينهما ناجية، ومن أوقح إلى الفتق، ومن فتق إلى قرن، وبينهما شرب، ثم [المناقب][3]، وقرن إلى نخلة. . .»[4].

---

(1) هذه الكلمة ـ وكررت ـ وردت في المطبوعة: البحر. فهي إما تصحيف في الرسم وإما تصحيف في القراءة؛ لأن طريق تهامة وطريق البحر واحدة، ولأن المواضع المذكورة في هذه الطريق واقعة دون منحدرات السراة من نحو نجد.

(2) في الأصل: حرة بني سليم. ولكن حرة بني سليم تبدأ من ذات عرق حتى تقبل على المدينة. ولعل صحة الجملة: حرة بني هلال، أو: كحرة بني سليم. فكانت سُبْقَةَ قلم.

(3) هذا تصحيح المحقق حمد الجاسر، وكان في الأصل: العايب.

(4) القاضي وكيع، **الطريق**، تحقيق: حمد الجاسر وإشراف عبد الله الوهيبي، الرياض، دار اليمامة، ط... 1420هـ، ص (393 ـ 395).

وأورد الهمداني في (صفة جزيرة العرب) منازل الطريق بين صنعاء ومكة بالدرجات، ولكني سأختصرها إلى الأسماء فحسب، وهي: صنعاء، ريدة، أثافت، خيوان، العمشية، صعدة، بقعة في المحجة اليمنى أو العرقة في المحجة اليسرى، مهجِّرة، أرينب، سروم الفيض، الثجة، كتنة، يبمبم، بنات حرب، الجسَداء، بيشة بعطان، تبالة، القريحاء، كرا، تربة وهي أبيدة، الصفن، الفتق، وبين الصفن والفتق بريد جلدان، رأس المناقب، قرن المنازل، رمَة[1] (؟)، الزيمة، مكة.

لسنا بحاجة إلى مزيدٍ من المصادر لتسجيل منازل طريق صنعاء إلى مكة هذه، بل يكفينا معرفة مساره، ونخلص من ذلك إلى ما يلي:

- حين تخرج الطريق من اليمن ـ في واقعها الحالي ـ فإنها تكون قريبًا من ظهران الجنوب، ثم تمر بطلحة، ثم يستمر السائر فيها حتى يصل إلى كتنة على وادي هرجاب، على ليلتين من بيشة من جنوبيها، ثم يمر ببيشة، ثم ينحرف غربًا نحو تبالة، ثم يعتدل نحو أيسر الشمال إلى جُرَب ـ وِفاقَ نطقها اليوم ـ ثم إلى قرب مصب أبيدة في تربة، ثم تخترق الطريق جنوبي جلدان متجهة إلى الحوية اليوم، فالمناقب في غربي وادي قُرّان، فقرن المنازل فمكة.
- هذه الطريق مختصرة من صنعاء إلى مكة، فهي عادلة عن السراة نحو أعالي نجد، وبينها وبين تنومة، حيث يمكن النزول على بلاد بارق منها، نحو ثمانين كيلومترًا، وهي من النماص أقل بكيلومترات قليلة.
- العدول إلى بلاد بارق من هذه الطريق لا يمكن تصوره حين موازاتها، فلا الخارج من صنعاء ولا العائد من مكة بحاجة إلى الاتجاه نحو بلاد بارق في المنازل الوسطى من هذه الطريق.
- أقصى عدول نحو بلاد بارق إلى الخارج من صنعاء يكون عند خيبر الجنوب.
- أقصى عدول نحو بلاد بارق للعائد من مكة إلى صنعاء يكون بعد مجاوزة بيشة بأقل من نصف مرحلة.

---

(1) في الشمال الغربي من السيل الكبير على كيلومتر واحد من الميقات جبيل يسمى دِمَة، إن تكن هذه تصحيفها فليس بُدٌّ من تعليل لهذا القُرب، إلا أن يكون المراد: قرن المنازل ودمة.

- النازلون إلى بلاد بارق من جهة محاذاتها في السراة، ينزلون من عقبة ساقين إلى وادي بقْرة، ويمكن للأفراد غير المثْقَلين النزول مع عقبة بَرْمة، ومن العقبات النازلة على وادي خاطِ العديف، وَفْقَ قول الهمداني: «العديف عقبة تنصب مياهها إلى خاط واد وساكنه بنو عامر الغورية من الحجر»[1]، ولعلها ما يسمى اليوم عقبة سِنان أو إحدى العِقاب التي تجاوِرها.

- الخارجون من بلاد بارق نحو الناحية الجنوبية من الطريق النجدية من صنعاء، يخرجون مع الطرق التالية:

1 - أعالي وادي بَقْرة مع عقبتي ساقين وبرمة، وقد تقدم ذكرهما.

2 - أعالي وادي رَحَب، الذي يهبط على وادي الغيل ثم بَقْرة، وتقع شرقًا من جبل بركوك، وتتيامن الطريق في أعلاها نحو اثنين بلَّسمر، أو تتياسر نحو سدوان بلَّسمر.

3 - نحو محايل، ثم منها يأخذ في وادي تَيّة، فإن استمر صُعُدًا كان الخيار له أن يتيامن بعد حينٍ مع وادي عَرَام أو وادي رَجْم من بعده، حتى يبلغ أعالي وادي طَبَبٍ، أو أن يسير حتى يقطع أعالي وادي الطلحة جنوبًا من بداية عقبة شِعَارِ اليوم، ليأتي أبها من شماليها أو يستمر نحو الجنوب الشرقي حتى خميس مشيط، ثم يستمر نحو الطلحة (طلحة المُلك)؛ ليعانق طريق صنعاء قبل ظهران الجنوب.

وإن تيامن الخارج مع وادي تَيّة فأمامه خياران: فإما أن يتجه إلى بني رِزَام، وإما أن يأخذ نحو اليمين دون مرتفعات السودة، وكلتا الطريقين تخرج على أبها من شماليها وشماليها الغربي.

وهناك عقبات بين هذه الطرق ليس من مقاصد الكتاب التوسع في ذكرها.

- الخارجون من بلاد بارق نحو الناحية الشمالية من الطريق النجدية بين صنعاء ومكة، أو النازلون إليها تكون أمامهم الخيارات التالية:

(1) الهمداني، صفة جزيرة العرب، مخطوط، المكتبة البريطانية، برقم (OR 1383/2)، لوحة (129).

1 - الطرق التي تخرج من المجاردة فتتصل بحلباء ونواحيها في السراة، ثم تتجه نحو تبالة وبيشة.

2 - الطرق الخارجة من ثلوث عمارة وما حولها في وادي الجوف، فإن تيامنت من ناحية حيد عبس ظهرت على حلباء، وإن تياسرت ظهرت على ناحية جبل حرفة، ومنها نحو أعالي ترج وتبالة.

3 - الطرق الخارجة من نواحي معشوقة والقضية وثريبان، حيث تخرج على العلاية وما كان منها جنوبًا، فتتصل بتبالة.

4 - الطرق الخارجة من شمران، فالمتيامنة تتصل بباشوت فالعلاية، والمتياسرة عبر وادي الحفيان تتصل بأعالي رنية وجُرَب.

5 - الطرق الخارجة من المعقص ونمرة، فتخرج مع عقبة الأبناء وما جاورها، ثم تتصل ببلجرشي، فالعقيق، وتتيامن بعدئذ نحو جُرَب أو تتياسر نحو كراء.

6 - الطرق الخارجة من زناد البطاط ومن المخواة نحو بلجرشي.

7 - الطرق الخارجة من المخواة نحو الباحة، ومن الباحة نحو العقيق. ولعل الشنفرى خرج من سوق حباشة سالكًا إحدى هذه العِقاب في طريقه إلى الناصف من أبيدة!

8 - الطرق الخارجة من قلوة إلى الأطاولة وما حولها، فتتصل بواديي كراء وأبيدة.

9 - الطرق الخارجة من الشعراء عبر واديي عِيَاسٍ ورَمَا، نحو المندق فالأطاولة، ونحو برحرح فوادي تربة.

10 - الطرق الخارجة من الحجْرة عبر عقبة ذي منعا وما حولها، نحو برحرح وشماليها فأعالي تربة.

11 - الطرق الخارجة من الرهوة والجائزة ووادي أضم، نحو حداد وما حولها، فتتصل بالطريق بين أبيدة وكلاخ من ناحية أودية بُواء وتربة وضُراء، أو تتياسر نحو ذي غزايل وقيا.

12 ـ الطرق المنْصَبّة من ناحية أودية شرقي الطائف نحو الأصدار، فتسلك نحو الدار الحمراء وميسان وبلاد ثقيف، ثم تهبط على ربوع العين ووادي أضم.

وبين هذه الطرق الجبلية عقبات أخرى، معظمها محلي، ليس هدفنا الإحاطة بها كلها.

ويلزم التنويه أن هناك طريقًا سروية تتتبّع أعالي السروات، تتفرع من منازل الطريق النجدية نحو السروات، في مسالك واضحة المعالم لمن أراد معرفتها، ولكنّ رصدها بحيثُ تُعَدُّ طريقًا توازي الطريق النجدية، ليس أمرًا يسيرًا؛ إذ قد تكون ظهرت مدن وقرى على هذه الطريق واندثرت أخرى، غير أنه يمكن الجزم بأنها قريبة من مسار الطريق المعبدة بين أبها والطائف، وقد تسير فوقها أحيانًا.

● الطَّرِيقُ التِّهَامِيَّةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ

قال جامع كتاب (الطريق) المنسوب إلى القاضي وكيع (000 ـ 306هـ): «طريق تهامة: من صنعاء إلى رحابة، ومن رحابة إلى البون، ومن البون إلى ضبّاعين، ومن ضبّاعين إلى أثافت، ومن أثافت إلى النقيل، وهي الشقيقة، ومن النقيل إلى همل، ومن همل إلى الكلابح، ومن الكلابح إلى النساع، ومن النساع إلى مور، ومن مور إلى حور، ومن الحور إلى الخصوف، ومن الخصوف إلى جازان، ومن جازان إلى بيش، ومن بيش إلى عثر (؟)[1]، ومن عثر (؟) إلى ضنكان[2]، ومن ضنكان إلى حلي، ومن حلي إلى بيض، ومن بيض إلى وادي المقل[3]، ومن وادي المقل إلى وادي دوقة[4]،

---

(1) قوله: (عثر) تحريف، وإنما هو (تعشر) التي أوردها ياقوت فقال: «تعشر أيضًا: من قرى عثّر باليمن من جهة قبلتها، وقال محمد بن سعيد العشمي:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِتَعْشَرَ بَيْنَ الْأَثْلِ وَالرَّكَوَانِ»

ولا شك في أنها واقعة على وادي العُشَيْر، الذي يجاور نهبًا حيث موقع زنيف. ومن المتعذر أن يبلغ السائر بيشًا ثم يعود إلى عثر.

(2) يقع معدن ضنكان بين مصبَّيْ واديي الأثلة وضنكان في وادي ذهبان، نحو أيمن الشمال الشرقي من بلدة البِرك بنحو خمسة وعشرين كيلومترًا عدلاً.

(3) لعل موقع بيضٍ ـ إن صحت قراءةً أو لم تكن وهمًا ـ قريب من يبة، ولعل وادي المقل هو وادي المفش أعلاه وادي لومة، وأن صحة قراءته: (المفَلّ)، ويكاد يؤدي إلى معنى المفش نفسه! وأما المقل فهو ثمر الدوم، ولا يَبعد أن يكون هناك باسمه هذا.

(4) يقع وادي دوقة بين الأحسبة وعُلَيب.

ومن وادي دوقة إلى السرّين، ومن السرّين إلى وادي السباع[1]، ومن وادي السباع إلى الليث، ومن الليث إلى مركوب[2]، ومن مركوب إلى يلملم، ومن يلملم إلى ملكان، ومنها إلى مكة.

[وفي طريق تهامة خبر في الحاشية]: وهو حديث الفضل بن محمد أبي سعيد الجَنَدي، أن من أراد طريق زبيد أخذ من مكة إلى أدام، ومن أدام إلى مركوب، ومن مركوب إلى الليث، ومن الليث إلى عليَب، ثم القرما، ثم قنونى، ثم إلى حلي، ثم إلى المعَقَّد[3]، ثم إلى ضنكان، ثم إلى [زنيف][4]، ثم إلى بيض[5]، ثم إلى حاوي، ثم إلى العُرُش من جازان، ثم إلى النحيب، ثم إلى الحسارة، ثم إلى ذي الذراعين، ثم إلى بِلحة، ثم إلى المهجم، ثم إلى الكدراء [ثم][6] إلى المعقر، ثم إلى زبيد»[7].

وهذا ذكر منازل الطريق عند الهمداني في (صفة جزيرة العرب): «محجة صنعاء إلى مكة: طريق تهامة من صنعاء: صلّيت من البون، ثم الموبد، ثم أسفل العرقة وأخرف، ثم الصِّرحة، ثم رأس الشقيقة، ثم حرض، ثم الخصوف من بلد حكم، ثم الهجر، ثم عثّر[8]، ثم بيض، ثم زنيف، ثم ضنكان، ثم المعقّد، ثم حلي، ثم الجو[9]، ثم

---

(1) تقع بلدة السّرّين الأثرية، التي اكتشفها الشيخ حسن بن إبراهيم الفقيه، قرب مصب وادي حَلْيَةَ، أو ما يسمى الشاقّة الشامية، غربًا من بلدة الشّاقّة وجنوبًا من بلدة الوسقة. وأما وادي السباع فلعله أحد أودية خبت حبوة، وهو بهذا الترتيب ليس منزلاً ولكنه مستراح أو متعشًّى. وأما موقع الليث فلعله فوق موقع مدينة الليث اليوم بعيدًا عن البحر.

(2) تشرف جبال أبي صادع على وادي مركوب من الشمال والشمال الغربي.

(3) يقع وادي المعقّد نحو الجنوب الشرقي من كياد، وبينهما بضعة وعشرون كيلومترًا.

(4) في المطبوع: رنيف. والتصحيح من القاضي إسماعيل الأكوع، دروب الحج (مرجعٌ تقدّمَ)، ص (13). وموقع زنيف كان على وادي نَهَب، أيسر الشمال من الشُّقيق، وشرقًا من كدُمُل، بينها وبينه طرف الحرة.

(5) لم أستطع الجزم بموقع بَيضٍ هذا؛ فهو في هذا النص مرتفع عن الساحل، وفي نص الهمداني التالي قريب منه، ولعلهما منزلتانِ على وادي بيضٍ، أو منزلة يرتفع إليها المساحلون وينحدر إليها الآخذون بأطراف الجبال!

(6) في المطبوع: (أو). والتصحيح بعد التحقق من توالي المنازل.

(7) القاضي وكيع، الطريق (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (396).

(8) تقع عثّر على الساحل عند أسفل وادي بيشٍ، غربي صبيا بنحو عشرين كيلومترًا. ولكن لعل هذا المنزل يقع في حازّة عثّر التي ذكرها الهمداني في ص (98) من (صفة جزيرة العرب)، وهي التي تنسب إليها الأسود. وحين تتجه الطريق إلى ضنكان، متوسطة بين الساحل والجبال، معدِّلة مسارها لتخترق السهل الساحلي ولتترك الحرة بيسارها، فإن الطريق تمر بين صبيا وعثر.

(9) لعل الجو من خلال التناسب بين المسافات يقع أسفل من القوز، عند مصب وادي يبة، أو شمالاً عنه بمسافة قصيرة.

الجوينية من قنونى، وتسمى القناة[1]، ثم دوقة، وهي للعبديين من بقايا جرهم، ثم إلى السَّرَّيْن، ثم المعجر[2]، ثم الخيال[3]، ثم إلى يلملم، ثم ملكان، ثم مكة. هذه طريق الساحل، والمحجة القديمة ترتفع إلى حلي العليا وتسمى حلية[4]، وإليها ينسب أسود حلية[5] وهي التي يعني الشنفرى بقوله:

(1) تسمية هذا الموضع بالقناة تفيدنا لتحديد أقرب إلى الدقة، فحين يخرج وادي قنونَى من الجبال، ثم يجاوز المرتفعات، فيمر من خلال المنطقة السهلية، ينطلق منه مجرى غير واسع نحو الغرب يسمى الحنّاف، فيفارق مجرى الوادي الرئيس، حتى إذا بلغ البحر كان بين مصبيهما نحوُ اثني عشر كيلومترًا، وهذا الافتراق يشكّل ـ في رأيي ـ قناةً كأنما سُحبت من وادي قنونى، وقرب مصب الحناف هناك مظنة الجوينية.

(2) هذا موضع على وادي الليث، ولعله قريب من مصبه.

(3) وردت الكلمة في نسخة المكتبة البريطانية: الحيال. وربما كانت: (الجبال) أو (الحبال)! والموضع ليس بعيدًا من مجرى وادي مركوب، ولا يمكن الجزم بقربه من الشاطئ أو ارتفاعه عنه؛ بسبب اقترابه من الميقات الذي يترك البحر بعيدًا، وإن كان الهمداني ذكر أن هذه طريق الساحل.

(4) يصح أن يسمى جزءٌ من أعلا حلي حليةَ، إذا ما علمنا أن أحد الروافد في أعلا بَيْشٍ يسمى بَيشة. وهناك حلية أخرى في أسفل حلي.

(5) قال الهمداني في (صفة جزيرة العرب)، ص (98): وإلى حازَّة عثَّر تنسب الأسُود التي يقال لها أُسُود عثّر وأسود عِتوَد، وهي قرية من بواديها، وقد ذكرها ابن مقبل فقال:

جُلُوسًا بِهَا الشُّمُّ الْعِجَافُ كَأَنَّهُمْ أُسُـودٌ بِـتَـرْجٍ أَوْ أُسُـودٌ بِـعِـتْـوَدَا

وقال الهمداني في (الصفة)، ص (240): «مواضع الأُسْد في هذه الجزيرة المضروب بها المثل: أسد خَفّان وأُسد الشَّرَى من بلاد لخم، وأسد عثّر، وهو عثَر بالتخفيف وقد يثقّل، وأسد حاملة، وأسد الملاحيظ، وأسد المقيضا، وأسد اللطا (؟)، وأسد تعشر، وأسد ليّة، وأسد حلية، وأسد السّحول، وأسد تبالة، وأسد ترج وبِيشة، وأسد عتوَد، فأما تبالة وترج وبيشة فهي من أعراض نجد ولا يكون بهذا أُسْدٌ ولم يكن، وإنما تريد العرب أسود بَيْشٍ، ويزيدون فيه الهاء فيقولون بَيْشة بفتح الباء، وهي مواضع الأسد، وبِيشة بعطان فهي بكسر الباء، وقيلَ: بل أرادوا بِيشة نجد، وإن رؤوس هذه الأعراض من أعلا السراة منها ما ينحدر إلى نجد ومنها ما ينحدر إلى تهامة، فما انحدر إلى تهامة فالأُسْد فيه، ولهذا الجوار نسبوها إلى هذه الأعراض، وقدر (؟) بما طلع منها الواحد إلى أرض نجد قاطعًا من بلده فعاث فيها، فلعلّ أوّل من نسب الأسد إلى هذه المواضع عاين منها الواحد والزوج في بعض هذه الأودية». اه، والكلمتان ذواتا الاستفهام وردتا في نسخة المكتبة البريطانية: (الكظا)، (وقد ربما)، فأما الأولى منهما فغامضة، وأما الأخرى فإن صحت قراءتها فإنها لعبٌ باللغة، لا يمكن تبرئة الهمداني منه؛ ومن يقرأ دامغته يدرك ضعف لغته!

في هذه الناحية ندرك من قول الهمداني نسبة الأُسْد إلى حليةَ والشَّرَى وكلاهما في الشرق من ضنكان وِفاق قول الهمداني في صفحات من كتابه، وإلى عتود وبيش وعثر، وكلها في ناحيتي جازان الشرقية والشمالية، ونسبتها إلى تعشر وليّة والملاحيظ في ناحية جازان الجنوبية الشرقية، حيث إن الملاحيظ في أرض اليمن، فوق الخوبة وتشرف على وادي ليّة، وفي اليمن ملاحيظ أخرى قريبة من السحول، وهي في ناحية زَبيد.

لَهَا أَرَجٌ مِنْ حَوْلِها غَيْرُ مُسْنِتِ بِرَيْحَانَةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةَ نَوَّرَتْ[1]

ثم إلى عشم[2]، ثم على الليث ومركوب إلى يلملم[3] . . .»[4].

وقال الوزير أبو عبيد البكري (000 ـ نحو 487هـ) في (الممالك والمسالك):

«وطريق آخر يعرف بطريق تهامة، وهو رساتيق متّصلة، ومخاليف غير منفصلة، وهو أحرّ هواء من الأوّل وأكثر وباء. تخرج من مكّة فتسير سبعة فراسخ في أرض ذات حصى، وعن يمين السّاحل جبال متّصلة حتّى تأتي منزلاً ذا نخل وبساتين، ويحيط بهذه المرحلة جبل أسود كالحلقة، ثمّ ترتحل فترقى ذلك الجبل، وتفضي إلى أرض ذات حصباء وغور وبحر، ثمّ تفضي إلى أرض شجرها الأراك وكلَؤُها الإذخر، وماؤها في حفائر قريبة المتناول وبها المنزل. ثمّ تسير في برّية مثل الأولى، [حصباء] وجبال وأودية، نحو ثلاثة فراسخ إلى يلملم، وهي قرية من قرى مكّة، وهي مهل أهل اليمن، ماؤها آبار عذبة وعيون. فمن أحبّ أخذ منها في بريّة رمليّة، شجرها الأراك، وكلؤها الإذخر، وفيها سوائم المال ورعاته، فتفضي في الثالث إلى مدينة السّرين، وهي مدينة عظيمة فيها أسواق ومسجد جامع على ساحل البحر، وسورها في البحر، وأكثر بنيانها من الخشب والحشيش، إلا مسجد الجامع فإنه مبني من المَدَرِ، والحمامات فيها من الحشيش والخشب، ولا يستعمل فيها وقود، بل يسخن الماء خارجا منها، ويغتسل به داخلها، وسقيها ومشاربها من ماء السماء، وهي من عمل مكّة، وفيها مزارع وشبه حظائر للماشي(!)، وأكثر زروعهم الذرة والسمسم، والميرة تجلب إليها من عثّر وحردة. وعثّر منها على مسيرة عشرة أيّام بسير الرّاكب، وحردة من

(1) بيت الشنفرى يدل على أن المعني ببطن حلية، بطن وادي حلية المعروف بين أعيار وعُليَب.

(2) تقع قرية عشم الأثرية نحو أيمن الشمال من ناوان بأكثر من ثمانية كيلومترات، بين جبال تنحدر منها أعالي وادي قرما، وقد حدد موقعها الشيخ حسن بن إبراهيم الفقيه، رحمه الله.

(3) هذه الطريق تخرج من عشم، فتترك الأطراف الجنوبية من جبال نخرة بيمين، لتمر بالليث من فوق غُميقة، ثم تخرج على أعالي مركوب في فج بين جبال عفف وشرحاف، ثم تتصل بيلملم فوق السعدية.

(4) الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ط 2، 1429هـ/ 2008 م، ص (303)، واكتفيت بها عن طبعة الشيخ حمد الجاسر؛ لتطابق نصوص الطبعتين وشروحهما، ولأن طبعة صنعاء أوضح خطًا من نظيرتها.

ثغور الحبشة، وهي منهم على مسيرة خمسة عشر يومًا. فمن أراد منها صنعاء على البحر ركبه إلى حردة، وهي من تهامة، ومن أراد أن يركب البرّية إلى صنعاء، فإنّه يسير من السّرين في قرى لبني كنانة سبخة نحو ستّة فراسخ. وفي تلك الناحية مدينة حلي، وهي مدينة كانت من عمل أبي المغيرة الّذي حارب الحاجّ أيّام الموسم، واقتلع الذهب من باب البيت. وقد كانت هذه المدينة في ما سلف من عمل مكّة، وقام فيها سنة اثنتي عشرة وأربعمائة رجل من بني حرام، وخالف صاحب اليمن ودعا إلى نفسه، فحشد إليه أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني صاحب مكّة قبائل العرب، فحاربه، وأخذها وجلب الحرامي مع نفسه وتملّك [حليًا]، ثمّ ردّها إلى صاحب صنعاء. وهي مدينة ضخمة رملية، بناؤها من الخشب والحشيش ذات قرى ومساكن ودساكر، وماؤهم من الآبار والأمطار»[1].

وقال عمارة بن علي اليمني (514 ـ 569هـ) في (المفيد) في وصف طريق حاج عدن: «وأما طريق تهامة فهي تفترق أيضًا طريقين؛ فواحدة ساحلية على البحر، وواحدة ـ وهي الجادة السلطانية ـ متوسطة، منها إلى البحر يوم أو دونه، ومنها إلى الجبل يوم أو دونه، بحسب انضمام البحر والجبل وافتراقهما عن تهامة. وفي كل مرحلة من الطريقين الساحلية والوسطى جامع عظيم، فمن الساحلية المخنق، وهي من عدن على ليلة، وبها بئر طولها ثلاثون باعًا، وأنا وردتها مرارًا، وجامع متهدم، ثم العارة، ثم عبرة، ثم السقيا: جامع وبئر طولها أربعون باعا، ثم الباب باب المندب، ثم المخاء، ثم السحاري، ثم الخوهة، ثم الأهواب، ثم غلافقة، ثم نبعة، ثم الحردة، ثم الزرعة، ثم الشرجة، ثم المفجر، ثم القنديرة، ثم عثّر، وهي مقر ملك قديم، ثم بَيض، ثم الدويمة، ثم حمضة، ثم ذهبان، ثم حلي، ثم السَّرَّين، ثم جدة، فهذه جوامع السواحل، ما منها إلا ما رأيته إما عامرًا وإما خرابًا. وأما الوسطى؛ فذات الخيف وموزع والجدون، وحيس وزبيد، وفَشَال، والضِّجَاع ـ بكسر الضاد ـ

(1) د. عبد الله بن يوسف الغنيم، جزيرة العرب من كتاب **(الممالك والمسالك)** لأبي عبيد البكري، الكويت، دار ذات السلاسل، ط 2، 1399هـ/ 1979 م، ص (47).
والتعديل في النص بين الحاصرتين الأولبين من بعض مخطوطات الكتاب التي أشار إليها المحقق في الهامش. والتعديل بين الحاصرتين الأخيرتين تقويمٌ نحويٌّ.

والقحمة، والكدرا، وهي مقره[1] واختطها أيضًا، والجثة وعرق النشم، والمهجم ومور، والواديان، [وحيران][2]، والساعد وتعشر، والمبنى ورياح والهجر، ثم تلتقي طريق الجادة بالساحلية»[3].

يكفي لمعرفة مسار الطريق التهامية ما قدمناه من قول وكيع والهمداني والبكري وعمارة. ومِنْ أجملِ ما يمكن نقلُهُ لفائدة القارئ الكريم، من ما يتعلق بشأنٍ من شؤون هذه الطريق، ما أورده الأستاذ عرفان بن محمد حمُّور، في كتابه الرائِد في مجاله (قواعد الأمن في مجتمعات العرب القديمة)، فقد استخلصه من مصادر متعددة، يغني جمعُه فيه عن تتبعها. قال:

«كان على الطريق الممتد من اليمن إلى الحجاز فبلاد الشام قرًى متواصلة، قريب بعضها من بعض، جُعل السير بينها على مراحل، والمرحلة مسافةٌ قدرها نحوُ أربعة وعشرين ميلاً، كان الراكب على الإبل يقطعها في يوم، فكانوا يسيرون فيها بتجاراتهم آمنين من كل مكروه، لا يخافون شيئًا في ليل أو نهار، وقيل إنهم كانوا لا يحتاجون في سفرهم هذا إلى زاد، من لدن وادي سبأ باليمن إلى الشام»[4]، ثم قال: «لما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾[5] قال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ولهم بيوت معلومة على الطرق، فكيف يستأذنون وليس فيها سكان؟! فنزلت الآية الكريمة: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾[6]. وإذا تدبرنا هذا الكلام وجدنا فيه إشارات بينات إلى عدة أمور، أهمها أربعةٌ جديرة بالاهتمام والبحث:

(1) الضمير يعود على القائد حسين بن سلامة، وهو وصيف نوبيّ ينسب إلى أمه، لأبي الجيش إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن زياد. (محقق الكتاب).
(2) في المطبوعة: جيزان، تصحيف، لأن ما بعدها دون جازان من ناحية اليمن، ولأن جازان لم ترد في المصادر بالياء، كما هو لفظها في أوساط العامة اليوم.
(3) عمارة بن علي اليمني، **المفيد في أخبار صنعاء وزبيد**، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ط 4، 1431هـ/ 2010 م، ص (73 - 76).
(4) عرفان محمد حمُّور، **قواعد الأمن في مجتمعات العرب القديمة**، بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، 2000 م، ص (8).
(5) سورة النور، الآية (27).
(6) سورة النور، الآية (29).

الأول: وجود بيوت على طريق التجارة الغربي في جزيرة العرب، ينزلها تُجّار القوافل في أسفارهم؛ للراحة والتزود بالماء، وربما للتجارة ومقايضة أهل المنطقة بالسلع والعُروض.

الثاني: أن تلك البيوت كانت مرافق عامّة، ولم تكن مِلكًا خاصًا لأحدٍ ينزلها، أو يستثمرها بالإجارة، وإلا لوَجب عليهم استئذانه أيضًا في النزول بها.

الثالث: أنها لم تكن مضارب أو خيامًا من صوف أو وبر أو سعف نخيل، ولو كانت كذلك لقوّضوها وحملوها معهم، وإنما كانت مبنية على نحوٍ ما، يبقيها قائمة على حال ثابتة معلومة، تسمح للتجار والحجاج أن يأوُوا إليها كلما مرّوا بها.

الرابع: أنها كانت تظل خالية (غير مسكونة) من الناس، إلا في أيام المواسم ومرور قوافل التجار والحجاج والمسافرين، وهو دليل استقرار المناطق التي كانت تقوم بها، أو ثبات القواعد التي تنظّم العلائق بين التجار وأهل تلك المناطق»[1]. انتهى ما نقلته من قول الأستاذ حمّور.

وقد زار الإنجليزي كيناهان كونواليس Kinahan Cornwallis (1300 ـ 1378هـ) مناطق تهامة وعسير في العام (1334هـ/ 1916م)، وألف كتابًا سماه: (Asir before World War 1) أي: (عسير قبل الحرب العالمية الأولى)[2]، ذكر فيه كثيرًا من الطرق التي تعزز هذه المسارات، فتبيَّن لنا أنها ظلت مسلوكة حتى بعد أن انتشرت السيارات، إلى أن اختصرت الطرق المعبدة الحديثةُ المسافاتِ، وذللت العقبات.

ومن خلال الاطلاع على مسارات الطرق التي ذكرها، فقد ذكر ثلاث طرق ذات علاقة ببلاد بارق أو بالمحجة العليا، وهي:

1 ـ طريق محايل إلى القنفذة عبر بلاد بارق، حيث يُفاد من مواضع الطريق التي ذكرها، أن الطريق حين تُجاوز ربوع العجمة تلتف من نحو قذل قتروي، ثم

(1) عرفان محمد حمّور، **قواعد الأمن في مجتمعات العرب القديمة** (المرجع المتقدم)، ص (9، 10).

(2) لم أطّلع على النسخة الإنجليزية من الكتاب، الذي تُرجم إلى قُرّاء العربية في طبعتين، ولم يُعَرَّب، فاعتمدت الطبعة التي أخرجها عارف أحمد عبد الغني، دمشق، دار العرّاب ودار نور حوران، 2013، وقرأت أفكارها، ولم ألتزم بالنقل الحرفيّ منها.

تتجه نحو عقبة سَهول، ثم تتجه نحو وادي يبة، ثم تلتف بالتفافه حتى يصل إلى جمعة ربيعة، فتتجه الطريق نحو القنفذة.

2 ـ طريق محايل إلى القنفذة، والتي تسمى سكة الحَلْوِيّة، وتتجه من محايل شمالاً، فإذا بلغت عين آل دريب انعطفت نحو الغرب نحو معمل آل خليف، ثم سارت مع وادي حليٍ حتى تنفرج الجبال العالية، فتقطع وادي شَيْع، باتجاه القنفذة. ونفهم من خلال استعراض مواضعها أنها ذات خدمة محلية، ولكنها تتقاطع مع مسار محجة الجَنَد القديم قرب معمل آل خليف، فتسير معه نحو الشمال أميالاً.

3 ـ طريق تنومة إلى سوق العجمة، حين تنحدر مع عقبة ساقين، ثم تلتف نحو بلاد بارق من جنوبيها الشرقي، فتمر بالقريحاء، حتى تصل إلى قرية ساحل، ثم تنتهي بسوق العَجْمة. وتتفق هذه الطريق مع إحدى الطرق النازلة من السراة نحو سوق حباشة. انتهى ما ذكره كونواليس.

إن الاختلاف بين منازل الطريق ناتج من ارتفاع المسار أو انخفاضه في أزمنة متفاوتة، كما أنه ناتج من اختيار شبه متساوٍ بين المنازل في منظور سالكيها.

ومن خلال الطرق التهامية الواصلة بين بلاد بارق واليمن من جهة، وبين بلاد بارق ومكة من الجهة الأخرى، فإنه يمكننا تصور الكثير من الطرق بين بلاد بارق وامتدادات السهل الساحلي.

• الطُّرُقُ الْخَارِجَةُ مِنْ بِلَادِ بَارِق نَحْوَ السَّهْلِ السَّاحِلِيِّ وَبُلْدَانِهِ

1 ـ الطرق الخارجة من بلاد بارق إلى ما يحاذيها من الساحل:

- تنحدر من جنوب بلاد بارق طريق نحو منزلة حلي أو بلدة حلي، التي كانت على طريق اليمن التهامية إلى مكة، وذلك بمحاذاة وادي بقرة، ثم الانصباب مع مجرى حلي حتى قرب ساحل البحر، وهناك طريق تسير مع وادي الحمض حتى يصب في بقْرة.
- تخرج طريق من غرب بلاد بارق نحو شِعاب المَلْصة وبارق ويسران، فتمر بين

جبلي مَرْسٍ وجُوَيِّنٍ، ثم تهبط على وادي شَيْعٍ الذي يصب في حلي، وعلى سهل الرَّكْحِ في غربي الجبال، فإن تيامن سالكها ورد القوز، وإن تياسر ورد حَلْيًا.

- تخرج طريق من جنوب الشطر الشمالي من بلاد بارق، من ناحية وادي شري، نحو الغرب، فتترك جبل غراب بيسارها، ثم تنحدر مع وادي سَهُولٍ، حتى تنتهي إلى مجرى وادي يبة، وحين تكون جنوبًا غربيًا من جبل البكرتين، فإن لسالكها خيارين، فإما أن ينحدر مع وادي يبة في مسار يسمى لُكَّة أم الخرْصِ، وما يلبث إلا شيئًا يسيرًا حتى يخرج على فسحة من الأرض، فإما أن يحاذي وادي يبة نحو القوز، وإما أن يتيامن قليلاً نحو القنفذة والبلدات الواقعة في أسفل قنونى، وإما أن يختار سالك الطريق الاستمرار نحو الشمال، فلا ينحدر مع لكة أم الخرص، فيمر ببئر عشَارٍ، ثم يتجه عدلاً نحو خميس حرب وسبت الجارة، وإما أن يتياسر قليلاً ليتجه إلى قنونى السهلية.

- تتجه بعض الطرق من المنطقة بين واديي شري وخاطٍ نحو الغرب، فتأخذ وادي يبة ـ كلٌّ مسارٍ في ما يليه ـ ثم ينحرف وادي يبة نحو الغرب ثم نحو الشمال جنوبًا من البكرتين، فيأخذ سالكوها الخيارات نفسها، التي هي الاستمرار شمالاً أو الانحراف مع لكة أم الخرص.

- تخرج طريقان من شمال بلاد بارق الغربي فتسلكان في وادي يبة، فأما الشمالية منهما فتخرج مع شِعب كَرَوان[1] الجوز أحد روافد وادي يبة، ثم تتياسر قريبة من منتصفه، فتخرج في عقبة كَرَوانَ بين جبل ثُربان من الجنوب وجبل ثميدة من الشمال، ثم تنحدر الطريق على وادي شِسَعٍ، فيعترضها جبل الحازم، فإما تياسر سالكها مع مجرى وادي شسع، ليصل إلى أسافل قنونى، تاركًا خميس حرب عن يساره، وله الخيار بعد ذلك في التيامن إلى سبت الجارة والأحسبة، أو التياسر،

(1) من فوائد العلامة عاتق بن غيث البلادي ـ رحمه الله ـ ما أورده في كتابه (بين مكة واليمن)، وهو يعدد روافد وادي دوقة في الصفحة الـ (68)، حيث قال: «كَرَوان السّويدي وكَرَوان العبّادي، ولعلهما مثنى كرا». والاسمان يشابهان هذا الاسم الذي يسمى به وادٍ تحته ووادٍ آخر يوازيه من الشرق، يسمى كروان الحشرج، يصبّان متجاورين في يبة.

وإما أن يتيامن الهابط من عقبة الكروان، فيصعد مع وادي قنونى نحو الفائجة وحداب القرشة والمعقّص وتلك الناحية.

وأما الجنوبية من الطريقين، فتسلك في وادي ذَمَل، أحد روافد وادي يَبَة الكبرى، فتمر ببلدة الدَّبَر، ثم تهبط في وادي المشكّ، ثم تخرج إلى أعالي وادي مغلوث، ثم تهبط على ناحية من شسع، فتعانق الطريق الأخرى.

2 - الطرق الخارجة من بلاد بارق إلى الناحية الجنوبية من الساحل:

- طريق تتجه من وسط بلاد بارق نحو محايل، فهي إما أن تستمر بطريقة شبه سمتية، حتى تتصل بأعالي وادي عرمرم، فإما تيامن سالكها نحو القحمة وإما استمر فاتصل بوادي ريم وإما توسّط فاتصل بالحريضة. وإما أن تتياسر الطريق قليلاً لتتجه نحو رجال ألمع، من نحو أعلى وادي حلي، وبعد بلوغها رجال ألمع، تتجه يمينًا قليلاً نحو وادي ريم، الذي يصب قرب الشقيق اليوم، ولسالكها أن يتجه بعد انفراج الجبال نحو بيش، كما تتجه من رجال ألمع طريق تسلك أعلا وادي حسوة حتى يصب في وادي عِتْوَد، الذي يمر بالدرب، ويتيامن سالكه نحو بيش.

- طريق تسايرها من ناحية وادي الحمض، فتسلك قليلاً في حلي، ثم تخرج على مجزوعة فخميس البحر، وخياراتها بعد ذلك من يمينها نحو ضنكان، ثم القحمة، ثم زنيف عن يسارها.

- طريق بين هاتين الطريقين، تجعل جبل الأضحى شرقًا منها، وهي تخرج من وسط بلاد بارق، غربًا من الخط المعبد الرئيس اليوم، وتستمر حتى تتصل بوادي بقرة، وسالكها يعترض إحدى الطريقين المذكورتين آنفًا، وقد يخرج منها مسلك متياسر نحو صعبان فأعالي وادي جبال.

3 - الطرق الخارجة من بلاد بارق إلى الناحية الشمالية من الساحل:

تسلك الطرق المتجهة من بلاد بارق نحو شمالي السهل الساحلي؛ لتتجه إلى مكة، تلك المسارات التي ذكرتها بين بلدان الأصدار، ويمكن أن نتخذ طريقًا رئيسة من شمالي بلاد بارق، مارة بالبلدات والمدن التالية، على التوالي:

ثلوث عمارة، سبت شمران، المعقص، نمرة، المخواة، وليس بين هذه البلدان خيارات جيدة للتياسر ليهبط سالكها على الساحل، بغية الاتجاه نحو مكة.

- من المخواة عبر وادي الأحسبة، للتيامن نحو عشم، ثم دوقة والشاقّة. وأما الاستمرار حتى بلوغ بَرك الغماد فهو خيارٌ غير جيد؛ إذ يمكن الوصول إلى برك الغماد عن طريق سبت الجارة أو مِن دونِها.
- من المخواة إلى قلوة، فالهبوط عبر وادي دوقة على الساحل.
- من قلوة نحو أعالي وادي عُلَيْب دون الحجْرة، ثم الهبوط مع وادي عليب نحو وادي حلية فالليث، أو التيامن أكثر نحو الحبْقة فغميقة وما بعدها، ثم الاستمرار في السهل الساحلي. ولعل طريقًا أكثر اختصارًا ولكنها تمر بين الجبال، تأخذ من أعالي عُلَيب، ثم تسير مع وادي ذَرَى حين يهبط في وادي الليث، وترتفع مع الوادي ثم تخرج من بعض العقبات فتهبط على بلدة يلملم، حتى تأتي مكة من جنوبيها الشرقيِ، أو تنحرف مع وادي ملكان فتعانق طريق اليمن المعروفة.
- من الحجرة نحو الرهوة ثم الانحدار مع وادي حَلْية، ثم يتركه بيسار، فيخرج من بين جبلي المدَرة وعفَفٍ، ثم ينحرف يمينًا نحو غميقة.
- من الرهوة إلى الجائزة ثم تقطع وادي أضم قرب مصبه في وادي العرج، ثم تساير وادي العرج حتى ربوع العين، ثم تهبط على وادي سلبة، فتنحدر على سوق بني يزيد، ثم تصعد مع أعالي الليث ثم تهبط على أعالي يلملم وتنحدر معه ثم تلتف إلى مكة، ولعل هذه الطريق خيار محلي أكثر من كونها طريقًا مسلوكة.

● طَرِيقُ غَوْرِ السَّرَاةِ

من خلال ما بيّنته في الطرق الخارجة من بلاد بارق أو القادمة إليها، من ناحيتي جنوبها وشمالها، يمكننا الثقة بوجود طريق بين الطريقين النجدية والسروية وبين الطريق التهامية الساحلية، وهي وإن كانت طويلة، فإنها محجوزة بين جبال عالية لا منافذ فيها في طرفها الجنوبي، وجبال عالية ذات مسالك محلية في طرفها الشمالي.

وإني وإن كنت قد أتيت على ذكرها في ما تقدم، إلا أن ذكر منازلها - باختصار - كما هي حالها اليوم، يربط بينها؛ لتتبين صورتها أمام القارئ الكريم.

هذه الطريق تخرج من ناحية رجال ألمع فتمر بالشعبين في رجال ألمع، ثم أعالي وادي حلي.

ثم تفترق الطريق قبل محايل بنحو عشرين كيلومترًا، فتكون ذات مسارين، أحدهما يتيامن قليلًا نحو خميس مطير فثلوث المنظر، حيث يصل إلى بلاد بارق من جنوبيها الشرقي، والآخر يستمر متجهًا إلى محايل ثم إلى بلاد بارق، وله مساران يحصران جبل الأضحى بينهما.

تقطع الطريق وادي شري ثم خبت آل حَجْري في بلاد بارق، ثم وادي خاطٍ، لتصل إلى ثلوث عمارة، حيث تفترق الطريق بعدها في مسارين، يحصران جبل النبيعة بينهما، فأما الأيمن، وهو المستقيم الواسع فيتجه إلى سبت شمران، شرقًا من الطريق المعبدة الحالية، التي قُدّت لها بعض عقبات الطريق لتكون شبه مستقيمة، ثم تنقطع الطريق هناك، فلا تسير إلا مع العقبات الشاهقة إلى السراة. وأما الأيسر من المسارين؛ فهو الطريق القاصد، حيث يترك جبل العير غربًا منه، ومن خلف العير جبل ثميدة، فيسلك في وادي شعبن، ثم يخرج منه متياسرًا قليلًا قليلًا، حتى يسلك في وادي بيان، ثم ينحني معه نحو الغرب، فإذا انقطعت الجبال عن يمينه، ترك المعقص عن يساره غير بعيد، ثم بلغ نمرة.

تستمر الطريق من نمرة نحو الشمال الغربي، مخترقة وادي البطاط، حتى تخرج على المخواة، ثم تسلك وادي سقامة، تحت جبل شدا الأعلى من شرقيه، ثم تخترق أعالي وادي دوقة، حتى تبلغ قلوة، ثم تخرج منها وما تلبث إلا يسيرًا حتى تسير مع وادي الشعراء، ثم تخرج منه إلى وادي الحجْرة، حتى تبلغ الحجرة، ومن بعدها الرهوة، ثم الجائزة، ومنها تنحدر الطريق مع وادي الجائزة، ثم تلتف نحو اليمين فتبلغ أسفل أضم، عند مهبطه في وادي العَرَج، ثم تستقيم تاركة تعرجات وادي العرج عن يسارها، ثم تسلك مع أعاليه المستقيمة، حتى تبلغ ربوع العين، ومنها تخرج عبر عقبة الرياحين، فتهبط على وادي سَلِبة، حيث سوق بني يزيد.

● مَحَجَّةُ تِهَامَةَ الْعُلْيَا

أمامنا أقوال، من خلالها يمكن استقراء مسار هذه المحجة. فلنقرأ الأقوال قبل تحليلها.

قال ابن سعد في طبقاته، في كتاب رسول الله ﷺ لبارق: «وألاّ تُرعى بلادهم في

مربع ولا مصيف إلا بمسألة من بارق، ومن مرّ بهم من المسلمين في عرك أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام»[1].

وقال: «سوق حباشة وهي على ثماني مراحل من مكة طريق الجَنَد»[2].

وقال الأزرقي في (أخبار مكة): «وحُباشةُ سوقٌ للأزد، وهي في ديار الأوصام من بارق، من صدر قنونى وحلي بناحية اليمن»[3].

وقال الهمداني في (صفة جزيرة العرب) بعد أن ذكر مواضع في تهامة، منها زبيد والكدراء، والمهجم وأم جحدم: «وجميع ما ذكرناه من قرى تهامة اليمانية فإنها تنسب في دواوين الخلفاء إلى عمل الجَنَد»[4].

وقال: «والمحجة القديمة ترتفع إلى حلي العليا وتسمى حلية، وإليها ينسب أسود حلية...

ثم إلى عشم، ثم على الليث ومركوب إلى يلملم»[5].

وقال في موضع آخر: «وخبت البزواء بناحية عليب، وعليب واد بين الخبتين خبت البزواء وخبت أذن، وهو في مساقط بلاد بارق من غور السراة، وهي بقرة والملصة ويسران وذات أعشار، وثربان جبل لهم من ناحية ذات أعشار وأعلا قنونى»[6].

وقال: «وبالمهجم تفضي محجة صنعاء على وادي سَهام، وهي بعيدة إلا أنها تسلك الأمان»[7].

وفي كتاب (الطريق): «حديث الفضل بن محمد أبي سعيد الجَنَدي، أن من أراد طريق زَبيد أخذ من مكة إلى أدام...»[8].

---

(1) ابن سعد، **الطبقات الكبرى** (مصدر تقدّمَ)، ج (1)، ص (353).
(2) ابن سعد، **الطبقات الكبرى** طبعة إحياء التراث (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (8)، ص (503).
(3) الأزرقي، **أخبار مكة**، طبعة ملحس (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (1)، ص (191).
(4) الهمداني، **صفة جزيرة العرب** (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (99).
(5) الهمداني، المصدر نفسه، ص (304)
(6) **صفة جزيرة العرب**، مخطوط، جامعة الملك سعود (مصدرٌ تقدّمَ)، صحيفة (202).
(7) الهمداني (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (304).
(8) القاضي وكيع، **الطريق** (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (396).

يتلخص التحليل في أربع عشرة نقطة، هي:

- من مر ببارق من المسلمين في عرك أو جدب.
- سوق حباشة طريق الجَنَد، وهذه سوف تؤجل إلى فصل تحقيق موقع السوق.
- طريق زَبيد في حديث الجَنَدي.
- تبعية تهامة اليمن للجَنَد.
- المحجة القديمة.
- ترتفع إلى حلي العليا وتسمى حلية، وإليها ينسب أسود حلية.
- ترتفع (إلى) حلي العليا، ثم (إلى) عشم، ثم (على) الليث.
- صدر قنونى وحلي.
- ناحية ذات أعشار.
- وادي ساقين فيه محجة الحجر التهاميّة.
- وهي بعيدة إلا أنها تسلك الأمان.
- قول البكري إن طريق تهامة أحرّ هواء من الطريق النجدية وأكثر وباء.
- قول عمارة اليمني إن طريق تهامة تفترق طريقين؛ فواحدة ساحلية على البحر، وواحدة ـ وهي الجادة السلطانية ـ متوسطة، منها إلى البحر يوم أو دونه، ومنها إلى الجبل يوم أو دونه، بحسب انضمام البحر والجبل وافتراقهما عن تهامة.
- قول كثيّر المتقدم: مقيم بالمجازة من قنونى.

● أَيْنَ مَوْقِعَا الْجَنَد وَزَبِيد؟

تقع مدينة الجَنَد الأثرية نحو أيمن الشمال الشرقي من مدينة تعز اليمنية، على نحو سبعة عشر كيلومترًا منها، بينما تقع مدينة زبيد نحو الشمال الغربي من تعز، على نحو مائة كيلومتر عدلاً منها.

وبين الجَنَد وزَبيد نحو مائة وعشرة كيلومترات عدلاً، والخارج من الجَنَد إلى مكة

في طريق تهامة، ينحدر بعد حين من خروجه من الجَنَد في وادي زبيد، والسالك من زبيد إلى موقع النزول في وادي حرض يتجه نحو الشمال، مع شيء من التياسُر، ثم يصل إليه بعد أقل من مائتين وخمسين كيلومترًا. ووادي حرض يسلك من جبال اليمن الشمالية ثم يدخل إلى الأرض السعودية قرب الحدود الدولية، حتى ينتهي إلى البحر. وتلتقي في حرض طريقا صنعاء وزبيد.

كانت مدينة الجَنَد من أهم حواضر اليمن بعد صنعاء، ولذلك بيّن لنا الهمداني تبعية المدن التهامية بين جنوب تهامة وأم جحدم لأعمال الجَنَد.

• مَا الْمَعْنِيُّ بِالْمَحَجَّةِ الْقَدِيمَةِ؟

يبدو من خلال معرفة موضعين من مواضعها، من تلك الأماكن التي لم ترد ضمن منازل الطريق، وهما عشم وأعلا حلي، أنها كانت طريقًا أخرى تسلك بين الجَنَد ومكة، ولو لم يكن لها شأنها الخاص لما خُصِّص اسمها عند ذكر سوق حباشة، ولعل السبب في تركها راجع إلى أمرين: مشَقَّتِها، وظهورِ مواردَ ومنازلَ مأهولةٍ في السهل الساحلي، وربما يضاف إلى هذين ثالث ورابع وخامس، وهي أن السلوك بين الجبال مخاطرة في بعض مواضعها، فيكون فيها اللصوص أو السباع أو السيول، وأن من بين منازل الطريق بعض الأسواق الآنيّة المرتبطة بطريق الحج، وبخاصةٍ حين يتوافر فيها دواب الركوب وطعام الطريق، وآخر هذه الأمور تراجُع شأن سوق حباشة، حيث إن الطرق ليست للحج فحسب، ولكن منازلها في الحج مظنة الضبط.

• مَحَجَّةُ الْحَجْرِ التِّهَامِيَّةُ الهابِطَةُ مَعَ وَادِي سَاقَيْن

ما زالت عقبة ساقين مسلوكة للربط بين السراة وتهامة، وتساندها عقبة بَرمة التي توازيها من الشمال. وعقبة ساقين تهبط مع وادي بقرة، ثم تنحدر مع اتجاه وادي حلي إلى تهامة، غير أن الاتجاه إلى أسفل حلي لا يفيد من أراد تهامة إلا في هذه الناحية من حلي، ولذلك فإني أتصور أن المحجة حين نزولها إلى الأرض السهلة تذهب في وجهتين: فإما أن تتيامن مع بلاد بارق إلى بلدان غور السراة الشمالية، وإما أن يمضي سالكها قُدُمًا حتى موازاتها مصب وادي الحمض في بقرة، وفي ذلك الحيّز يكون

لسالكها خياران للوصول إلى بلدان تهامة، فإما أن يتيامن مع وادي الحمض نحو ذات أعشار، ومنها إلى مواضع تهامة الوسطى والشمالية، وإما أن يتياسر مع أعالي حلي، ثم يهبط على مجزوعة وقَنَا، ثم إلى مواضع تهامة الجنوبية.

إن نص الهمداني على محجة الحجر التهامية وهبوطها في ساقين، يدل على أهمية هذه الناحية من الطرق، وهذا أيضًا يساعدنا على الاقتراب من موقع سوق حباشة.

• مَا وَجْهُ الارْتِبَاطِ بَيْنَ حَلْيِ الْعُلْيَا وَبَيْنَ قَوْلِ الْمَصَادِرِ: صَدْر قَنَوْنَى وَحَلْي، وَقَوْلِهَا: نَاحِيَة ذَاتِ أَعْشَارٍ؟

يمكننا الربط بين الارتفاع إلى حلي العليا وبين عشم، بالإفادة من قول المصادر حين تطرقت إلى ذكر سوق حباشة: (صدر قنونى وحلي) و(طريق الجَنَد)، بأن هذا هو طريق الجَنَد الذي يسمى المحجة العليا، بما سوف ندرك حقيقته عند تحقيق موقع سوق حباشة إن شاء الله تعالى.

ومن يُجوِّل في تلك الناحية بين قنونى وحلي، يتبيّنْ أن صدر قنونى الذي يمر به الطريق هو من ناحية سبت الجارة، وأن صدر حليٍ هو من ناحية حليِ العليا، وسنتبيَّن مسار الطريق بين هذين الصدرين أثناء حديثنا هذا، بإذن الله تعالى.

ويمكننا أن نزيد من ثقتنا بمسار هذه المحجة بقول الهمداني: «من ناحية ذات أعشار»، بأن ذات أعشار على جادّة مشتهرة، إذا ذُكرت للسامع وعاها، وإلا فإن تحديد جبل ثربان العظيم بذات أعشار حين تُعَدُّ بئرًا أو شِعبًا ضربٌ من المغالطة.

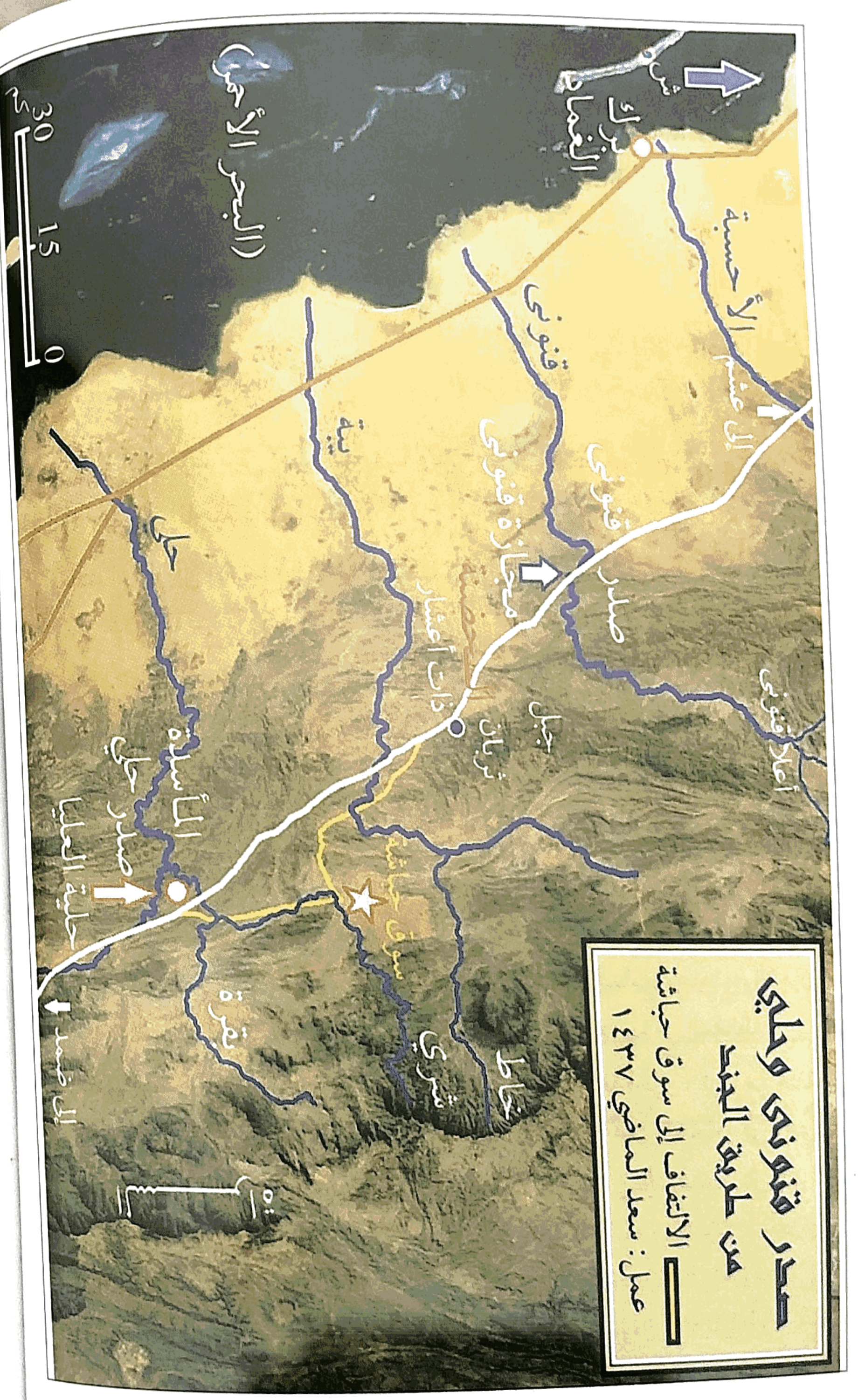
وفي كتاب النبي ﷺ من مرور المسلمين ببلاد بارق إضافة أخرى، تزيد من الثقة بوقوع بلاد بارق على طريق مشتهرة. وليس نص الهمداني على المحجة في وادي ساقين من الذاكرة ببعيد.

ويمكننا في ضوء هذه المعطيات المهمة ـ وهي قليلة ـ أن نحدد مسار طريق الجَنَد إلى مكة، ثم نحدد الطريق المؤدية إلى سوق حباشة، والتي توازي الطريق الساحلية منذ بدايتها لتسير في غور السراة، ثم تخرج على وادي مركوب جنوبي مكة، أو تنحرف قبل حلية العليا نحو اليمين مخترقةً بلاد بارق، أو صاعدة مع بعض العقبات، أو بعد بلوغها موقع سوق حباشة، لتخرج على معدن العقيق أو لتبلغ عكاظ أو لتبلغهما كليهما، معانِقةً طريق صنعاء النجدية حين تقترب من أعمال الطائف، فأقول:

● مَرَاحِلُ طَرِيقِ الْجَنَدِ إِلَى مَكَّةَ مِنْ خِلَالِ تَلْمِيحِ الْمَصَادِرِ وَمُعْطَيَاتِهَا[1]

- الجَنَد: وهي على نحو سبعة عشر كيلومترًا من تعز، في شمالِيها الشرقي.
- المرحلة الأولى، وهي مقتضَبةٌ في المصادر: أعالي وادي نخلة، على نحو ثلاثة عشر كيلومترًا جنوب غربي المذيخرة، وشمالاً غربيًا من الربوع.
- المرحلة الثانية، وهي مقتضَبةٌ في المصادر أيضًا: صدر وادي زَبيد بعد مصب سايلة عَنَّة فيه، جنوبًا غربيًا من جبل الحميمة، بين قريتي الحصَب والمبْرَز.
- زَبيد: وتبعد نحو خمسة وعشرين كيلومترًا من الساحل في شرقيه.
- المعْقِر: وتقع على نحو أحد عشر كيلومترًا من زبيد على الدرجة (351).
- الكدراء: وتقع على وادي سَهام، على نحو ستة وخمسين كيلومترًا من المعقِر على الدرجة (350)، وعلى ثلاثين كيلومترًا نحو الشرق من ساحل الحديدة، ثم تستمر هذه الطريق نحو المهجم على الدرجة (359).
- المهجم: وتسمى اليوم المنارة، وتقع شمالاً من مجرى وادي سُردُد، وهي على نحو من سبعة وخمسين كيلومترًا من الكدراء، ومطلع الشمس من الزيدية على أربعة عشر كيلومترًا منها. ثم تستمر هذه الطريق نحو الدرجة (349) نفسها،

(1) بالرجوع إلى:
1 ـ إبراهيم بن أحمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية (مرجعٌ تقدّمَ).
2 ـ خريطة الجمهورية اليمنية ذات المقياس 1: 1,250,000، خريطة سياحية، صنعاء، مصلحة المساحة، ط2، 2000 م.



خريطة رقم (1)

صدر قنونى وحلي من طريق الجَنَد.

فتدخل ضمن أرض المملكة العربية السعودية محافظة على الدرجة نفسها ـ إلى حدٍّ ما ـ حتى جازان القديمة، وهي في أعالي وادي جازان[1].

- بلحة من وادي مَوْرٍ: تبلغ المسافة بين المهجم ووادي مور أربعين كيلومترًا، ولم أتبين موقع بلحة.

ونلاحظ أن محجة صنعاء في قول القاضي وكيع تلتقي بمحجة زبيد في مور، ولكنني أراها شرقًا من هذا الموضع، بحيث تقترب من هذا المسار حتى تلتقي المحجتان في وادي حيران.

- ذو الذراعين: لم أتبين موقعها، غير أنها لن تكون بعيدة من سوق عبس في غربيها أو جنوبيها الغربي.

- الحور: لعل هذا المنزل واقع على وادي حَيْران. وأما الحسارة التي وردت في قول الهمداني، الذي سيتلو هذا، توازي هذا الموضع، بل إن الحسارة قد تكون تصحيف (الحارة) ثم تأنيثًا وإمالة عن الواو نحو الألف؛ مما يوحي بأنها على وادي حيران، وإن كنت أراها نحو الغرب من مسارنا هذا.

قال الهمداني في ذكر منازل طريق عدن، بعد أن عدّد منازل بين عدن وزبيد: «ثم إلى زبيد، ثم إلى المعقر، ثم الكدراء، ثم المهجم، وبالمهجم تفضي محجة صنعاء على وادي سهام، وهي بعيدة إلا أنها تسلك الأمان، ثم بلحة من وادي مور، ثم الحسارة، ثم العباية، ثم الشَّرجة، ثم العُرُش، ثم عثّر»[2].

وعليه، فإننا أمام أربعة مواضع، سأجتهد في الفصل بينها، وهي: النحيب في قول وكيع والخصوف في قولَيْ وكيع والهمداني، والعباية ثم الشرجة في قول الهمداني حيث ذكر محجة عدن.

قال القاضي محمد بن علي الأكوع في تعليقه على الشرجة: «كانت تقع قبالة وادي الموسّم من وادي حرض، وأخبرني أهل حرض أن سيلاً اجتحف أنقاضها، وكشف عن مسند حميري كبير»[3].

(1) محمد بن أحمد العقيلي، **مقاطعة جازان: المخلاف السليماني**، الرياض، دار اليمامة، ط 2، 1399هـ/1979 م، ص (114).
(2) الهمداني (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (304).
(3) الهمداني، المصدر نفسه، هامش ص (92).

وها قد أراحنا الأكوع من عناء البحث عن الشرجة، وعلمنا أن العباية قبلها من ناحية زبيد.

وأما النحيب ـ إن صحت قراءتها ـ فلعلها في ناحيةٍ بين وادي حرض ووادي تَعْشَر، جنوبًا من صامطة.

وأما الخصوف، فقد ذكر الهمداني أنها تشرع على جانبي وادي خُلَب، وهي بهذا تقع جنوبًا غربيًا من الحصّامة على كيلومترين منها، وأيسر الشمال من صامطة بنحو ثمانية كيلومترات. والمسافتان اللتان ذكرتهما هنا إنما سجلتهما على السمت، وقد تتغيران قليلاً إذا ما تم اكتشاف آثار الخصوف القديمة.

- الهجر: ذكر العقيلي أنها مدينة ضمد القديمة[1]، فهي بعد جازان من حيث الترتيب، وإن لم نتبين موقعها.
- حاوي: لم أتبين موقعه، غير أنه لن يكون بعيدًا من وادي بيش.
- العُرُش: بتطبيق نظام المسافات والزوايا، تكون بين واديَي الخُمس ومَقابٍ، والله أعلم.

والطريق في هذا السهل الساحلي الطويل تسلك الأمان، كما قال الهمداني. ولعل الطريق حين تبلغ الخصوف، يستمر منها مسار في الاتجاه نفسه نحو جازان القديمة وضمد، ثم تميل نحو اليسار فتتجه نحو زنيف وضنكان. ويعدل من الطريق عند الخصوف مسار آخر نحو عثّر، ومن عثّر يستمر المسار قرب الساحل حتى يفترق بعد حين في مسارين، أحدهما يساير الساحل فيمر بحمضة والبِرك حتى يخرج على حلي، والمسار الآخر يتجه نحو ضنكان، فيلتقي بالمسار الأيمن الذي مر بجازان القديمة وضمد، فيتجهان في مسار واحد نحو زنيف فضنكان فالمعقّد، ثم يخرجان على حلي.

وأما المحجة العليا، فإنها تنصرف من الطريق لتعديل مسارها، بعد مجاوزة ضمد، فتأخذ نحو اليمين قليلاً، فتقطع وادي رملان ثم وادي عِتوَد عرْضًا، ثم تترك جبل الأخدع بيمينٍ، لتسير ووادي ريم، ثم تمر بمنطقة الراحة فتحاذي وادي ريم من شرقيه

(1) العقيلي، **مقاطعة جازان** (مرجعٌ تقدّمَ)، ص (425).

تاركةً تعاريجه، ثم تسلك في شِعب عَكَنة في أعالي ريم، ثم تسلك عقبة تخرجها على شِعب النجدين، ثم تخرج منه فتهبط على شِعب قَرْضَة، ثم تستمر معه حتى يهبط في وادي رؤام فتهبط فيه، ثم تترك مجراه، فتسير في سهل غربي جبل حمضان، يفصل بينه وبين مجرى وادي حليٍ جبيلات فجر، ثم تسير شمالاً عدلاً فتسلك ثنية في طرف جبل الحقو، ثم تقطع وادي حلي غربًا من جبل الحَيلة، فتسلك أسفل وادي يَبَة من تحت جبل ميران، غربًا من محايل بنحو خمسة كيلومترات، فتلتقي بحلي مرة أخرى، ثم تسير على مقربة منه، حتى إذا ما التف حليٌ نحو الغرب، قبل هبوط وادي بقرة فيه بنحو عشرة كيلومترات، استمرت المحجة نحو أيمن الشمال الغربي، مخترقة منطقة حلية، ثم تركت جبل الصَّلَة عن يمينها، ثم قطعت وادي بقْرة، وسلكت في شِعب سَلوب صُعُدًا، ثم إذا ما انقطع في أعاليه استمرت تتقاطع مع الشعاب المنحدرة على شِعب حُمَيْرٍ، حتى تهبط في شِعب بارق، ثم في وادي يُسران، حتى يهبط في وادي يَبَةَ في شرقي جبل الملعوط، فتسير في يبة أقل من ثلاثة كيلومترات، ثم تخرج مع شِعب شِحِذّن، فتسير فيه ثم تخرج منه نحو شرفة أعشار، ثم تهبط في شِعب ذات أعشار، وتسير نحو شعب مغلوث، فتسلك بين الجبال المنطلقة من سفوح ثربان وبين جبل فقعة، فتترك موقع خميس حرب اليوم عن يسارها، ثم تخرج على بداية صدر قنونى وهي المجازة من قنونى، ثم تمر بموقع سبت الجارة اليوم، ثم تخترق أطراف جبل القامة، حتى تخرج على ناحية ثلوث وادي لومة، ثم تقطع وادي يَبْسٍ، فوادي الأحسبة قبيل تركهِ الجبال، ثم وادي ناوان، حتى تصل إلى عشمٍ، في الشعاب المنحدرة في وادي قرماء، ثم يخرج من عشم فيمر بوادي دوقة بُعيد خروجه من بين الجبال، ثم يترك جبال نخرة بيمين، والتي ينحدر منها وادي حِفَارٍ، الذي نُسب إليه خبتُ أُذُنٍ.

ثم إن المسار يخترق خبتي القوعاء وحبوة وهي البزواء قاطعًا واديي عُلَيب وحليَة، ثم يمر بأسافل أصدار وادي الليث قرب موقع غُميقة اليوم، التي لا أدري ما إن كان اسمها هذا قديمًا!

ثم إنه يلتقي بالمحجة بعدئذ، فتسلك المحجة بين جبل الأبيض بيمينها وجبل دَبَرَة بيسارها، فتمر بأعالي وادي مركوب، ثم تسلك في شِعب الرُّبَى في أعالي وادي سعيًا

بين جبلي عَفَفٍ وشرحاف، ثم في شِعب رَيْنٍ، وهو رافد من روافد سعيًا، ثم تخرج على وادي يلملم، ثم تتركه لتسير في وادي حَذَثَةَ، ثم تسير في أرض بَراحٍ حتى تصل إلى وادي أدامٍ وآباره، ثم تخرج على وادي البيضاء وآباره، ثم تخرج على ملكان فتترك جبل كِسَابٍ عن يمينها، ثم تقطع نَعمان الأراك وهو وادي عُرنة، فتترك جبل حبشي عن يمينها حتى تدخل مكة المشرفة.

وأما مسار المحجة الذي يمضي قُدُمًا إلى سوق حباشة، فإن له أحد خيارين، فإما أن يترك جبل الصلة عن يساره، وإما أن ينفك عن المسار الأول قبل هبوط وادي الريش في وادي حلي، ليأخذ في أعالي شِعب قَدري، ثم يهبط على أعالي شِعب حُمَير الجنوبي غربًا من جبل مغيمر، فيقطع وادي بَقرة، ثم بعض روافد وادي ثُعيّب الغربي قبل هبوطه في وادي الحمض، ثم يساير وادي الحمض في غربي بلاد بارق، فيمر بطرف جبل قتَرْوي، أو يخترق دارةً في طرفه، بينه وبين جبل جخيدب، هي مَسِيدُ المُهلَّل، فيمر بقرن مَخلد، ويخترق خبت آل حَجري، حتى يصل إلى وجهته في العقيق أو عكاظ، عبر طرق ذكرتُها في بدايات هذا الفصل.

لكن سالك هذا المسار حين ينتهي من المرور بموقع سوق حباشة، وهو يريد مكة، فإنه يعود نحو الغرب ليمر بجانب الغار المكتَّب، ثم يقطع وادي هيامٍ عرضًا، ثم يسلك في وادي سَهُولٍ، ثم يلتفت فيه نحو اليمين، ليصل إلى وادي يبة، فإما أن ينزل مع لكّة أم الخُرص، وإما أن يستمر غير بعيد من سفح البكرتين الغربي، حتى يصل إلى شرفة أعشار في الحالتين كلتيهما، فيسلك المسار الذي ذكرتُهُ آنفًا، حتى يعانق الطريق، فيكون بمروره بسوق حباشة قد زاد في سيره سبعة كيلومترات عن المسار الأول.

● أَيْنَ حَلْيَةُ الْعُلْيَا ذَاتُ الأُسُودِ؟

قال الباحث الكريم علي بن إبراهيم الحربي - وفقه الله - في كتابه عن منطقة عسير من سلسلة المعجم الجغرافي: «حِلْيَة، بكسر الحاء وإسكان اللام فباء مفتوحة فهاء: منطقة في وادي حلي غرب بلاد ربيعة الطحاحين، تشمل الآن المأسدة وحبيل مليحة».

وقد أفادني الأخ الكريم عبد الله بن محمد الفقيه البارقي، بأن الطريق حين تنزل عبر وادي الرَّيْش نحو الغرب، بادئةً من عين آل دُرَيْبٍ ـ وهي في أقصى شمال محايل من ما يلي بلاد بارق ـ تسلك رهوةً بين جبلَيْ الأَهْيَد (لَهْيَد) وبهلة، فتصل إلى أرض في غربيّ الأَهْيد، تسمى معْمل آل خُلَيْفٍ، أرض سهلة يجري في غربيها وادي حلي، وحين يساير المسافر واديَ حليٍ نحو الشمال، فإنه ما يلبث إلا قليلاً حتى يصل إلى أرض الطحاحين، فيسلك فيها، ثم ينحني حليٌ نحو الغرب، فيتركه ليمر بقرية زعبان للطحاحين، ثم يعترضه جبل الصَّلّة، ثم مجرى وادي بقرة. وبسؤاله بعض كبار السّنّ في تلك الناحية أفادوه بأن الطريق تسلك نحو الملصة فيبة حتى تخرج على عِشارٍ، أو تنحدر مع وادي يبة نحو الساحل.

ومنطقة حلية التي ذكرها علي الحربي، هي حيث تنحصر الأرض بين منحنى حليٍ ومصب بقرة فيه، والمأسدة في غربي وادي غرغرة، الذي يصب في حلي أسفل من مصب بقرة فيه.

• لِمَ اخْتَرْتُ هَذِهِ الطَّرِيقَ؟

لو تبيّنّا الطرق المفترقة من السهل الساحلي بين ضمد وبيض، حيث رأيت إمكان الاتجاه من ضمد أو من بيش نحو مسار المحجة العليا، لرأيناها محصورةً في ثلاثة مسارات:

- المسار الأيسر، وهو المؤدي إلى ضنكان، وهذا ليس مسار المحجة العليا، دونما شك.
- المسار الأيمن، وهو الذي اخترته، وبينه وبين المسار الأيسر في بداية كل منهما نحو خمسة وثلاثين كيلومترا.
- المسار الأوسط، وهو عن يمين مسار ضنكان بنحو عشرة كيلومترات، وعن يسار مسار وادي ريم بنحو خمسة وعشرين كيلومترًا.

والمساران الأيمن والأوسط يتباعدان حتى إذا ما دخل الأيمن منهما بين الجبال، يكون البُعد بينهما نحو أربعة عشر كيلومترًا.

إلى هنا فإنه يتبادر إلى ذهن القارئ إمكانية السير في أحد المسارين. وهذا صحيح، غير أن من يرسم الطرق يختار مرورها بالمواضع ذات الأهمية الخاصة، واختصارها ـ قدر الإمكان ـ وأمنَها، وهو الأهم، فكيف بطريق آمنة مختصرة كهذه!

لكن المسار الأوسط يبدأ قريبًا من وادي عرمرم، ثم يميل نحو اليسار شيئًا فشيئًا، حتى يهبط في وادي قنا، ثم يمر بمجزوعة، ثم يتجه نحو الشمال، ليعانق أعالي حلي. وهذا مسار لا يختاره سالك الطريق التهامية من جنوبها نحو شمالها؛ لطوله، ولكنه خيار محلي.

• مَاذَا تَعْنِي حُرُوفُ الْجَرِّ فِي الْقَوْلِ: «تَرْتَفِعُ (إلى) حَلْيَةَ الْعُلْيَا، ثُمَّ (إلى) عَشْمٍ، ثُمَّ (عَلَى) اللِّيثِ»؟

إن المحجة القديمة ترتفع من مسار الطريق التهامية المسلوكة، التي أكثر مصنِّفو المصادر من ذكرها، إلى مسار أعلى منه، ولا يكون ذلك إلا بالانتحاء نحو أصدار السراة. فهذا معنى الارتفاع إلى حلية العليا.

ثم إن المحجة تتجه إلى عشم، استمرارًا لمسارها القديم، وعشمٌ في أسفل الأصدار، تتجه إليها المحجة؛ لأنها أقصر الطرق نحو مكة لمن مر بحلي العليا، ثم إن لنا حق الاهتداء بقول عمارة اليمني، حين حدد الجادة السلطانية في طريق تهامة من عدن إلى مكة، وأنها تبتعد عن البحر نحو يومٍ، إذا افترق البحر والجبل، وتعزيز ذلك بقول البكري إن طريق تهامة أحرّ هواء من طريق صنعاء إلى نجد وأكثر وباء.

إن مدينة عشم كانت حتى عصر الهمداني ذات قيمة إقليمية تجارية وإدارية، ولكنها لم تعُدْ كذلك في عصر عمارة اليمني، فعادت الطريق نحو الساحل، مكتفية بمنازله، وكان لانقطاع نشاط سوق حباشة أثر في التحول عن تلك الطريق، ومن يدري، فلعل الأمن لم يكن مبسوطًا في غير طريق الساحل!

● مَا فَائِدَةُ مَعْرِفَةِ دَفْنِ خَنْدَق الْأَسَدِيِّ فِي الْمَجَازَةِ مِنْ قَنَوْنَى؟

قد يكون لبيت كثيّر في رثاء صاحبه خندق إسهام كبير في تضليل الباحثين عن سوق حباشة؛ إذ جعلوه دليلاً قطعيًا على وجود سوق حباشة في قنونى. ولكن الأمر ليس كذلك؛ فلنقرأ قول ابن سيده في (المحكم) عن المجازة. قال: «المجازة: الطريق إذا قطعت من أحد جانبيه إلى الآخر. والمجازة: الطريق في السبخة»، وأضيف أن المجازة هي الطريق في مخاضة الوادي أو النهر، مثلما هي في السبخة.

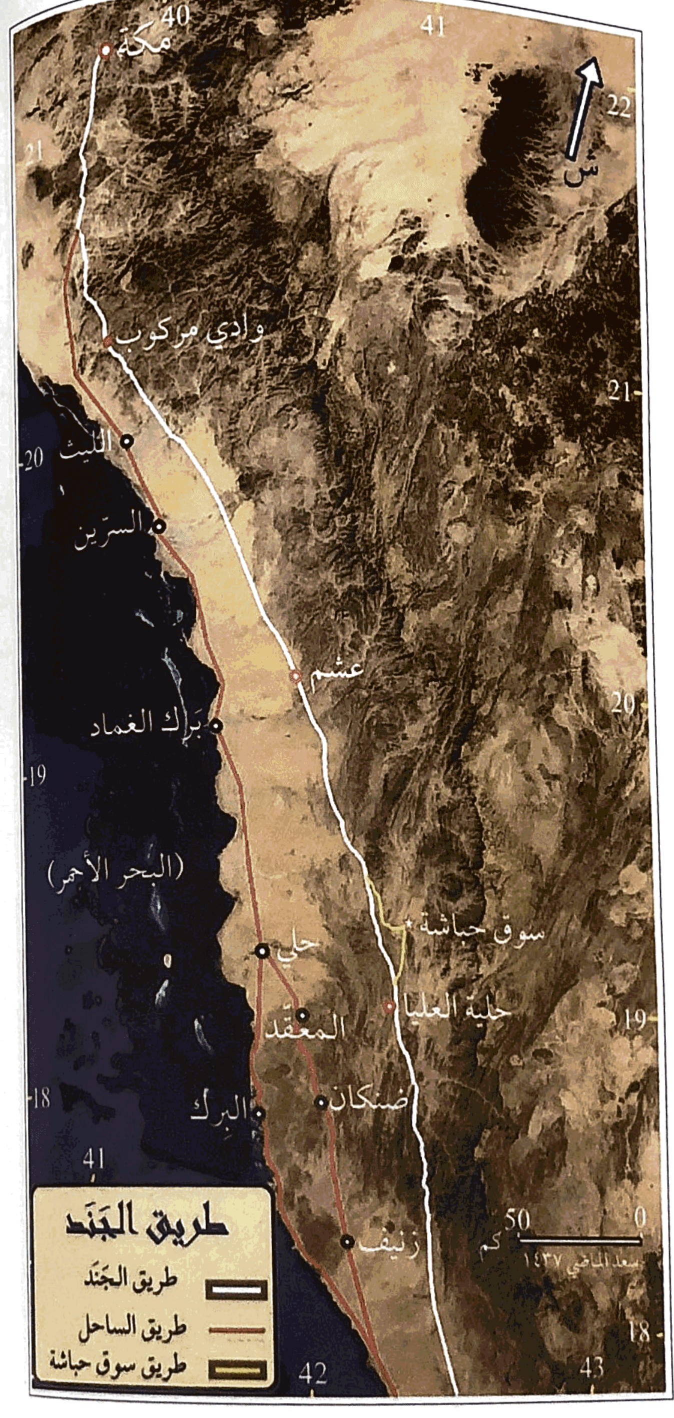
هَبْ أن لقنونَى مجازتين في أعلاها وصدرها، سوى مجازات أخرى لا تعنينا في أسفلها، فإن أعلاها لا يُسمَّى قنونَى حتى يهبط عن مسامتة طريق الأصدار في العرضيتين، فسقط هذا الرأي، والمجازة التي في صدرها، هي التي سبق أن حددتها من ناحية سبت الجارة، وهي طريق لا بد لمن يسلك في تلك الناحية من أن يقطعها، ودفن خندق فيها يرجع - في رأيي - إلى سبب ذكرته في فصل تحقيق موقع سوق حباشة.

خريطة رقم (2)

طريق الجَنَد (القسم الجنوبي).

الفصل الخامس

رِحَلاتُ الْبَحْثِ الْمَيْدانِيَّةُ



خريطة رقم (3)

طريق الجنَد (القسم الشمالي).

لا جدل في أن السير في الأرض، والوقوف على الأمكنة التي يُتحرى فيها موقعُ موضعٍ ما، هما الخطوتان الأوليان للتصوُّر الصحيح، الذي ينطلق منه التحقيق.

ومع ظهور خرائط دقيقة ذات أسماء واضحة، وخرائط مصوّرة بالأقمار الاصطناعية، فإن الاطّلاع عليها والتأمل فيها قبل الرحلات الميدانية وبعدها، مراحل في جَدَدِ العمل لا بُدَّ منها؛ فبها يرسخ التصور، وعليها تكون القياسات الدقيقة، والتصوُّر النهائي لمنطقة البحث.

وقد تيممتُ في رحلاتٍ خمسٍ بلادَ بارق وما حولها، متحرِّيًا فيها عن سوق حباشة، ثم أتبعتها بسادسة فسابعة؛ أعدت فيهما تصوير بعض الأماكن وزدت في تأمّلها، وكانت أولى هذه الرحلات بسبب تحقيقي كتاب لغدة الأصفهاني، المعروف عند القراء باسم (بلاد العرب)، على مخطوطتين جديدتين، لم يطّلع عليهما الشيخ حمد الجاسر أيام إخراج كتابه سنة (1388) الهجرية، ثم إني حين زرت ناحية بارق في الرحلة الأولى، بدا لي أن أخص سوق حباشة بتحقيق مستقل؛ ذلك لأن الخوض فيها كان طويلاً، دونما وصول إلى الحقيقة أو اقتراب من ساحتها.

وعلى ضوء هذه الرحلات البحثية، أمكنني ـ بفضل الله ـ تحري موقع سوق حباشة، غير أني سأسجل هذه الرحلات السبع؛ ليطّلع عليها القارئ الكريم، قبل الشروع في عرض تحقيق سوق حُباشة.

● الرِّحْلَةُ المَيْدَانِيَّةُ الأُولَى

❖ أول أيام الرحلة: السبت 20 من ذي القعدة سنة 1433هـ، وقد وافَق 6 من تشرين الأول (أكتوبر) سنة 2012م:

كنت انطلقت من الدوادمي صباح هذا اليوم؛ لبدء رحلة البحث الحجازية الجنوبية لكتاب أبي عليٍّ لغدة الأصفهاني.

وأكتفي من يوميات الرحلة بما له علاقة بكتابنا هذا.

❖ ثالث أيام الرحلة: الاثنين 22 من ذي القعدة سنة 1433هـ:

خرجت من مكة سالكًا طريق الليث المعبدة، وكان جبل سِطاع العظيم عن يساري، وكأنما فقدتُ شيئًا كبيرًا؛ إذ لم يهيَّأْ لي سلوك مسار أبي دهبل الجمحي على ناقته الشديدة (العجاجة) إلى بَرك الغماد؛ حيث كان الجمحي قد سلك طريق اليمن من مكة، متجهًا إلى يلملم. والجُمَحيّ شاعر عاش في بدايات عهد الدولة الأموية.

كان عن يميني جبل الحامِ، وهو حرة مستطيلة غير مرتفعة، سفا عليها الرمل في بقعٍ متفرقة من جوانبها، وعن يساري الأبرق، وهو كاسمه أبرق مرتفع.

وما لبثت غير زُمينٍ يسير، حتى أصبحت شامة عن يميني، بعيدًا من الطريق، وهي جبيلات سود ركب الرمل بعض جوانبها.

ثم جعلت الطريق طفيلاً عن يمينها، وهو حرة طويلة مرتفعة، يبرز فيها جبل مرتفع، وينحدر قليلاً قليلا نحو اليسار، بينما ينحدر بتدرُّج أقلّ نحو اليمين، وأعني باليسار ما كان في ناظريَّ ـ وَفق اتجاهي ـ وهو الجنوب. وإلى جانب هذه الحرة تقع قرية طَفيل.

ثم كانت عن يساري برقان أم ضُروعٍ، وهي كثيرة غير مرتفعة، ثم تلتها جبال السُّودة وفخذاء، وكلها جبال قد ركبها الرَّمل، وبينها تتجه طريق معبدة نحو السعدية.

ثم قطعت وادي يلملم، ومررت بميقات السعدية من قُربٍ، كي أطّلع على توسعته الجديدة وتحسينه.

قطعت خبت الغُصن، وهو سهل ليس مستويًا بوجهٍ عامٍّ، ينتهي عند وادي سَعْيَا.

ثم إن الجوّ اغبرَّ، بحيث لا أتبين المواضع البعيدة.

كانت الأرض بين واديَي سعيا ومركوب متموجة، ذات ارتفاع وانخفاض، وفي أسفل مركوبٍ أشجار المرخ والأراك، وأشجار شوكية كالسَّلَم غير أنها صغيرة، كما يلحظ السائر في الطريق بعض نخيل الدَّوم المتفرقة.

كان جبل نُقْعٍ شرقي الطريق غير بعيد، أسود ضخم مرتفع، رقشت أسافله الرمال، وفي شماليّه جبل أبي رواث، وأظنه هضبة، غير أن الرؤية ضعيفة.

مررت بمدينة اللِّيث، التي يخترقها وادي الليث الذي ذكره أبو دهبل، وهي في غنًى عن التعريف بها. ومررت بعدئذ بالوسقة، وهي بلدة كبيرة جدًا، وتعج بالناس.

كنت أسابق الشمس حين مررت بواديَي الشاقتين الشامية واليمانية، وهما واديا حَلْيَةَ وعُلْيَب الواسعان، وقد ذكر أبو دهبل وادي عُلْيب في ميميته.

وفي خبت حِفَارٍ الواسع، مجرى وادي حفار، الذي قامت بجانبه بلدة كبيرة جدًّا تسمى باسمه.

ثم قطعت وادي دَوْقة، الذي ذكره الجمحي، ولمّا يخيِّم الظلام، فلم أرَ له جانبين بيّنين.

وفي طرف دوقة بلدة تسمى المسيلم، جاوزتها إلى وادي قرماء، مخترقًا خبتًا يسمى الدوايا.

وصلت إلى المظيلف، وكنت أعاني آلامًا في أسفل الظهر وفي الرجلين، فانتهيت إلى مستوصفٍ أهليٍّ، فكانت نتيجة التحليل أن لديّ زيادة في الأملاح، والحمد لله رب العالمين.

كنتُ بين خيارين ثقيلين للمبيت، فإما حَرّ السهل الساحلي، وإما برودة الجبال، والتي قد تنزل إليّ فيها القرود، فاستأجرت غرفة بين المظيلف وناوان، فنمت نومًا هانئًا، وخيرًا أراد الله لي.

❖ رابع أيام الرحلة: الثلاثاء 23 من ذي القعدة سنة 1433هـ

هيأتُ قهوتي واحتسيت منها ما شاء الله لي، ثم انطلقت إلى وادي الأحسبة، الذي

وقفت عنده ناقة أبي دهبل الجمحي في القرن الأول الهجري، وسماه في قصيدته وادِيَ البَرْك، وقد رأيت في أوساط هذا الوادي مواضع لا يبلغها إلا السيل الجارف، وقد قامت على جانبه الأيمن بلدة الأحسبة.

جوّلتُ في أسفل الأحسبة، ومررت بسياجٍ حول أثر في ضاحية عُقرة، لا يمكن الجزم بأنه من آثار بَرك الغماد؛ لأنها مرتفعةٌ عن الساحل أميالاً، وقد مررت ببلدة عُذيبة، حيث ولَجتُ في مبنى ثانوية أم القرى ومتوسطة الأحسبة، فالتقيت مديرهما الأخ الأستاذ ذاكر بن أحمد العبدلي، وصحِبْته على سيارته إلى الساحل، والمسمى اليعاقيب، حيث ينتهي وادي الأحسبة إلى مكان يمتد من خط ساحل البحر نحو الداخل أربعة كيلومترات، ولا يرتفع سوى مترين؛ مما يجعله بَرْكًا، ولا إخال الغماد في هذا الموضع إلا جمعًا لـ (غامدةٍ) وهي البئر، جمعًا على غير القياسِ.

وجاء في (الشوارد) للصغاني[1] ـ رحمه الله ـ: «الغامدة: البئر المندفنة». وفي (تاج العروس): «رَكِيٌّ غامدٌ: ماؤه مغطًّى بالتراب»، وفيه عن الأصمعي: «غَمَدَتِ البِئْرُ غَمْدًا: إذا كَثُرَ ماؤها». وهنا يمكن أن يصح القول بأن أسفل الوادي في هذا المكان الواسع، يدفن الركيّ، أو إن الركيَّ فيه يكثر ماؤها. ولم أرَ لاشتقاق (غ م د) في غير الركيّ وجهًا للاستدلال به في هذا الموضع.

وقد رأينا مرافئ القوارب قبل نقل مظاهر الحياة البحرية البشرية إلى القنفذة.

ورأيت تلالاً من القواقع لا يتبيّنها إلا من كان قريبًا منها.

ورأيت إهاب سمكة انتزعها مصطادوها من وسطه، وذلك الإهاب مستدير يزيد عن ثلاثة أشبارٍ، فأفادني الأخ ذاكر أن تلك السمكة تسمى الرِّبِّيسةَ، وهي لا تدخل إلى عمق البحر إلا إذا آنست خطرًا، وفي طرف ذيلها شوكة لو أنها مست رجل الصائد لأعطبتها، ولا تصاد الرّبِّيسة إلا بالرمح، وهي تضرب تراب البحر فتكدر الماء؛ لتخفى عن أعين الصيادين، وما تلبث إلاّ ثواني حتى تكون قد ابتعدت إلى حيث تأمن، فسبحانَ اللهِ الذي أعطَى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمّ هَدَى.

(1) الحسن بن محمد الصغاني، **الشوارد**، تحقيق مصطفى حجازي، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ط1، 1403هـ/ 1983م، ص (164).



(1) جانب من تلٍّ من القواقع في شاطئ بَرك الغماد في أسفل وادي الأحسبة.

ونبتُ تلك الناحية السُّوَّادُ، وفيه حمض الإبل، وأما نباتها ذو الظل فقد اختفى منذ سنوات، وطغى في الأرض نوع أخضر تسحب جذوره الماء، ولا ظل فيه ولا خير.

ويمر الدربُ الساحليُّ القديمُ غير بعيد من الشاطئ، أخبرني ذاكر أن جادّته ما زالت بيّنة.

لقد اعتذرت قبل هذا وبعده عن ضيافة ذاكر، واعدًا إياه بزيارة في ما بعد، فجزاه الله خيرًا.

• دَقَائِقُ مَعَ أَبِي دَهْبَلَ الْجُمَحِيِّ وَمِيمِيَّتِهِ[1]

لتحقق معرفة برك الغماد، أُورِدُ ما سجله أبو عمروٍ الشيباني ـ رحمه الله ـ في روايتِهِ (ديوانَ أبي دهبلٍ الجُمَحيّ) من قصيدة أبي دهبل في ناقته العجاجة، التي جعل من سَيرها قصة من قصص الخيال العلمي آنذاك.

(1) نالت هذه الميمية عناية دكتورين جليلين، هما:
ـ د. عبد الله بن محمد أبو داهش، في: مع أبي دهبل الجمحي في رحلته الشعرية بين مكة المكرمة والبرك، **مجلة الفيصل**، العدد (215)، جمادى الأولى 1415 هـ. وهي دراسة أدبية لم تهتم كثيرًا بتحديد المواضع في القصيدة.
ـ أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي، في: مع أبي دهبل الجمحي في ميميته بين مكة المكرمة والبِرك، **كتاب الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية**، جامعة الملك سعود، العدد الرابع، 1424هـ/ 2003م، وقد أحاط الدكتور بالمواضع البلدانية في الميمية، غير أنه جعل وادي البَرك في موقع البِرك اليوم، وهو ما لا يوافق مسيرة القصيدة ولا موقع بَرك الغماد الصحيح.

وها هي قصيدة أبي دهبل:

أَلاَ عَلِقَ الْقَلْبُ الْمُتَيَّمُ كَلْثَمَا   لِجَاجًا وَلَمْ يَلْزَمْ مِنَ الْحُبِّ مَلْزَمَا
خَرَجْتُ بِهَا مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ بَعْدَمَا   أَصَاتَ الْمُنَادِي لِلصَّلاةِ وَأَعْتَمَا
فَمَا نَامَ مِنْ رَاعٍ وَلاَ ارْتَدَّ سَامِرٌ   مِنَ الْحَيِّ حَتَّى جَاوَزَتْ بِي يَلَمْلَمَا
وَمَرَّتْ بِبَطْنِ اللِّيثِ تَهْوِي كَأَنَّمَا   تُبَادِرُ بِالْإِصْبَاحِ نَهْبًا مُقَسَّمَا
أَجَازَتْ عَلَى الْبَزْوَاءِ وَاللَّيْلُ كَاسِرٌ   جَنَاحَيْنِ بِالْبَزْوَاءِ وَرْدًا وَأَدْهَمَا
فَمَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّى تَبَيَّنَتْ   بِعُلَيْبَ نَخْلاً مُشْرِفًا وَمُخَيَّمَا
وَمَرَّتْ عَلَى أَشْطَانِ [دَوْقَةَ] بِالضُّحَى   فَمَا خَزَرَتْ لِلْمَاءِ عَيْنًا وَلاَ فَمَا
وَمَا شَرِبَتْ حَتَّى ثَنَيْتُ زِمَامَهَا   وَخِفْتُ عَلَيْهَا أَنْ تُحزَ وَتُكْلَمَا
فَقُلْتُ لها قَدْ تِعْتِ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ   وَأَصْبَحَ وَادِي الْبَرْكِ غَيْثًا مُدَيَّمَا[1]

ومعظم المواضع المذكورة في الأبيات معروفة بأسمائها، وقد وردت دوقة في المصادر جميعها باسم (دومة)، فصححتها.

وقد كان ديدنَ أبي دهبل اختصارُ اسم برك الغماد وتجريده من الإضافة، فقال من قصيدة أخرى، ذكر فيها جازان وسهامًا وسُردُد، وهذه رواية (الأغاني):

سَقَى اللهُ جَازَانًا فَمَنْ حَلَّ وَلْيَهُ   فَكُلَّ فَسِيلٍ[2] مِنْ سَهَامٍ وَسُرْدُدِ
وَمَحْصُولَهُ الدَّارَ الَّتِي خَيَّمَتْ بِهَا   سَقَاهَا فَأَرْوَى كُلَّ رَبْعٍ وَفَدْفَدِ
فَأَنْتِ الَّتِي كَلَّفْتِنِي الْبَرْكَ شَاتِيًا   وَأَوْرَدْتِنِيهِ فَانْظُرِي أَيَّ مَوْرِدِ
فَوَا نَدَمِي أَنْ لَمْ أَعُجْ إِذْ تَقُولُ لِي   تَقَدَّمْ فَشَيِّعْنَا إِلَى ضَحْوَةِ الْغَدِ
تَكُنْ سَكَنًا أَوْ تَقْدُرِ الْعَيْنُ أَنَّهَا   سَتَبْكِي مِرَارًا فَاسْلُ مِنْ بَعْدُ وَاحْمَدِ
فَأَصْبَحْتُ مِن مَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا   سِوَى ذِكْرِهَا كَالْقَابِضِ الْمَاءَ بِالْيَدِ
لَعَلَّكَ أَنْ تَلْقَى مُحِبًّا فَتَشْتَفِي   بِرُؤْيَةِ رِيمٍ بَضَّةِ الْمُتَجَرَّدِ

(1) أبو عمرو الشيباني، **ديوان أبي دهبل الجمحي**، عبد العظيم عبد المحسن، النجف، مطبعة القضاء، 1392هـ/ 1972م، ص (106 ـ 109).
(2) في (حذف من نسب قريش لمؤرج السدوسي، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط2، 1396هـ/ 1976م): مَسيل.

بِلادُ الْعِدَا لَمْ تَأْتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا   بِهَا هَمُّ نَفْسِي مِنْ تَهَامٍ وَمُنْجِدِ
وَمَا جَعَلَتْ مَا بَيْنَ مَكَّةَ نَاقَتِي   إِلَى الْبَرْكِ إِلاَّ نَوْمَةَ الْمُتَهَجِّدِ
وَكَانَتْ قُبَيْلَ الصُّبْحِ تَنْبِذُ رَحْلَهَا   [بِدَوْقَةَ][1] مِنْ لَغْطِ الْقَطَا الْمُتَبَدِّدِ

تذكر المصادر أن الخليفة سليمان بن عبد الملك ـ رحمه الله ـ أقطع أبا دهبل جازان، وليس غريبًا أن يذكرها وما خلفها في شعره، غير أنه ذكر البرك في البيت الثالث من القصيدة، فأصبح الذهن متجهًا إلى البرك المعروفة اليوم، والتي لا شأن لها بجازان ولا بسهام وسردد، فإن بينها وبين جازان أربع مراحل طويلة، ومن يقرأ البيت التاسع، يرَ أبا دهبل قد اعتاد اختصار اسم البرك وتجريده من الإضافة إلى الغماد، وهذا البيت يفسره ما بعده، فإن نائمًا في ليل الشتاء بعد أن أخذ من التهجد نصيبًا، سيقوم بعد سويعات تزيد عن السبع، فيكون أبو دهبل قد قطع ما بين مكة وبرك الغماد خلال نوم ذلك المتهجد، وقبيل استيقاظه لصلاة الفجر كانت ناقة الجمحي قد جاوزت دوقة إلى برك الغماد، وهذا لا يتحقق إلا فوق السيارات في هذا العصر!

ولمعرفة البزواء، فقد قال الهمداني في (صفة جزيرة العرب): «وخبت البزواء بناحية عُليب، وعُلَيب وادٍ بين الخبْتين: خبت البزواء وخبت أُذُنٍ، وهو في مساقط بلاد بارق من غور السراة». فالبزواء: خبت يسمى اليوم حِبْوَة، وخبت أذن الذي ذكره الهمداني يسمى اليوم خبت حِفَارٍ، نسبةً إلى أكبر أوديته، وإن كان مائلاً نحو الشمال الغربي عن مساقط بلاد بارق. ووادي البَرْك هو وادي الأحسبة، ولكنه لا يدخل في الشعر إلا مسهّل الهمز، أو مجردًا، ويدخل في قوافي الرجز، وذكر الشاعر وادي البَرْك، لأنه لا يريد إلا الوادي لا برك الغماد.

أما المسافة التي زعم الجمحيُّ أنه قطعها[2]، فتبلغ مائتين وخمسة وسبعين كيلومترًا أو مِائةً وخمسينَ ميلاً، على طريق اليمن من مكة، ومعدل سرعته نحو ستّة عشر كيلومترًا في الساعة، ولعل الارتباط بين المواضع والتناسب بين المسافات، يجعل

(1) ذكر وادي دوقة هنا - وهو جار برك الغماد يعزز معرفة مراده في قصيدته الأخرى، التي تقدمت.
(2) لم يكن أبو دهبل وحده من سَبَح في الخَيال، فإن معاصرَهُ الشماخ بن ضرار الغطفاني يقول واصفًا ناقته:

سَرَتْ مِنْ أَعَالِي رَحْرَحَانَ فَأَصْبَحَتْ   بِفَيْدَ وَبَاقِي لَيْلِهَا مَا تَحَسَّرَا
وَرَاحَتْ رَوَاحًا مِنْ زَرُودَ فَنَازَعَتْ   زُبَالَةَ جِلْبَابًا مِنَ اللَّيْلِ أَخْضَرَا

ينظر (**ديوان الشماخ**) لاستكمال المواضع.

ذلك المسيرَ الخارقَ العادةَ في الشتاء، ذي الليل الطويل، وهو ما أخذت به في الجدول أدناه، ولعل مساره أخذ ناحيةً بين خط الساحل والمرتفعات، ليكون أقصر، وأبعد عن الوحل والممالح والرمال المتكدسة.

- **مسار ناقة أبي دهبل الجمحي بين مكة وبرك الغماد (بالكيلومترات)**

الموضع	المسافة (كيلومتر)		الزمن (ساعة)	السرعة (كلم/ ساعة)	زمن الوصول التقريبي	تعليق
	مفردة	تراكمية				
بطن مكة	إلى	00	00	20 ـ 18		انطلق نحو الساعة 07:00م
يلملم	90	90	4 :30	17 ـ 16	30: 11م	
بطن الليث	70	160	4 :00	15	30: 03 ص	
البزواء	30	190	2 :00	15 ـ 14	30: 05 ص	ناحية واسعة
عُلْيَب	25	215	2 :00	14 ـ 13	30: 07 ص	تبيّنَ نخلَه قبل 8 كلم منها أو أزيد
دوقة	35	250	2 :30	13 ـ 12	00: 10 ص	
وادي البَرك	25	275	2 :00	00	00: 12 م	وادي الأحسبة / قبل الزوال

ومن طبيعة الشتاء ألا يختص مطره بما بعد الزوال كالصيف، وهذا ما جعل أبا دهبل يرى الغيث قد جاد وادي الأحسبة منذ الصباح قبل وصوله إليه، وكأني به قد عَدَّ سيل الوادي الذي جعله لا يجتاز الأحسبة رحمةً من الله به وبناقته، ليريحها من عناء السفر، ولو لسويعات.

ولعل بَرك الغماد تشمل كل الأنحاء المزروعة والمسكونة في أسفل وادي الأحسبة، المرتفعة قليلاً عن ساحل البحر، ولعل أفضل موقع للسكنَى، ما كان من شماليّ عذيبة الشرقي. ولنا في قول البكري حين وصف حليًا والسّرّين بأن بناءهما من الخشب والحشيش، ما يجعلنا نطمئن إلى ذهاب أبنية بَرك الغماد على مدى قرونٍ، وأن ما وجده شيخنا حسن الفقيه في السّرّين من آثار حجرية كانت إلى جانب ما ذكره

البكري من ما ضاع من شواهد بنائها، أو أن معظمها مساكن ظهرت في أعصُر متأخرة عن ذلك الزمن.

وأما مرفأ بَرك الغماد، فإن أفضل مواضعه أن يكون في جنوبي الرأس الرملي الممتد في البحر، جنوبًا من مصب وادي الأحسبة بميلين، حيث توجد بعض الجزر المرجانية الصغيرة التي تبرز في حالة الجَزْرِ، والتي قد تخفف من الأمواج المنتهية إلى الشاطئ، وإن نَنْسَ فلن ننسى جزيرة ثَرَاء المرجانية المعترضة أمام الشاطئ، والممتدة بين الشمال والجنوب المتياسرَين، نحوًا من عشرين كيلومترًا.

ذهبت إلى القنفذة، فرأيت مدينة نموذجية ليست كما عهدتُها سنة (1420) الهجرية، فقد زادت نحو ثلاثة أمثال ما كانت عليه، وقد جمّلت بلديتُها المسار الذي يوازي خط ساحل البحر[1].

مررت بإدارة التعليم، فكان فألاً حسنًا وحظًّا طيِّبًا حين التقيت الموجِّهَيْن التربويَّين: أحمد بن حماد العبدلي وحسن بن محمد الفقيه، ثم الدكتور علي بن أحمد الشَّيخيّ مساعد مدير التعليم للشؤون المدرسية، فأما الثلاثة جميعهم فقد اعتذرت عن قبول دعوتهم وأنا مستحيٍ ألا ألبّي دعوة أولي الفضل، وأما الأخ حسن الفقيه فأخبرني أن الشيخ حسن بن إبراهيم الفقيه قد فاجأه جلطتان، فأمسى الكلام في لسانه عسيرًا، فأسأل الله له الشفاء والأجر[2]. وأما الأخ علي الشيخي فأخبرني أن الوادي الذي تقع القنفذة عند مصبه يسمى (قَنُونا)، بضم النون الأولى، وإن كنتُ سمعتُ فيه لغتين، إحداهما بفتح النونين.

خرجت فوق خط معبد نحو الشمال الشرقي من القنفذة، فمررت بأحد بني زيدٍ، ورأيت المنطقة في شرقيه شجرية غابيّة ذات تلال سود وأعيبلات، ومن تلالها سود منطّقة بحجارة بيضاء ليست من المرو.

وعلى ضفاف وادي قنونى بعض أشجار الدوم، والوادي حجري عميق ذو مضايق، يتسع ويضيق، وانتهيت إلى بلدة ناشئة على وادي خطم الجارة، تسمى ملاقي الأودية.

(1) هو الكورنيش، والتقعُّر في تعريبه أراه شرًّا من عُجمته.
(2) كان ذلك قبل أن يتوفاه الله تعالى في 26 من شوال سنة 1436هـ، رحمه الله رحمة واسعة.

ثم انتهيت إلى بلدة سبت الجارة، وهي في باحة واسعة تكتنفها الجبال، لو اختار الباحثون المعاصرون أن تقوم فيها سوق حباشة لكانت أقرب إلى القبول، بصرف النظر عن تطبيق النصوص، وهي في بداية صدر قنونى بعد ارتفاعه عن الساحل، ثم إني جاوزتها باتجاه الجنوب الشرقي، فمررت بوادي قنونى، ذي السِّدر والعُشر والأشجار الكثيفة والمخاضة. ثم خرجت على خميس حرب، ورأيت في جنوبيها الشرقي رمالاً لا تصلح أن تكون السوق فيها أو قريبًا منها.

ثم اتجهت نحو الجنوب الغربي فمررت بجمعة ربيعة، وهي على جَنَبَة وادي يَبَة اليسرى، وهو وادٍ رملي واسع، تكتنفه جبال سود ذات قمم تماشيه، وبينها رمال.

بعد ذلك مررت بالجرَد، وهي مساحة متسعة ذات أشجار طبيعية خضراء، ثم مررت بين ثلاث حرات صغيرة هي الكَيِّلةُ والحَيْلةُ والجَبّانة، ومن بعدها هبطت على ثلوث النواشرة، وهي في ناحية القوز الجنوبية الشرقية.

وهنا سؤال هو: أيَّ أيام الأسبوع لم أذكرها حين مررت بهذه البلدات التي احتفظت بأسماء أسواقها الأسبوعية؟

لم أشأ أن أرجع إلى القوز؛ لأني كنتُ في سباق مع الليل لعلّي أرى جبل كُدُمْبُل، فمررت بكيادٍ، وسندت في وادي حلي عدة كيلومترات، حتى وصلت إلى سدٍّ جديد ما يزال تحت الإنشاء، وإلى ما دون مكانه عدت، فاسترحت لصلاتي الظهر والعصر جمعَ تأخير، وأصلحت شايًا على عجلٍ، وأكلت شيئًا من رقائق الكعك، وكان قد مر بي شابٌّ ناهز الحلُم، وكان على سيارة صغيرة، فسلّم ثم قال: هذه أرضٌ لنا، ورأيتك فيها فجئتُ لأعرف من تكون! قلت: وماذا تظن بمن نزل في أرضٍ لا سورَ يحيط بها ولا زرعَ فيها؟ أتُراه سيسرقُ التراب؟! قال: سأتركك فيها! ثم ابتعد مني أمتارًا، فانغرزت عجلات سيارته في الرمل، فلم أشأ أن أعاونه في إخراجها، حتى وإن استنجد بي، حتى أنتهي من احتساء الشاي، لكنه قلل من هواء العجلات ثم نهضت سيارته فذهب، وكأنما استحيى أن يطلب معونتي وقد قدّم من كلِمِهِ ما قدّم!

ثم إني عدتُ أدراجي نحو كيادٍ، على طرف وادي حليٍ، ذلك الوادي الفحل الذي رأيته شجيرًا عميقًا ضيّقًا ذا سَلَمٍ وأراك.

لم أكد أبتعد من كياد حتى بدأت حرةٌ شهباءُ عن يساري، رأيت فيها زور الحماط حلاءة شامخة ممتدة. ومررت بعَمَقٍ، ثم بدبساء، التي يشرف عليها جبل التيس من الشرق.

مررت بالبِرك، الذي جعل منها المعاصرون بَرك الغماد، ومن بعدها مررت بذهبان، وهي في سفح الحرة ذات دَوم، ثم بالقحمة، ثم بوادي حَمَضَةَ، وهو ذو دوم منتشر كثيف، ولم أرَ جبل كدمبل إلا وقد كاد الظلام يخفيه، غير أني لا أُحِقُّ لونه، ولا أستطيع تصويره.

سرت في طريقي، فمررت بالشُّقَيْق فالدرب، ثم ببَيْشٍ، فصبيا، ومنها إلى أبي عريش، حيث قابلت الأخ عبد المجيد بن عبد الله الصعب، وزميليه الأستاذين محمد بن عبد العزيز التويجري وعبد العزيز بن سليمان الخليْف، فصحبتهم إلى جازان، حيث تعشينا هناك باشتراطٍ مني على عبد المجيد ألا يفعل غير ذلك، فأغدق ألوانًا من الطعام ـ هداه الله وأنعم عليه ـ ثم عدنا إلى أبي عريش، فبتنا هناك.

❖ خامس أيام الرحلة: الأربعاء 24 من ذي القعدة سنة 1433هـ:

صحبني الأخ عبد المجيد الصعب ضحى اليوم نحو الدرب، ومنها خرجنا نحو محايل، حيث مررنا بوادي ريم، ثم برجال ألمع، ثم مررنا بجبل الحيْلة، وهو حَرّة، ثم دخلنا مدينة محايل، ومنها خرجنا من غير مكثٍ نحو بلاد بارق، فاستقبلتنا لوحات المحافظة الجديدة حين مررنا بوادي الرَّيْش، وبدأت أرض بارق ذات الاتساع الذي يبرز جليًّا.

جوّلنا في بعض أثناءِ وادي بَقْرة، ونزلتُ من سيارتي فرحًا بمنظره الجميل.

ثم اخترقنا بلاد بارق، فمررنا بمطعمٍ حضرميٍّ كان فيه غداؤنا، ثم اتجهنا نحو الشمال، حيث تتسع الأرض وتتباعد الجبال، ثم وقفتُ أصور وادي شري، من فوق جسرٍ منحنٍ ضيّق، وكلما مرت سيارة كبيرة فيه اهتزّ، وكاد تيار هواء السيارات يسقطني في الوادي غير مرة[1]، فتركت التصوير ولذت بالسيارة.

(1) كلما مررتُ بذلك الجسر، أو قرأت في الصحف أخبار حوادثه، ظننتُني كدتُ أهلك في تلك الدقائق لولا عناية الله!

(2) وادي بقرة.



(3) وادي شري، وقد انحسرت مياهه بعد استغلال تربته للإنشاءات وبناء سد في أعلاه.

ثم اخترقنا خبت آل حجري، حتى وصلنا إلى وادي خاطٍ؛ للإلمام بنظرة أولية باتساع بلاد بارق وتضاريسها، ولكي تكون الشمس خلفنا، فشاهدنا جبال قَتَرْوِي والأضحى ونمارن، ثم اتجهنا إلى وادي آل بلال في شرقي بلاد بارق، فوصلنا إلى الحُباطة، حيث تشترك الكلمة في معظم حروفها وكلمة حباشة، غير أن أرضها ليست مهيأة لقيام سوق فيها، حتى وإن كانت سوقًا محدودة المساحة، بَلْهَ سوقَ حباشة، وهناك قابلنا شابًّا كريمًا في ناحية آل موسى بن علي، فذكر لنا بعض أسماء الجبال، ومنها ريدان الجميل، واعتذرنا عن دعوته الكريمة.

خرجنا من تلك الناحية فدخلنا بلاد بني شِهرٍ، التي قابلنا فيها رجُلين أريحيَّين كريمين، يحتسيان قهوةً، فناولني أحدهما فنجانًا منها، ثم اعتذرنا منهما بأننا ملتزمون بالوصول بُعيد العشاء إلى خميس مشيطٍ، فوصفا لنا طريق عقبة بَرْمة، التي تُنطق بترقيق الراء.

غربت الشمس، ولمّا نصل إلى أسفل العقبة، فصعدناها، ولم يكن صعودها ثقيلاً على السيارة، ولكن تعبيدها يبدو للناظر اجتهادًا محلّيًا لم تنفّذه وزارة النقل، فخرجنا على تنومة، التي نعَتَها أستاذي أبو داهشٍ بالزهراء، وهي كذلك.

ثم جاوزناها إلى بلَّسمر، فأصلحنا قهوة في ذلك الجو اللذيذ البارد، فما ألذَّها!

كانت نهاية رحلة ذلك اليوم في خميس مشيط، حيث بتنا فيها مع الأخ عبد العزيز الخليف، الذي سبقنا إليها، ثم ذهبنا ضحى اليوم التالي إلى تثليث بدعوة كريمة من الأخ الأستاذ حمد بن علي العَقِيل، الذي أولم لنا وليمةً كبيرةً، ولم أكن قد عرفته من قبل، فزاده الله تعالى من فضله، ولقد سرنا معه بعد العصر إلى موضع مدرسته في نعام ليطلعنا على طبيعة أرضها وجبالها، وتقع نعام جنوبًا شرقيًا من تثليث بنحو سبعة وخمسين كيلومترًا، ثم بتنا عنده تلك الليلة في سهرة علمية أدبية بلدانية، وخرجت من تثليث ضحى يوم الجمعة للبحث عن مواضع ذُكرت في كتاب (بلاد العرب) ومنها المَدْراء جنوبي بيشة، وعبلاء العقيق، وهي بين بيشة ومغرب الشمس على نحو سبعين كيلومترًا.

وقد بلغتُ الدوادمي ـ بحمد الله ـ بعد منتصف ليلة السبت، وبلغ مقدار سيري في رحلتي هذه نحو (4200) كيلومتر.

والله ولي التوفيق.

- **خطوط العرض والطول لبعض المواضع المذكورة في الرحلة**

الموضع	خط العرض			خط الطول			تفصيل
	ثانية	دقيقة	درجة	ثانية	دقيقة	درجة	
أسفل وادي الأحسبة	50	22	19	50	57	40	هنالك كانت برك الغماد
جسر وادي شري	39	58	18	35	53	41	ضيّق في منحنًى خطِر
نقطة في وادي خاط	21	05	19	36	51	41	
جبل الأضحى (لَضْحَى)	32	54	18	23	56	41	ارتفاعه نحو 877 مترًا
حباطة	05	53	18	15	01	42	غربيّ جبل رَيدان

• الرِّحْلَةُ الْمَيْدَانِيَّةُ الثَّانِيَةُ

❖ أول أيام الرحلة: الأربعاء 17 من شهر ربيع الآخر سنة 1434هـ، وقد وافق 27 من شباط (فبراير) سنة 2013م:

انطلقت من الدوادمي نحو عفيف، ثم الخرمة، ثم تربة، ثم استأجرت غرفة للنوم قبل أن أصل إلى الباحة، ولعل أهمّ أمر منعني من الاستمتاع بالنوم في ذلك الجو اللطيف، ما سمعناه في وسائل الإعلام تلك الأيام عن سطوٍ وسرقات لأحباش كان دخولهم إلى المملكة لِواذًا.

❖ ثاني أيام الرحلة: الخميس 18 من شهر ربيع الآخر سنة 1434هـ:

مررت منذ الصباح بالباحة فبلجرشي، وشاهدت جبل حُزنةَ المشتهَرَ، ثم سلكت في عقبة الأبناء، وكانت عقبة جيدة لولا ضيقُها، ومن الطريف أنَّ كل من مرَّ بي ألقى عليَّ السلام.

وحين نزلت من العقبة شدني جمال وادي الخيطان إلى إمتاع ناظريَّ وإصلاح قهوتي، فكان ذلك.

كنت في بلاد العوامر من شمران، فقابلت الأخ الشابّ حامد بن عساف العامري الشمراني، ذا بَشاشةٍ لو وُزِّعت على فئامٍ من الناس لوَسِعَتْهم، فسبحان من جَبَلَ نفْسه عليها!

ناقشته عن حُباشة، فتعوذ بالله من شر الأحباش الذين صاروا حديث الناس هذه الأيام!

ثم أشار إلى حُذيْفة قائلًا: «أتعرف الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي إمام المسجد النبوي؟ هذه بلدة عشيرته!».

وعن دعوته الصادقة اعتذرتُ، ووعدته بالتعريج عليه يومًا بإذن الله عز وجل، فقال لي جملة فصيحة نطَقها بالعاميّة: «كُلّ حَزَّةْ وَلَكْ مِيعَادْ».

مررت بالمعقَّص، ذلك الذي رأى الشيخ عاتق البلادي سعته، فقال: إن تكن سوق حباشة في قنونى فلتكن في المعقّص.

ويبدأ وادي قنونى من أسفل أرض المعقص، حين يهبط وادي الحفيان ووادي رحمان في وادي الخيطان، فالأول من يساره، والثاني أسفل من ذلك من يمينه، ثم يصب بعد ذلك وادي بيان في قنونى، فكأن النون الممدود ما قبلها بالألف تلازم أسماء أودية هذه الناحية، بل إن جبلًا شامخًا يقع غربي المعقّص اسمه عِنان، وتكتنف قنونى مسمَّيات من الجبال بعضها يحقق تلازم ألف المد فالنون!

إن سعة أرض المعقَّص وخصبها جعلا منه أرضًا تُزرع، ومنها رأيت ما يُزرع بماء المطر.

انحدرت باتجاه انحدار قنونى، كي أرى سوق حباشة الذي تحدث عنه الرزقي وأبو داهش، فوصلت إلى الفائجة، ثم إلى غُريّبٍ، ثم إلى حداب القرشة، ولكني قصرتُ خطوي عن الموقع الذي حدداه، حيث حالت النتوءات الصخرية بيني وبينه، وحيث إن خرائطهما لم تكن كافية لتحديد الموقع الدقيق، فتركت المكان على أمل أن أعود إليه بعد أن أطالع في تحديد (فريق الصحراء) في الشبكة العالمية[1]، فلفريق

(1) لم أحمل معي آنئذٍ جهازًا لفتح المواقع على الشبكة العالمية، ولم يكن البث الساتلي (الإلكتروني) قد بلغ تلك الناحية.

الصحراء موقع يسجلون فيه رحلاتهم، ومَن قرأها فكأنما كان معهم، فجزاهم الله
خيرًا. وحين رجعت إلى رحلتهم في ما بعد رأيتهم سموه: الموقع الافتراضي[1]!

مررت بسبت شمران، فالقَضيّة، حيث صليت الظهر والعصر تقديمًا في مسجدها
الجميل المعتنى به، فجزى الله القائمين عليه خيرًا.

مررت ببلدتين في بلاد بلقرن تسميان قرن قريش وقرن هذيل، وبعد حين سألت
عن هذين الاسمين، فقيل لي إن ذلك متعلق بالإيلاف! ولم يكُ ذلك صحيحًا، ولكن
التأويل. فيا لعجبي الذي لا ينقطع! الإيلاف لقريش، ويأبى العامة وأصحاب الهوى إلا
أن يجعلوا لهذيل ابنة عمها إيلافًا معها، وماذا يضيرهم لو جعلوا مع قريشٍ كنانةَ أمها!

بل قيل لي إنما سُمّيا بسبب حضور قريش وهذيلٍ سوقَ حُباشة!

إن هذا الزعم لا يصبّ في وعاء من يدّعي موقع سوق حباشة في قنونى، إلا إن
كانت هاتان القبيلتان تُقبلان من اليمن!

حين تنقطع الصلة بين الأجداد البعيدين الذين سمّوا المسميات وبين
أحفادهم، فإن كل تعليل للأسماء باطل.

وصلت إلى بلاد بارق، فاستأجرت شُقّةً سكنية، وما لبثت إلا نصف ساعة حتى
جاءني أخي الكريم عبد المجيد بن عبد الله الصعب، قادمًا من أبي عريش، فحيّاه الله
وبيّاه.

بعد الغداء أمضينا سويعةً من القيلولة، تدارسنا بعدها نموذج استبانة وضعته للبحث
عن سوق حباشة من خلال معرفة الأسواق والطرق القديمة ومظان المياه.

ثم إنا انطلقنا بعد العصر نحو الخوش، ومنها إلى الجنوب الشرقي، حيث
الخرباء، ذات البنيان القديم فوق جبل السوداء، وربما كان بعضه حصونًا، ومررنا
ببعض القبور تحت سفح جبل بينها وبين الخوش. ومعظم أرض الخرباء ذات
وهي ذات مراغة، مما يجعلها غير صالحة لإقامة سوق كسوق حباشة.

(1) يراجع كلامهم في: (alsahra.org/?p=7812)، غير أن كلمة «الافتراضي» ذات دلالة لغوية خلاف ما يراد
منها اليوم.

وذهبنا إلى المرواء، فرأينا أرضها مكتسية بالمرو، ويسمى في عُرف سكانها
الحداب.

ثم اخترقناها نحو البيداء، وأرضها غير مستوية، ولكنها غير خشنة، وهي ذات
منخفضات ذات شُعَبٍ تجري فيها السيول إلى الشعاب الكبرى، وليس فيها مراغة،
ويصح أن يسكنها أهل البادية من بارق، كما يصح أن يسكنها أهل البادية حين قيام
سوق كبير كسوق حباشة.

مررنا بقرن مَخْلَد وقد غابت الشمس، لنعود إلى شُقّتنا؛ فنعاود التجوال يوم غدٍ
بإذن الله.

❖ ثالث أيام الرحلة: الجمعة 19 من شهر ربيع الآخر سنة 1434هـ:

خرجنا صباح اليوم نحو المرواء، ثم البيداء، فشاهدنا فيها مقبرة إسلامية على ربوة
بيضاء، يحيط بكل قبر حجارة لحمايتها من السيل.

ثم مررنا بسرّ الخشب، واستوقفني هذا الاسم، غير أن أحدًا لم يبين لي ذلك،
وقد رأينا ناحية منها ذات قبور.

وفي طرف من الأرض بين البيداء وسر الخشب مررنا بقصر مستقل، مُتَنَحٍّ
نحو الشمال، شمالاً من مزبورة، فرأينا رجلاً مُسِنًّا، فنزلنا للسلام عليه، فلم
يسمح لنا إلا أن ندخل إلى منزله للقهوة، واسمه هيازع بن حسن البارقي، وقد
حدد لنا بعض أسماء الجبال والأودية بين منزله وبين وادي خاط، وأخبرنا
بالناحية التي يقع فيها الغار المكتَّب، وقال: إنه كان بالقرب من وادي الحَبَاب
حجرٌ منقوشٌ كان قد رآه قبل أربعة عقود من الزمن، ثم فُقِدَ، وبينا نحن في
حديثنا معه، دلف ابن له كبيرٌ إلينا فرحّب طويلاً، ولم يكتفِ مُضيفُنا بالقهوة، بل
أحضر فطورًا غايةً في حُسن الاختيار، وكنا قد أفطرنا من قبل، فأكرمه الله
وأحسن لنا وله الخاتمة.

سمعنا ـ فُجاءةً ـ صراخ طفلٍ لا ينقطع، فسألنا عنه ابنَ مضيفنا، فقال: هو ابني
انسكب عليه الشاي! فألححنا عليه أن يذهب بولده إلى الإسعاف، وهو يرى أن بقاءه



(4) قبور إسلامية في البيداء توحي بأن آباراً كانت قريبة من هنا.

معنا من تمام الضيافة، فقلت لصاحبي: أيُّ أمرٍ حلَّ بهؤلاء الكرام حين نزلنا بهم؟ لا حول ولا قوة إلا بالله!

خرجنا من منزل مُضيفنا الكريم في شِعب الضهيان نحو جبل قزع دحدح وجبل الخرباء وجبل الفردة والعبلاوات التي بجوارها، في طرف خبت آل حجري.

وكان الخبت مظنة لقيام سوق حباشة في ناحية منه، غير أن غريبًا عن الأرض مثلي لا يمكن أن يحيط بها إلا بأحد خيارين، فإما أن يقيم أيامًا لا يترك موضع خطوة إلا ومرَّ به، وإما أن يستعين بأهل المعرفة من أهلها، فرأيت أن أيسرَهُما هو معرفة أولي العلم والفضل، فعرضتُ ما خالجني على الأخ عبد المجيد، فقال إن هذا هو الرأي؛ لأنك تأتي من مكان بعيد، ولا تستطيع تكرار المجيء إلا في أوقات متباعدة، وإن طبيعة الأرض تحتاج فيها إلى خِرِّيتٍ ماهر، والخرائط لا تغنيك عن الضَّربِ في الأرض!

كان الجوُّ قد مال إلى الكَدَر، فعدنا إلى شُقّتنا، ثم ودّعت عبد المجيد، وخرجت من نحو بلدة خاطٍ، فسلكت في عقبةٍ جديدة، تُخرِج السالكَ فيها إلى النماص، غير أني فوجئت بأنها لم تكتمل، فعدت قليلاً، ثم سلكت طريق عقبة سِنانٍ، تلك العقبة



(5) مظاهر حجرية في جبيلات البياض بين واديَيْ دحدح والحَباب.

القديمة التي أمضيت أزيَد من ساعة في سبعة كيلومترات منها، وقد شجّعني على صعودها وهوّن من شأنها الأخ سلطان بن رافع العَمري، الذي سلك ووالده الطريق بسيارتهما، واللذان كانا قد صلَّيا الجمعة في خاطٍ، فمرَّا بي، فدعياني إلى الغداء فاعتذرت، وإن كان بوُدِّي أن أطيع كلَّ جوادٍ كريمٍ، غير أن بُعد المسافة بيني وبين الدوادمي لا يعينني على رغبة نفسي من زيادة في معرفتهما.

وصلت إلى النماص، ومنها انطلقت إلى سبت العلاية؛ رغبة مني في تصور طريقها، ومنها إلى بلجرشي التي دخلت إلى مكتباتها، فالباحة، ثم تربة، فالخرمة، حيث بلغتها منتصف الليل، ثم إلى ظلم، فعفيف، حيث نمت في إحدى ساحاتها نحو ساعتين، ولكن الإرهاق قد نال مني، فسرتُ في خانة القادمين، فانتبهت فزعًا حين كانت الشاحنة قد أوشكت على مقابلتي، فحمدت الله على السلامة منها، وبلغت الدوادمي والناس يصلون الفجر.

وبلغت مسافة الرحلة (2050) كيلومترًا. والله المستعان.

- **خطوط العرض والطول لبعض المواضع المذكورة في الرحلة**

الموضع	خط العرض			خط الطول			تفصيل
	ثانية	دقيقة	درجة	ثانية	دقيقة	درجة	
منشآت الخرباء الحجرية	42	59	18	32	53	41	شمال جبل السوداء
قبور إسلامية في البيداء	22	58	18	23	52	41	كلُّ قبرٍ مُحجَّرٌ لحفظه
عَلما مسامتة طريق	54	57	18	38	50	41	شمال غربيّ قرن مخلَد
قزع دحدح	37	59	18	50	50	41	جبيل مستطيل
ركام حجرية مبعثرة	43	58	18	53	49	41	عند جبيلين في البياض

• الرِّحْلَةُ الْمَيْدَانِيَّةُ الثَّالِثَةُ

❖ أول أيام الرحلة: الاثنين 29 من المحرَّم سنة 1435هـ، وقد وافق 2 من كانون الأول (ديسمبر) سنة 2013م:

خرجت من الدوادمي قبل أذان الفجر من هذا اليوم، وصليت في البجادية، وبزغت الشمس قبل وصولي إلى عفيف، وواصلت السير مع طريقي المعتادة، حيث مررت بظلم فالخرمة فتربة، وحين رأيت مفرق العقيق رغبت في السير في تلك الطريق، وبعد دقائق اقتربت من وادي أبيدة، فجوَّلت في وادي أليف أبيدة، ورأيت بعض جباله وقد نزعت بعض حجارتها؛ حيث اتخذت محجرًا للصخور.

• دَقَائِقُ مَعَ رِوَايَةِ مَقْتَلِ الشَّنْفَرَى الْأَزْدِيِّ

لقد عَدَدْتُ مروري بهذا الوادي فألا حسنًا؛ وقد رغبت في الوقوف عليه منذ سنين؛ حيث جاء ذكره في (الأغاني) في قصة عن الشنفرَى الأزدي تتعلق بسوق حباشة، أوردتُها ضمن موادّ (سوق حُباشة في المصادر التي ورد فيها ذكره دونما وصفٍ أو تحديد)، فليرجع إليها في موضعها من هذا الكتاب.



(6) جانب من شِعب أليف أبيدة.

ويَحْسن هنا إيراد خبر آخر عن مقتله، من كتاب (الأغاني) نفسه. والخبر بسندٍ عن الحِرْميّ بن أبي العلاء، أسوقه مختصرًا، قال: «ثم قعد له بعد ذلك أَسِيدُ بن جابر السلاماني وخازم الفهمي بالناصف من أبيدة، ومع أسِيدٍ ابنُ أخيه، فمرّ عليهم الشنفرى، فأبصر السواد بالليل فرماه، فشكَّ ذراعَ ابنِ أخي أسيد إلى عضُده فلم يتكلم، وكان خازم منبطحًا بالطريق يرصده، فقطع أصبعين من أصابع خازم الخنصر والبنصر، وضبطه خازم حتى لحقه أسيد وابن أخيه نجدة، فأخذ أسيد سلاح الشنفرى وقد صرع الشنفرى خازمًا وابن أخي أسيد، فضبطاه وهما تحته، فأسروا الشنفرى وأدّوه إلى أهلهم، ثم قال له السلامي: أأطرِفُك! ثم رماه في عينه، فقال الشنفرى: [كالكَ][1] كُنا نفعل! أي: كذلك كنا نفعل. وكان الشنفرى إذا رمى رجلاً منهم قال: أأطرفك؟ ثم يرمي عينه. ثم قالوا له حين أرادوا قتله: أين نقبرك؟ فقال:

[وَ] لَا تَقْبُرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ ... عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرِ
إِذَا احْتَمَلَتْ رَأْسِي وَفِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي ... وَغُودِرَ عِنْدَ الْمُلْتَقَى ثَمَّ سَائِرِي

(1) في الأصل: (كأنَّ). والتصحيح من: محاسن بن إسماعيل الحلبي، **شرح شعر الشنفرَى الأزدي**، تعليق د. خالد عبد الرؤوف الجبر، عمان، دار الينابيع، ط1، 2004 م، ص (54).

هُـنَـالِـكَ لاَ أَرْجُـو حَـيَـاةً تَـسُـرُّنِـي سَـمِـيرَ اللَّـيَـالِي مُبْسَلاً بِالْـجَرَائِرِ»[1]

ولكن الرواية جاءت مختلفة عند مؤرج بن عمرو السدوسي (000 ـ 195هـ) في (شعر الشنفرى الأزدي)، وفيها أن أسيد بن جابر وابنيه رصدوا للشنفرى عند قَليب لأهله، وأنه عطش فخشي الاقتراب من المورد، وأنه استسقى امرأة نائية، فسقته رائبًا ليزداد عطشًا، وأنه رمي بصخرة وهو على شفير القليب فسقط فيها. وهي رواية تتناقض الكلمات بين أسطرها، ويبدو أنها من الروايات الشعبية التي تُنسب إلى مؤلفين مشتهرين، فاختير لها مؤرج، ولعله منها براء؛ حيث ينحدر أسلوبها إلى تفصيح العامّيّة. وغاية القول إنه لا يمكن استخلاص فائدة منها.

وليس من مقاصد هذا الكتاب البحث في نسب الشنفرى وتحقق مكان مقتله[2]، غير أن ثمة أمرين لا بُدَّ لي من ذكرهما، وهما:

- أن باحثِينَ جعلوا للشنفرَى قبرًا، وأبياته تدلّ على أنه لم يُقبر. والقبر يكون للتكريم، بينما يكون الصَّلب مصير الواترين المدْرَكين، وعلى جادّةٍ عامّةٍ؛ ليراهم الناس ويتناقلوا أخبارهم.
- أن قول أَسيد بن جابر، الذي أورده صاحب (الأغاني): «لئن كنتَ صادقًا لا نَرجعُ حتَّى نأكلَ من جَنَى أَلِيفِ أَبِيدَةَ»، روي في مصادر أخرى: «لا يرجعُ حتَّى يأكل من جَنَى أليفِ أبيدةَ»، يعنون الشنفرَى. ولا بدّ لي من التعليق على ذلك بما يلي:

1 - هل يرجع الواتر الحذِرُ إلى مكان بيِّن؟

2 - إذا كانت طريق الشنفرى من سوق حُباشة تمر بأليف أبيدة، فيمكن أن يكون هذا الحدث مهمًّا لتحديدِ موطن الشنفرى.

3 - لعل الشنفرى قد حَرَمَ أولئك من أليف أبيدة، فلم يدخلوه مذ ناوأهم، فتراهم هنا يحلفون مستبشرين بأنهم إن قتلوه فقد أمكنهم الله من أكل جَنَى أليف أبيدة، غير خائفين.

(1) الأصفهاني، الأغاني (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (129 ـ 130).

(2) في الرحلة الميدانية الخامسة ذهبتُ إلى الناصف من أبيدة، فلينظر الحديث عنه في موضعه.

4 - لا بُدَّ أن يكون الناصف من أبيدة ثنيةً لا تُسلك الطريق إلا معها في حال الأمن، وإلا فإن في ثنايا الجبال خياراتٍ عنها.

5 - إن سير رجل مثل الشنفرى في ناصف أبيدة في الظلام ضرب من المخاطرة، التي تكاد تنسف القصة؛ ولو كان الأمر بالرأي لقلت إنه إن سار فيها سار في نهار. ولو سلّمنا بأن الشنفرى خرج من سوق حباشة في آخر يوم من أيامها، فإن الأزدي سوف لن يحدّث أسيد بن جابر إلا بعد ليالٍ، وسوف يكون الشنفرى إن هو مرّ بالناصف من أبيدة قد فاتهم؛ لسرعته المعهودة منه، والتي سيسبق فيها ذلك الأزديَّ الذي نقل نبأه. فإن قلنا إنهم كمنوا في الناصف من أبيدة قبل مروره فيه ـ لسبب أو لآخر ـ كأن قد يكون الأزدي غادر سوق حباشة منذ وقع نظره على الشنفرى، فسوف يكون الليل مقمرًا حتى بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين. والمسافة بين سوق حباشة وبين الناصف من أبيدة تزيد عن أربع ليالٍ بسير الأرض المنبسطة. أقول ذلك حين نَقبَل بثبات قيام سوق حباشة في الثلث الأول من شهر رجب!

إن الرواية بحاجة إلى تثبُّتٍ منها قبل الجزم بصحتها.

6 - الحلقة المفقودة في القصة ـ إن صحّ التعبير ـ هي حول من يضمن لأولئك القوم معرفة مسير الشنفرى، فإن سلّمنا بمعرفة مسيره فلعل لما كان قد بقي من أيام رجب ـ وهو الشهر الحرام ـ شأناً يعرفونه من الشنفرى، في مسيره فكمنوا له في الناصف من أبيدة، واستحلّوا حرمة الشهر الحرام، كما استحلَّ الشنفرى حُرمته من قبلُ!

7 - حين يكون موعد سوق حباشة موافقًا موسم الجنَى، فيمكن أن يساعد هذا الرأي على تحديد زمن مقتل الشنفرى، غير أني قد بيّنت من قبلُ إمكان قيام السوق في غير رجب.

وأحبُّ أن أقول: إن قتل الشنفرى في الناصف من أبيدة، أو في مكانٍ ما حولها، ليس دليلا كافيًا لمن أرادوا جعلَ بلاده في هذه الناحية، ومن ابتغَى الحقيقة وُفِّقَ لها، أو فَتَحَ لغيره بابًا إليها!

بعد هذه الدقائق التي وقفتُها حول أليف أبيدة وقصة مقتل الشنفرى، أعاود الحديث عن الرحلة، لأقول:

مررت بالقصور الأثرية في أعالي أبيدة، ثم خرجت منها إلى الباحة، وهنالك كان غدائي، وقد هبطت مع عقبة الباحة على المخواة، فبلغت الحرارة اثنتين وثلاثين درجة مئوية، وكانت قبل سويعة قد بلغت في الباحة اثنتين وعشرين درجة، وكان ذلك اليوم الشتويُّ دافئًا.

خرجت على نمرة، ثم اخترقت المعقَّص، منحدرًا مع روافد قنونى إلى الفائجة، وكلُّ من سألته عن سوق حباشة أشار إلى وجهة غير وجهة من سألتُ قبله، حتى أُرشِدتُ إلى محطة وقود أسفل من حداب القرشة بنحو خمسة كيلومترات، فقيل لي إن فيها من سيرشدونك إلى مكان السوق، وحين سألتُ أحدهم صحبني ليدلني عليه، فأوقفني عند جبيلات دون مهبط شِعبِ المَسْلَمة في قنونى، قائلاً: هنا توجد سوق حباشة! فقلت: هل تكون السوق فوق الجبال؟ فقال: إنهم رأوا هنا ركامًا فقالوا إن السوق ربما كانت هنا! فقلت: ولكن آخرين يقولون إنها في حداب القَرْشة! فقال: أجل! فإن هناك من قال بهذا ولسنا مستيقنين موقعَها الصحيح، ولعل ما أوقفتُك عليه في نظر أصحابنا أقربُ إلى موقعها!

فهِمتُ من خلال التجوال أن كل أهل ناحية من قنونى يطمعون أن تكون السوق عندهم.

غابت الشمس، فآثرت الذهاب إلى بلاد بارق، فعدت إلى المعقَّص، ومنها إلى سبت شمران، ثم القضية، حيث صليت في مسجدها المغرب والعشاء، وكان هناك مشرف على تنظيم المسجد، وحين خرجت منه لحق بي وأعطاني ماء من المياه المعبأة، فشكرته وأهديت إليه كتيِّبًا يُعرِّفُ بالدوادمي.

اخترت غرفة سكنية في وسط بلاد بارق، فنمت فيها، ناسيًا عناء الطريق.

❖ ثاني أيام الرحلة: الثلاثاء 30 من المحرَّم سنة 1435هـ:

خرجت بعد الساعة الثامنة من غرفتي، فذهبت إلى مكتب التربية والتعليم ببارق،

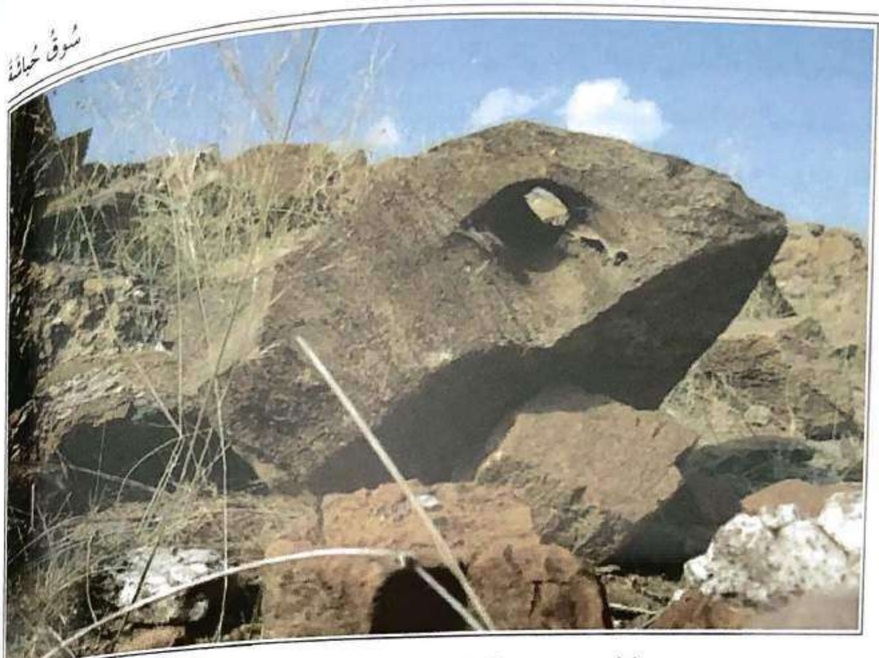
فالتقيت المدير الأخ الأستاذ علي بن أحمد البارقي، وناقشني بشأن التعليم في الدوادمي، ورأيت انشغاله ـ كما هي الحال عندنا ـ حيث طالت اتصالاته بالمسؤولين الهندسيين؛ لمتابعة إعادة التيار الكهربي في مدارس البنات في جمعة ربيعة. ومن ما يَلفِت النظر أن أعمال الكهرباء هناك تُوَجَّهُ من محافظة القنفذة، وهي إحدى محافظات منطقة مكة المكرمة.

لَمَستُ من خلال تجوالي في المكتبِ ما بلغه من وِدادٍ وتآخٍ بين الموجهين (أو المشرفين)، وما بلغه أبناءُ بارق من حُسنِ الخُلُق والبشاشةِ.

خرجت من المكتب معتذرًا من مديره، قائلاً إن بيني وبين الأستاذ عبد الله الفقيه موعدًا، فاتجهت نحو صعبان، حيث مدرسة صهيب بن سنان الابتدائية وصعبان المتوسطة، فقابلت مديرها الفاضل الأخ الأستاذ حمزة بن راشد العَمري، ثم قابلت الإخوة الأساتذة عبد الله بن محمد الفقيه وزاهر بن عامر بن جابر وحسن بن محمد بن عوض البارقيِّين، وبعد نحو ساعة خرجت وزاهر نحو أحد المساجد؛ لنصلي الظهر فيه، ثم توجهنا نحو شمالي المنيظر، فتركت سيارتي هناك، وجاءنا حسن، وصحبْنا زاهرًا إلى الفقيه، الذي استقبلنا وأبناؤه الكرام في منزله العامر في الحصنين، وتغدينا عنده ـ أغناه الله من فضله ـ ومعنا الأخ علي بن حسن البارقي.

خرجنا إلى المنيظر، وترك زاهر سيارته مع سيارتينا، فركبنا مع الفقيه في سيارته، فوصلنا إلى جبل الخرباء في شمال غربي الخبت، ونظرنا من فوقه إلى الخبت وإلى جبلي قتروي وأثرب، وتصورنا المنطقة الواسعة هناك، وكان من بين حجارة جبل الخرباء صخور مثقوبة، ولعله بفعل فاعل قديم، ثم إن هناك في أعلى الجبل مساحات صغيرة منقاة، تفضي إلى مساحات أصغر منها وأدنى، وتلك تفضي إلى مساحات أصغر وأدنى منها، ومعظمها أحيط بحجارة مبنية، لو كانت في العصور الإسلامية لقلت إنها للمراقبة والبريد، ولكنها ـ في ما يبدو ـ موغلةٌ في أعماق التاريخ، وهي مُطْمْئِنَةٌ إلى وجود عناية بشرية بهذا الجبل، مما يدلُّ على قِدم الاستيطان فيه، ولعل للعبادة نصيبًا من هذه العناية، والقول الفصل في هذا لأهل الآثار.

لقد رأينا قِبَل الخرباء شواخص حجرية، محفور عليها شعار الهيئة العامة للسياحة، أحاطت بهذا الجبل، وحسنًا فعلت الهيئة.



(7) حجر مخروق في جبل الخرباء ومثله الكثير.



(8) بُقعٌ منقّاة من الحجارة في جانب الخرباء الشرقي.

اخترقنا بعض المواضع في مجرى وادي دحدح، الذي تقع الجهفة أسفل منه بعد اقترانه بالحباب، ولم نشأ الوصول إليها رغبة في استغلال ما بقي من النهار لرؤية الغار المكتّب.

كانت طريقنا تمر بقرية قرنِ مَخْلَد، ومنها اتجهنا نحو الغرب، فمررنا بمساحة شاسعة ذات محاج (وِحاج) على الأرض، جُمعت حجارتها على شكل نصف دائرة أو ينقص قليلاً، معظَمها مطلِع الشمس من الغار المكتّب على نحو كيلومترين، ثم وصلنا إلى الغار المكتّب، وهو صخرة ذات نقوشٍ على وجهيها، وبالاطلاع عليها رأيتها حروفًا مفرقة، أقرب ما تكون إلى الوسوم، ولعل خبيرًا في النقوش يقرأ ما فيها[1].



(9) الغار المكتّب: حجر ذو نقوش على طريق الجَند التي تمر بسوق حباشة، وبينه وبين الجبيل خلفه جادة منقّاة.

(1) بعثت بصورة الغار المكتّب إلى الأخ سعود بن مرزوق الراشد متسائلاً، فأجابني بقوله: «هذه الكتابات نقوش لوسوم خاصة بقبائل عاشت وبادت، ويتضح أيضًا وجود أحرف بالمسند متداخلة بعضها ببعض تصعب قراءتها، وأظنها كتبت بين الخمسمائة وبين الألف قبل الميلاد حسب علمي القاصر، وهذه الصخرة سجل لإثبات الملكية والسيطرة على هذا المكان».

لقد كانت عند هذه الصخرة جادة واضحة تتجه نحو الجهفة وقرن مخلَد، وأما الصخرة[1] فهي على الطريق القادمة من مكة من ناحية المجازة من قنونى، من ناحية سبت الجارة، أو من ناحية جمعة ربيعة عبر وادي يبة. ولا تخلو هذه الطريق من ركام على أطرافها، لعلها أعلام يفيد منها سالك الطريق عند بعض مفارقها.

رغبتُ من الإخوة أن يدَعوني لأنام في أول ليلي، استعدادًا للمسير في الغد إلى أماكن أخرى.

❖ ثالث أيام الرحلة: الأربعاء 1 من صفر سنة 1435هـ:

كنت على موعدةٍ مع الأخ عبد الله الفقيه، فمر بي وبصحبته الأخ حسن، وأحضرا مائدة فطور، ثم أخبراني أن وفاتينِ حدَثَتَا، إحداهما لذي صِلةٍ بالفقيه والأخرى لذي صلةٍ بزاهر، فاستأذنتهما في المسير إلى منطقة جازان، على أن أعود إليهما يوم الجمعة، فلم يأذنا لي.

عاد حسن إلى المدرسة، وأما الفقيه فذهب إلى أهل المتوفَّى، ثم عاد إليّ بعد ساعة، فصحبتُه نحو شماليّ بلاد بارق، حيث مررنا بالبيداء، وهي منطقة رعي، وكان أهلها أهلَ رعي، ثم مررنا بتلك القبور التي قد مررت بها في الرحلة الثانية، وكانت قبورًا إسلامية فوق ربوة. والباحث عن دلائل المياه، يرى في القبور الكثيرة مؤشرًا قويًا على قرب موارد المياه، حيث تبلغ المسافة بين موقعها وبين مجرى وادي شري كيلومترًا كاملاً، مما يجعلنا نجزم بأن بئرًا أو آبارًا كانت قريبة من هذه المقبرة، سواء أعثرنا عليها أم أخنى عليها الدهر بحجابه. ومن يرَ العناية بهذه القبور يدركْ أنها ليست قبورًا لقتلى معركة أو وباءٍ؛ بحيث نستبعد ضرورة الغُسل بالماء، ولعل من يدقق النظر فيها يدرك تفاوت زمن القبور، وفي طرفها حجارة مجلوبة من أجل استخدامها في مرحلة لاحقة.

(1) في بارق وما حولها يسمون الصخرة المنعزلة غارًا، وفي (تاج العروس): «وربما سمّوا مكانس الظباء مغارًا»، والمغار جمعٌ، ولعله مأخوذ من الغائرة وهي القائلة، حين تلجأ الظباء، أو يلجأ الراكب في نصف النهار إلى ظلٍّ يأوي إليه. وفيه: «قال بِشْرٌ يصف ظُعُنًا ارتحلْنَ من منازلهنَّ فشبّههنّ في هوادجهنّ بالظِّباءِ في أُكْنِسَتِها:

بِـلَـيْـلٍ مَـا أَتَـيْـنَ عَـلَـى أَرُوم ... وَشَـابَـةَ عَـنْ شَـمَـائِـلِـهَـا تِـعَـارُ
كَـأَنَّ ظِـبَـاءَ أَسْـنُـمَـةٍ عَـلَـيْـهَـا ... كَـوَانِـسَ قَـالِـصًـا عَـنْـهَـا الْـمَـغَـارُ»



(10) ثلاثة قبور من أربعة على نسقٍ متوالٍ شرقي الجهفة.

اتجهنا نحو الجهفة في أسفل واديَيْ دحدح والحباب بعد أن يلتقيا، وحين أقبلنا عليها ظهرت جادة الطريق القديمة واضحة إلى جانبها، ثم مررنا بركام قبور، بدلالة البناء في وسط الركم الواحد، وتلك قبور جاهلية، ثم بقبور إسلامية، ثم هبطنا على الجهفة، وكان ماؤها ظاهرًا للعيان، في زاوية من زوايا الوادي، ولا ريب في أن المياه في العُصُر الخوالي كانت أوفر وأطول بقاءً، قبل حفر الآبار الارتوازية وانتشارها.



(11) الجهفة منخفض مائي يكاد لا ينضب في مجرى وادي الحباب.

(12) قرن مَخلَد أحد شواهد سوق حباشة ومنابرها.

خرجنا من الجهفة إلى منخفض رُكمت على أحد طرفيه بعض القبور القديمة جدًا، وتصوّرتُه منخفضًا جعلت منه مياه الأمطار شِعبًا فسقطت بعض جوانب هذه القبور.

مررنا بعد ذلك ببعض المحاجي؛ لتأملها وتصويرها، فمرّ بنا اثنان على سيارتهما، فسألانا عن الطريق التي يجعلان فيها غرابًا عن يسارهما هل ينفذ إلى يبة! وما ذاك بسؤال، ولكنه الحد الأدنى من حفظ ماء الوجه أو مبلغ الظن بذاك، بعد أن أوغلا في الاقتراب منا حُبًّا في معرفة ما نحن فيه، وهي عادة بدأت بالانحسار.

ثم عدنا نحو الشرق فمررنا بقرن مَخْلَد، فرأينا امتدادًا هضْبِيًّا في غربيه، كان ربوة صخرية كبيرة، لعله قد كان فيها ما يُعَدُّ دلالة على موقع أو مسار، أو لعلها كانت دلالة بذاتها. وحين يُرى ذلك من ناحيته الجنوبية يتبين قرن صغير، أراه كان السبب في اختيار التسمية.

ذهبنا إلى جنوب بلاد بارق، للاستفادة من ما بقي من الوقت قبل الظهر، فمررنا بالمُرتَمَض، الذي كنتُ حرصتُ على بلوغه، فالاسم يشي بِقِدَمِهِ حين وُسِمَ به المسمّى، فرأيته سهلاً صغيرًا، لا أجزم من نظرة عابرة بسبب تسميته، وقد جاء في (المصباح المنير): «رَمِضَتْ الفِصَالُ: إذا وَجَدَت حَرَّ الرَّمضاء فاحترقت أخفافها. . .»[1].

(1) أحمد بن محمد الفيومي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، مادة (رمض).

كنا قرب أعالي وادي جِبالٍ، فأفادني الأخ عبد الله الفقيه بأن وادي جبال يصب فيه وادي ثعيّب الجنوبي، ومنذ التقائهما حتى يصُبَّا في وادي بقُرة، يسمى ذلك المجرى البِرْداني.

وأفادني بأن هناك طريقًا مختصرة تمر بوادي بقرة، ثم تخترق وادي ثعيّب الجنوبي، حتى تصل إلى موضع يسمى (ابن عطِيفة) ـ وهي مكسورة الباء لا ألِفَ فيها في اللهجة المحلية ـ تحت جبل شَقَبان من الشرق، وفي ذلك المكان قبور يظهر من خلالها أنها تُحفر من أجل مواراة الموتى على عجل، إذ كانت ملجأ لقطّاع الطريق في الزمن الغابر.

وسألتُ الفقيه عن معنى الرهوة، فقال: هي منخفض للمرور بين جبلين أو قمتي جبل.

صلينا الظهر في مسجدنا الذي كنت قد صليت فيه الظهر بالأمس عندما خرجت من صعبان على الطريق الرئيسة، ثم قضينا بعض الوقت بانتظار الأخوين زاهر وحسن، اللذين أبلغا الفقيه أنهما هَيآ لنا الغداء، وأنهما جعلاه في موقع المطبخ؛ مراعاةً لظرفِ زاهرٍ، ولكي نستغل الوقت في الجولات، فالتقيناهما ـ زادهما الله من فضله ـ وتغدينا معًا، ثم إن زاهرًا اعتذر عن مرافقتنا بسبب ظرفه الخاص.

خرجنا ـ نحن الثلاثة ـ وقطعنا أعالي وادي دحدح، المنحدر من جبل هتمان، ثم قطعنا مجرى وادي خاط، وتركنا مفرق المجاردة عن أيماننا، وبعد أن بلغنا المفترق الآخر، الذي تتجه منه الطريق شمالاً إلى سبت شمران، أو غربًا إلى خميس حرب فالقنفذة، سرنا مستمرين نحو الغرب، فرأينا أسفل خاط قبل مصبه في يبة، وقد غمرته الأشجار الخضراء الدخيلة على البيئة، والتي تضيّق عليه الخناق، وتمتص ما يختزن تحته من الماء.

كانت وجهة الطريق جنوبية، ووادي يبة تحتنا من اليمين، فمررنا بقرية الطلاليع الوادعة بين جبل ووادٍ، حيث يفيء عليها ظل البكرتين، والتي ظهر اسمها في لوحات الطريق القادمة من خميس حرب، وهي لوحات تجاهلت الطريق المتياسرة نحو سبت شمران، وقفزت إلى ذكر محايل تاركة محافظة بارق.

التفّت الطريق بعد الطلاليع بسبعة كيلومترات نحو الغرب، بمحاذاة مجرى وادي يبة، وبعد ثلاثة كيلومترات انعطفت الطريق نحو الشمال، وقبل أن يحاذي قمتي



(13) مسلك في شِعب بين جبل ثربان وجبل فقعة يأتي من نحو مجازة قنونى.

البكرتين انحدر وادي يبة نحو الغرب، وهناك كانت طريق قديمة بين بلاد بارق والمجاردة في الشرق وبين القوز والقنفذة على الساحل، تسمى لَكَّةَ أُمِّ الخُرْص.

بلغنا خميس حرب، ثم توضّأنا فيها لصلاة العصر، وعدنا فوقفنا على بئر عِشَارٍ، أو ذاتِ أعشارٍ، فرأيناها بئرًا قديمة مطوية، أحيطت بجدار إسمنتي دائري، وماؤها كان قريبًا، وشجر العُشَر كان يكتنفها.

صلينا العصر في أحد المساجد على الطريق، وشاهدنا فيه إقبالاً على حلقةٍ لتعليم القرآن الكريم، ثم عدنا إلى بلاد بارق.

استأذنت صاحبيّ الكريمين، وخرجت من بلاد بارق قبل غياب الشمس، متجهًا إلى الجنوب، حيث جاوزت محايلاً قبل خروج الناس من صلاة المغرب، فسلكت طريق خميس البحر أو بحر أبي سُكينة، وكانت طريقًا لم يسبق لي السير فيها، كثيرة الجسور والمنحنيات، وحين تُقبل عليّ الشاحنات في المنحنيات أخفف السرعة التي لم تكن تبلغ الثمانين كيلومترًا في الساعة، فتمسي سرعتي نحو الأربعين أو الثلاثين، بل إنني اضطررت غير مرة إلى الوقوف حتى تجاوزني الناقلات الطويلة. وحين بلغتُ



(14) بئر ذات أعشار وغصن من شجيرة عُشَر.

خميس البحر رأيتها مدينة كبيرة، بلغت إضاءة شوارعها عَنان السماء، وهي ذات أسواق وأجهزة صِرافة.

بعد خمسة وعشرين كيلومترًا خرجت من ضيق الجبال إلى فسحة السهل الساحلي والطريق الواسعة، ثم مررت بالشُّقَيْق، فالدرب، حيث أخذت منها عَشائي، وبعد أن خرجت منها مِلتُ عن الطريق فتعشيت.

ثم إني مررت ببَيْشٍ فصبْيَا، ثم بلغتُ أبا عريشٍ، حيث التقيت أخي الكريم الأستاذ عبد المجيد بن عبد الله الصعب، فبتُّ عنده.

❖ رابع أيام الرحلة: الخميس 2 من صفر سنة 1435هـ:

ذهب الأخ عبد المجيد إلى مركز التدريب التربوي، بينما استغرقت في نومي حتى عاد إليّ، وبعد أن صلينا الظهر وأتْبعتُها العصر، خرجنا نحو مدينة جازان، حيث تغدّينا فيها، ثم اتجهنا إلى مطار جازان، فاستقبلْنا الإخوةَ خالدَ بن عبد العزيز الجبرين وأحمدَ ابن عبد الله الصعب وعبدَ الله بن سعد النغيثر، فسار بنا عبد المجيد لمشاهدة مظاهر نهضة جازان، ثم استرحنا عند شاطئ المرجان ـ وهو اسم تنظيمي ـ فأصلحنا قهوتنا وشاينا، وقبل مغيب الشمس وُقِفَتْ علينا سيارة تحمل مصلًّى متنقِّلا، ففُرشتْ البُسُطُ، وأذّن إمامه، فصلينا خلفه صلاة المغرب، ثم صلى بعضنا صلاة العشاء على إثرها.

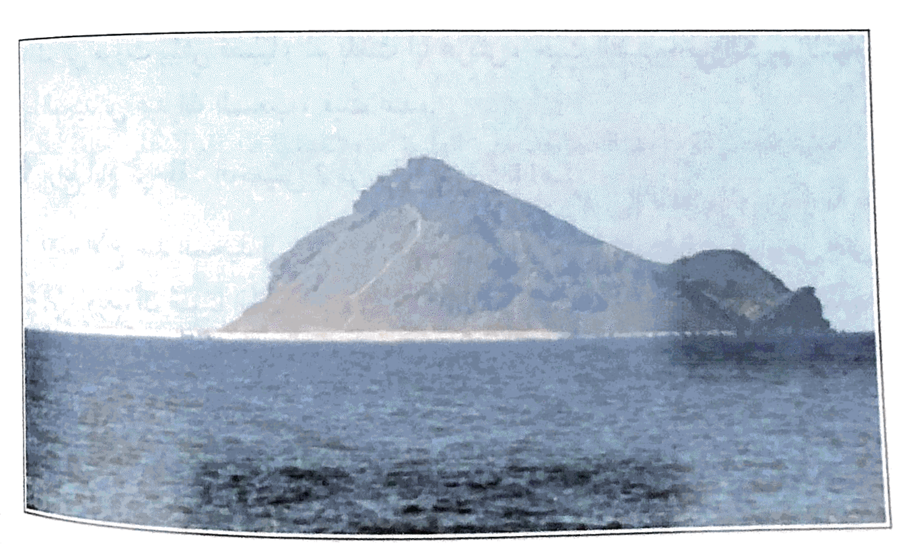
عدنا إلى شُقّة عبد المجيد السكنية، وجاء إلينا زميلاه عبد العزيز بن سفر الشهراني وعبد العزيز بن مسعود الخنفريّ القحطاني، وأولم لنا وليمة العشاء ـ زاده الله من فضله ـ ونقلها إليه صاحبه خالد بن محمد الزريّر التميمي.

وحيث طاب لنا السمر والحديث مع أولئك الأخيار، فإننا لم ننم إلا بعد الثانية عشرة.

❖ خامس أيام الرحلة: الجمعة 3 من صفر سنة 1435هـ:

صلينا الفجر جماعةً، ثم أصلح عبد المجيد القهوة، فاحتسيت منها فنجانًا واحدًا، ثم إني ودعت أولئك الإخوة الأماجد، الذين ما فتئوا منذ البارحة يحاولون أن يثنوا من عزمي عن العودة إلى الدوادمي، لأصحبهم في رحلة صيد بحرية نحو جزيرة القاضية.

كنتُ أسير وأتأمل، فعجبتُ من سعة وادي بَيْشٍ، وحين وصلت إلى الدرب، سرت في الطريق الساحلية، فظهرت عن يميني جبال بركانية ما هي إلا حِلاءٌ، ثم خرجت من الطريق المعبدة نحو اليسار إلى شاطئ البحر، حين أبصرت طريقًا تتجه لتقابل جبل كُدُمُّل، أو كُدُمْبُل كما يسمى اليوم، وهو جبل أسود في عُرض البحر، تبلغ المسافة بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلومترات، وتبلغ قمته نحو خمسة وخمسين مترًا.



(15) جبل كُدُمُّل في عُرض البحر.

• هُنَيهَةٌ أمامَ جَبَلِ كُدُمُّل

قال الهمداني (280 ـ نحو 360هـ) في (صفة جزيرة العرب): «سميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها... ويفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب خط يأخذ من حدود عمان ويبرين إلى حد ما بين اليمن واليمامة، فإلى حدود الهجيرة وتثليث وأنهار جرش وكتنة، منحدراً في السراة على شعف عنز، إلى تهامة على أم جحدم، إلى البحر حذاء جبل يقال له كدمُّل، بالقرب من حمضة، وذلك حد ما بين بلد كنانة واليمن من بطن تهامة»[1].

وقول الهمداني هذا يخالف قول البكري ـ الذي سيرد ـ بامتداد نجد إلى جُرش.

وقال ابن خرداذبه (نحو 205 ـ نحو 280هـ) ـ رحمه الله ـ في (المسالك والممالك): «ثم إلى سروم راح: قرية عظيمة فيها عيون وكروم، وجُرش منها على ثمانية أميال، ثم إلى المهجرة: قرية عظيمة فيها عيون، وفي ما بين سروم راح والمهجرة طلحة المُلك: شجرة عظيمة تشبه شجر الغَرَب غير أنها أعظم منه، وهي الحد ما بين عمل مكة وعمل اليمن، ثم إلى عرقة، وماؤها قليل ولا أهل فيها، ثم إلى صعدة»[2].

وقال قدامة بن جعفر (000 ـ 337هـ) ـ رحمه الله ـ في المنزلة الخامسة من (كتاب الخراج): «ومن شروم راح[3] إلى المهجرة وهي قرية عظيمة جبلية كثيرة العيون والأهل، وفي ما بينها وبين شروم راح شجرة تسمى طلحة المُلك، وهذه الشجرة حدُّ ما بين اليمن والحجاز، وهي شجرة تشبه شجر الغَرَب إلاّ أنها أعظم، وكان النبي ﷺ حجز بها بين اليمن ومكة»[4].

---

(1) الهمداني، **صفة جزيرة العرب** (مصدرٌ تقدَّم)، ص (90).

(2) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، **المسالك والممالك**، ليدن، مطبعة بريل، 1306، ص(135).

(3) اختلف ضبط حرفها الأول، بين الإهمال والإعجام، وأرجّح كونها بالمهملة، استئناسًا بما ورد في (صفة جزيرة العرب).

(4) أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي، **الخراج وصناعة الكتابة**، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، ط 1، 1981 م، ص (82).

وقال البكري (000 ـ نحو 487هـ) في مقدمة (معجم ما استعجم): «وأما نجد، فما بين جُرَشٍ إلى سواد الكوفة، وآخر حدوده مِن ما يلي المغرب الحجازان: حجاز الأسود وحجازُ المدينة. والحجاز الأسود: سراة شنوءة»[1].

إننا لو رسمنا خطًّا بين جبل كدُمّل وطلحة الملك لبلَغ مائة وثلاثة وتسعين كيلومترًا، على الدرجة (94)، أي نحو مطلع الشمس، وهذا يجعل جُرَش خارجةً من إشراف اليمن، ولو عامدنا على هذا الخطّ خطًّا نحو وادي بقْرة لبلغَ تسعة وتسعين كيلومترًا، بل يبلغ عند وادي شري مائة وعشرين كيلومترًا. ووادي شري يقع في الثلث العَرْضي الأوسط من بلاد بارق.

هذا يجعل بلاد بارق في عُمق الإشراف المكي، فإذا أرسل أمير مكة العباسي واليًا على سوق حباشة، فليس من الرأي أن نقصر إشرافه على قنونى، وبلاد بارق في حدودها الحاليّة، بل إن أعالي وادي حلي تبعد عن بقرة سبعين كيلومترًا، أي إنها داخلة ضمن الإشراف المكي.

غادرت شاطئ البحر عند جبل كُدُمّل، ثم مررت بالقحمة، بلدةٍ كبيرة ناهضة، ثم بذهبان، وتطلّعت عن يميني لعلّي أجد طريقًا معبّدة نحو معدن ضنكان، لكني لم أرَ طريقًا إليه ولا دربًا، فذهبت إلى بِرْكٍ، وهي التي رسخ في أذهان الباحثين أنها بَرك الغماد، فرأيت أن أصعد في حرتها، فربما أجد طريقًا إلى ضنكان.

صعدت الحرة، وسألت شابًّا مهذّبًا عند محطة وقود: هل هذه الطريق تبلّغني ضنكان؟ فقال: لا أعرف ضنكان ولكن الطريق تنتهي إلى محايل!

شكرتُه موقنًا بأني إن بلغت ضنكان وإن لم أبلغها فإن الوصول إلى محايل كفيل بسيري على طريق مسلوكة.

لقد تبيّنتُ أن حرة بِركٍ من أكبر الحرار وعورة ـ إن لم تكن أقساها ـ وحين أطلّت الطريقُ على وادي العين، وقفتُ راحلتي عليه فصورته، وصورت جبل التيس من خلفه. ووادي العين أطول كثيرًا من وادي البرك.

(1) البكري، **معجم ما استعجم** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (1)، ص (16).

البِرْكُ لَيْسَتْ بَرْكَ الغماد

• ورد في كتاب لغدة الأصفهاني الذي اختار له الشيخ حمد الجاسر اسم (بلاد العرب)، ما نصه: «وَيَبَةُ: واد باليمن، وهو تهامي. والأحسبة: واد ينصب من السراة إلى برك الغماد»[1].

ليس مع هذا النص اجتهاد؛ إذ إن برك الغماد يصب عليها وادي الأحسبة. وذهب معظم الباحثين إلى أنها البِرْكُ الواقعة بين عَمْقٍ وذَهبانَ، جنوبًا غربيًّا من محايل. وقد جمع بينهما ياقوت، فقال: «وهو موضع وراء مكة بخمس ليال، من ما يلي البحر، وقيل بلد باليمن»[2]، فهو هنا قد جمع بين برك الغماد في أول القول، وبين البِرك في آخره. وقال في موضع آخر: «بِرك: ناحية باليمن، وهو بين ذهبان وحلي، وهو نصف الطريق بين حلي ومكة»[3]، وقد أصاب موقعه في أول التعريف، ولكنه جاء ببرك الغماد في آخره، وإن كانت برك الغماد ليست نصف الطريق بين حلي ومكة، فهي إلى حلي أقرب كثيرًا منها إلى مكة.

وورد عند الواقدي تحديد برك الغماد هذه، فقال: «وبرك الغماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل من ما يلي البحر وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن»[4].

وممن حدد البِرك الجنوبية، أبو عمرو الشيباني فقال: «قال أبو المستورد: البِرْكُ: جبل بين حلي وضنكان»[5]، وحددها الهمداني في (صفة جزيرة العرب)، فقال: «وفي حرّة كنانةٌ من تهامة: البِرك والبريك»[6]، ووصف البرك ـ لغةً ـ في موضع آخر، فقال: «البرك: حجارة مثل حجارة الحرة، خشنة وعثة متعاضة، يصعب المسلك

(1) الحسن الأصفهاني، **بلاد العرب**، حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، دار اليمامة، (لم تدوَّن سنة طبعه)، ص (416).

(2) الحموي، **معجم البلدان** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (1)، رسم (برك الغماد).

(3) الحموي، المصدر نفسه، ج (1)، رسم (البِرك).

(4) محمد بن عمر الواقدي، **المغازي**، د. مارسدن جونس، بيروت، عالم الكتب، ط 3، 1404هـ/1984م، ج (1)، ص (48).

(5) أبو عمرو الشيباني، **الجيم**، ترتيب: عادل عبد الجبار الشاطي، بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 2003 م، ص (36).

(6) الهمداني، **صفة جزيرة العرب** (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (273).

فيها»[1]، وهذا شأن أرض البِرك بقُرْبِ ذهبان، فهي في طرف هذه الحَرة، التي نسبها ياقوت والبكري إلى بني هلال، ونسبها من قبلهما الهمداني إلى كنانة.

إن القارئ حين يَطّلع في المصادر فإنه يراها ذكرتها باسم البِرك، مجرّدًا ومُعرَّفًا.

إن محاولة تطبيق نهاية رحلة أبي دهبل الجمحي في بَرك الغماد على البِرك هذه، أوقعت الباحثَينِ الكريمَينِ، الشيخ الدكتور عاتق بن غيث البلادي والأستاذ الدكتور أحمد بن عمر الزيلعي في مشكلة التأويل؛ فقد قال البلادي: «ثم نرى أبا دهبل في خروجه من مكة يقول من قصيدته الميمية، التي ذكرنا بعضها في عُليب:

فَقُلْتُ لها قَدْ [تِعْتِ] غَيْرَ ذَمِيمَةٍ   وَأَصْبَحَ وَادِي الْبِرْكِ غَيْثًا مُدَيَّمَا

وليس لبرك الغماد وادٍ، ولكنه كلام الشعراء، يحسِّنون به اللّفظ، ويقوِّمون به الوزن، ويطابقون به القافية، وهذا القول حدا بي أن أقول في أحد مؤلفاتي (بين مكة وحضرموت) إن للبرك واديًا؛ لأني لم أرها آنذاك، فعولت على قول أبي دهبل؛ باعتباره مشاهَدًا[2]. وضبطها ياقوت بقوله «برك الغماد، بكسر الغين المعجمة: موضع وراء مكة بخمس ليالٍ من ما يلي البحر، وقيل بلد باليمن دفن عنده عبد الله بن جُدعان التيمي القرشي، قال الشاعر:

سَقَى الأَمْطَارُ قَبْرَ أَبِي زُهَيْرٍ   إِلَى سَقْفٍ إِلَى بِرْكِ الغِمَاد

كذا ضبطها بكسر الباء، وهو الصواب، ويرحم الله ياقوتًا؛ فهي وراء مكة بأكثر من عشر ليال لا خمس ليال»[3].

وقال الزيلعي: «أما المحطة الأخيرة لناقة أبي دهبل، فإن أي عارف بالمنطقة حينما يحقق مرورها على البرك، فإنه لن يدور بخلده أي موضع آخر غير موضع البرك الحالي، على الرغم من إيرادها مضافة إلى كلمة (واد)، والدليل على ذلك أن البرك ليس لها واد مفرع، كما هو الحال بالنسبة لأودية يلملم والليث وعليب ودوقة، يضاف

(1) الهمداني، المصدر نفسه، ص (323).
(2) كلام أبي دهبل صحيح؛ ولكن تأوُّل البرك بأنها برك الغماد صرف الباحثين عن دقة الاستقراء.
(3) البلادي، **بين مكة واليمن** (مرجعٌ تقدّمَ)، ص (218). ونلاحظ اتهام البلادي أبا دهبلٍ بتحسين اللفظ بذكر وادٍ للبرك؛ وما ذلك إلا بسبب ثقته بالفكرة المحددة في ذهنه من قبلُ، فحالت فكرته دون تفكُّره.

إلى ذلك عدم وجود[1] ممر آخر شرقي البرك أو غربيها؛ بسبب الظروف الطبيعية المتمثلة في حرتها الوعرة إلى الشرق، وفي البحر إلى الغرب. ولعل كلمة (وادٍ) هنا لم تأت لكون البرك يقع على واد ظاهر ومشهور، وإنما للضرورة الشعرية[2]، أو لوجود منخفض إلى الشمال منها، ربما يخيّل للقادم إليها لأول وهلة أن ذلك المنخفض ما هو إلا مجرًى لواد، مثل غيره من الأودية المذكورة[3].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أثارت السرعة العجيبة التي سارت بها ناقة أبي دهبل بين مكة والبرك، وطول المسافة التي قطعتها بينهما في وقت قياسي، كثيرًا من علامات الاستفهام لدى بعض الحاضرين عند [إلقاء] هذا البحث، والذين رأوا أنه من غير المعقول أن تقطع ناقة، مهما أوتيت من القوة والسرعة، في ليلة واحدة حتى ضحى اليوم التالي مسافة تقدَّر حاليًّا بحوالى (450) كيلومترًا، وفسروا ذلك على أنه نوع من التهويل والمبالغة الشعرية... ومع ذلك، فلا نستبعد أن أبا دهبل كان قد توقف في مكان ما، ربما في دوقة، أو في منزلة أخرى بعدها، ولم يصل إلى البرك إلا في صباح اليوم التالي، وإلا فكيف نوفق بين قوله إنه مر على دوقة في الضحى ووصل إلى البرك في الصباح! إلا أن يكون ذلك الوصول في صباح اليوم التالي[4]. فإذا صحت هذه الفرضية، فربما تكون بعض أبيات القصيدة قد فقدت منها، وفقد معها ذكر منازل أخرى بعد دوقة، ومنها: قرما والأحسبة، وقنونا وبية وحلي»[5].

• بَرْكُ الغماد مَوْضِعَانِ

ورد ذِكر بَرك الغماد في السيرة النبوية الشريفة في مواضعَ ثلاثةٍ:

- الأول منها يخص مكاننا هذا؛ ففي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حين أراد أن يهاجر إلى الحبشة، جاء عند البخاري رحمه الله (194 ـ 256هـ) في باب

(1) من الأغلاط الشائعة في كلامنا: (عدم وجود)، والكلمتان لا تلتقيان، ويغني عنهما كلمة: (تَعَذُّر)، أو جملة: (أنه لا يوجد).
(2) أجل، هي الضرورة الشعرية لكلمة (الأحسبة)، وأما هنا، فلو كان هذا الموضع هو المعني لقال: ساحُ البرك، أو نحوًا منها.
(3) هذا تعليل غير مقبول؛ فأبو دهبل يتحدث عن مواضع عرفها وشاهدها من قبل.
(4) حددت مسير أبي دهبل في جدول ضمن رحلتي الميدانية الأولى، وذكرت بعده شرحًا لإصباح الوادي.
(5) أ.د. أحمد بن عمر الزيلعي، مقاله الذي تقدّمَ ضمن كتاب الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، ص (504).

ما جاء في ابن الدغنة وأبي بكر الصديق، من (الجامع الصحيح) بسند متصل إلى عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: «لم أعقل أبويَّ قطُّ إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي! قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج؛ إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار! ارجع واعبد ربك ببلدك...»[1].

وبرك الغماد التي بلغها أبو بكر رضي الله عنه، هي هذه التي يصب عليها الأحسبة، وهي التي انطلق منها مهاجرو المسلمين في البحر نحو ساحل الحبشة، وهو ما سيجعل محققي مواضع السيرة النبوية يقفون طويلاً أمام البحث المهم الذي كتبه الدكتور عبد الله الطيب رئيس مجمع اللغة العربية في السودان، ونشرته مجلة (العرب) والذي كان عنوانه (أَإِلى الحبشة أم السودان كانت هجرة المسلمين؟)[2]، والذي ليس من مهام بحثنا في الطريق إلى سوق حباشة.

- والثاني والثالث يعنيان موضعًا في أقصى اليمن. فقد أورد عبد الرزاق الصنعاني (126-211هـ) في (المصنف) بسنده حديثًا في سياق غزوة بدر الكبرى، وفيه: «فلما جاء المشركون صافُّوهم، وكان النبي ﷺ قد استشار قبل ذلك في قتالهم، فقام أبو بكر يشير عليه، فأجلسه النبي ﷺ، ثم استشارهم فقام عمر يشير عليه، فأجلسه النبي ﷺ، ثم استشارهم فقام سعد بن عبادة فقال: يا نبي الله: والله لكأنك تُعَرِّضُ بنا منذ اليوم لتعلمَ ما في نفوسنا! والذي نفسي بيده لو ضربتَ أكبادَها حتى تبلغَ بَرك الغماد من ذي يَمَنٍ لكنّا معك!»[3].

(1) محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، بيروت، عالم الكتب، ط 5، 1406هـ/ 1986م، ج(5)، ص (154).

(2) ينظر: مجلة **(العرب)**، ج (9، 10)، السنة (30)، الربيعان 1416، ص (596).

(3) الصنعاني، **المصنف** (مصدرٌ تقدّم)، ج (5)، ص (348).

وأورد أبو بكر ابن أبي شيبة (159 ـ 235هـ) ـ رحمه الله ـ في كتاب الفتن من (المصنف) بسنده إلى أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: «أقبل رسول الله ﷺ من سفر، فلما دنا من المدينة تعجل قوم على راياتهم، فأرسل فجيء بهم، فقال: ما أعجلكم؟ قالوا: أوليس قد أذنت لنا؟ قال: لا، ولا شبّهت، ولكنكم تعجلتم إلى النساء بالمدينة. ثم قال: ألا ليت شعري متى تخرج نار من قبل جبل الوِرَاق تضيء لها أعناق الإبل بروكًا إلى برك الغماد من عدن أبين كضوء النهار»[1].

لقد بيّن لنا الهمداني موضع برك الغماد المقترن بأبين، فقال: «وفي الحديث أن أبا الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: لو أعيتْني آيةٌ من كتاب الله عزَّ وجَلَّ، فلم أجد أحدًا يفتحها عليَّ إلا رجلٌ ببَرك الغماد لرحلتُ إليه. وهو أقصى حجر باليمن. ذكر برك الغماد، ثم ذكر موضعه من قصور اليمن. قال أبو محمد: قد ذكر برك الغماد محمد بن أبان بن حريز الخنفري، وهو في بلد الخنفريِّين بناحية حِنْوَيْ مَنْعِجِ، فقال:

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ أَمْسَى بِغَوْرٍ مَحَلُّها   بِبَرْكِ الغِمادِ فَوْقَ هَضْبَةِ بارِحِ

هذه مواضع في منقطع الدُّمينة وعزازة من سفليّ المعافر. البرك حجارة مثل حجارة الحرة، خشنة وعثة متعاضّة، يصعب المسلك فيها»[2]. وتبيّن لي من تتبع المواضع في كتاب (معجم البلدان والقبائل اليمنية)[3] أن حنوي منعج حيث ينحني واديا حسّان وبَنَا متوازيين بعد اقترابهما من الساحل بأزيد من ثلاثين كيلومترًا، حيث يصبان في خليج عدن على طرفي مدينة زنجبار الواقعة بينهما، وأما بلد الخنفريين فاسمها اليوم جُعار، شمالاً من زنجبار، وشمالاً شرقيًا من عدن بنحو خمسين كيلومترًا، ولم أرَ لهضبة بارح ذكرًا في الخرائط أو المؤلفات الجغرافية اليمنية التي اطلعتُ عليها.

عودٌ على الرحلة:

واصلت سيري فوق ظهر الحرة، فمررت ببلدة بني هلال، ثم بواديين عُذريَّين

(1) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، تحقيق: محمد عوامة، بيروت، دار قرطبة، ط 1، 1427هـ/ 2006م، ج (21)، ص (122).

(2) الهمداني (مصدرٌ تقدّم)، ص (323).

(3) إبراهيم بن أحمد المقحفي، **معجم البلدان والقبائل اليمنية**، صنعاء، دار الكلمة، 1422هـ/ 2002 م، في صفحاتٍ متعددة.

جميلين هما ذَرَى والجبلين، قبل الوصول إلى محايل، التي وصلت إليها قبل الثانية عشرة، فسمعت دويَّ انفجار عن يساري في أحد المستودعات، حيث رأيت غباره، ولعله كان انفجار أنبوبة غاز. لقد ظننته شاحنة طحنت سيارتي، حين رُجّت الأرض من تحتي، فسبحان الله!

مررت ببلاد بارق، واستطعت أن أجد موقفًا بالقرب من جامع عمر بن الخطاب، ورضي الله عن الفاروق عمر، وقد اكتظ المصلون فيه، فوقفنا خارج الجامع حتى أقيمت الصلاة، وبعد قضاء الصلاة، تحدث أحد المصلين، فشكر الإمام على خطبته القيّمة، ونَبَّهَ إلى أن هذا التزاحم كان بسبب هدم أحد الجوامع القريبة لتوسعته.

خرجت من الجامع نحو الطلاليع، حيث سرت في الطريق التي سرنا فيها يوم الأربعاء المنصرم، حيث أمست السحب تغازل البكرتين، وكادتا تُرضِعان السحاب أو تَرْضَعانه.

اجتزت موضع الحضنة من بَعدِ ذات أعشار، حين انفرجت الجبال، ثم جاوزت خميس حرب، فمررت بوادي شِسَع، الذي جعلت إليه السيارات مسلكًا بين غابات من أشجار العُشَر الكثيبة.

خرجت على المجازة من قنونى، عند جزع الوادي حين يخرج من بين الجبال العالية، وتلك بداية صدره، ثم صعدت في قنونى نحو كيلومتر واحد، فرأيتُ السلوك فيه من هذه الناحية أثناء سيله ضربًا من المغامرة، ثم عدت أدراجي إلى حيث المجازة الجنوبية، حيث ينعطف الوادي بعدها لتظهَر مجازةٌ أخرى أعرضُ منها وأوسع أرضًا، وليس بين المجازتين مسافة تُذكَر، ثم بلغتُ سبت الجارة، بلدة كبيرة كنت قد مررت بها في رحلتي الأولى، غير أني أطَلت التأمل في طبيعة الأرض حولها.

كنت أريد الوقوف على سوق الحواري وحداب القرشة[1]، الذي لم أقف عليه من قبل.

سألت أخوين سودانيين عما إذا كانت الطريق معبدة في قنونى نحو الفائجة، فأخبراني بأنها معبدة كلها، غير أن في بعض أجزائها إصلاحات. ثم وصفا لي بداية الطريق، فسلكتها، وصعدت مع وادي قنونى، فصعدت بي الطريق إلى أعلى من مائة

(1) بيّن الأستاذ سعيد بن عبد الله آل زايد القرني، في (المعجم الجغرافي لبلاد بلقرن)، ص (88)، أن الحواري عدد من البيوت المتناثرة على وادي راف. وعلى هذا فإن الموقع المعني يقع شرقي حداب القرشة وغربي الحواري.



(16) المجازة الكبرى من قنونى جنوبًا من سبت الجارة.

متر عن جنَبَة الوادي اليسرى، حيث رأيت سدًّا لـمّا يبلغْ بنيانُه تمامَه، تحت جبل الحازم، يَحجزُ خلفه سيل قنونى حين يهبط فيه وادي جبجب المنحدر من جنوبي جبل ثميدة، ولا تسل عن جمال جبل ثربان من خلف أعالي الأودية.

• جَوْلَةٌ في سُهُوبِ حِدَابِ الْقَرْشَةِ

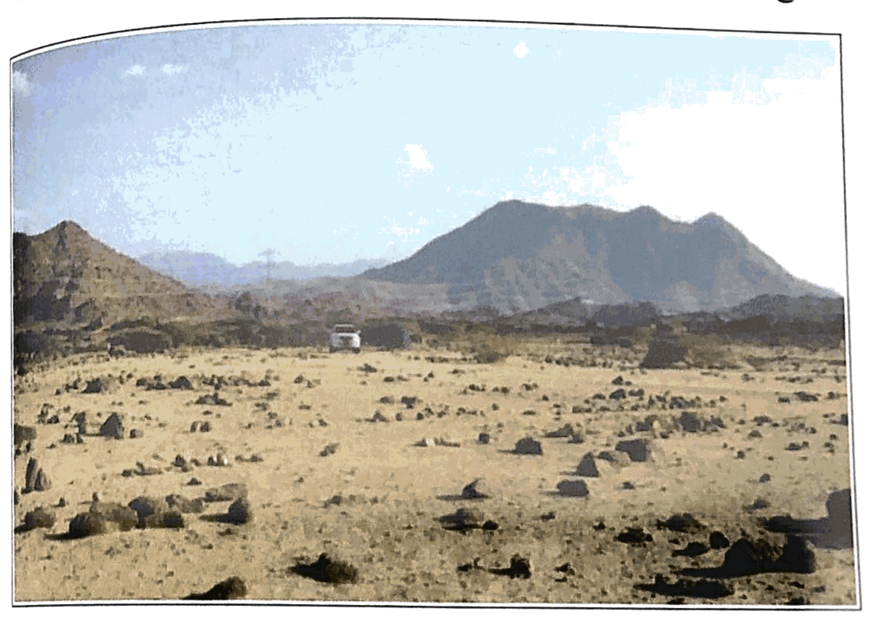
حين حاذيت وسط جبل مِنْبِل، بدأت أدخل في السهوب التي ظهرت في الخريطة الدقيقة قليلة الحجارة أو قليلة ارتفاع الأرض؛ كي لا يفوتني منخفض من غير أن أدخل فيه؛ تحرّيًا مني عن موقع السوق التي حددها حسن الفقيه وتابعه عليه الرزقي وأبو داهش، وكلما انتهيت إلى أعلى تلعة عدت إلى أسفلها كي أدخل في جارتها، وعند أعلى التلعة الثالثة استطعت أن أهبط على التلعة الرابعة فوق خط ممهد بجانب أعمدة الكهرباء، فلاحت مني التفاتة نحو اليسار، فإذا بأعمدة هيئة السياحة الشواخص تحيط بأرض، عرفت من خلال رؤيتها أنها التي صوّرها فريق الصحراء وأبو داهش.

جوّلتُ في هذا الموقع، ثم أذّنتُ لصلاة العصر فصلّيتُ، مفتيًا نفسي بأن هذه الركام المبعثرة ـ وإن كان بعضها قبورًا ـ فإن مساواة الزمن إياها بالأرض كفيلة بأنْ أُصلّيَ في بقعة نظيفة منها.

بعد أن صليت، قابلني رجل من بلحارث بلقرن، مرحّبًا، ولم يسألني عن سبب مجيئي إلى هنا، لكنني سارعت إليه بالرد على تحيته والسؤال عن السوق، فكان اسم سوق حباشة قد طرق سمعه مع الرائحين والغادين الباحثين، وكأنما كان غير مصدّق بهذه السوق، فتجوّلت وإياه على أرجلنا، وهو يقول: هذا قبر، وهذه مسطبة، لا أدري أيوضع عليها المتاع أم هي للنوم، وهذا قبر منبوش!

ولقد ألحّ الرجل عليَّ فأطال؛ لأجيب دعوته للعشاء هذه الليلة، ولكني شكرته على أريحيته وفضله، وقد سمّى لي نفسه، غير أني اعتمدت على ذاكرتي فخشيت أن أخالف بين اسمه واسم أبيه. فعليه مني السلام وله من الله الإكرام.

وقد سجلت نقاطًا في زوايا هذا الموقع، مجاوزًا ما أحاطت به أعمدة هيئة السياحة، فتبينت أن هذا الموقع، الذي تملأ ساحته حجارة المقابر الجاهلية المبعثرة، والصخور التي تنتشر في بعض أنحائه، والكتل الهَضْبية التي تخفي بعض الناس عن بعضٍ، لم تبلغ مساحته خُمسيْ كيلومتر مربع، وتكاد البقاع الصالحة لإقامة سوق فيه لا تبلغ ثلث تلك المساحة.



(17) منظر من متسع الأرض شرقي حداب القرشة ويظهر جبل منبل.

خرجت من الموقع مخترقًا الفائجة فالمعقَّص فنمرة، ثم المخواة، حيث صعدت مع عقبة حُزنة إلى بلجرشي، وهي عقبة مخيفة؛ ففي أسفلها خطرُ تساقُطِ الصخورِ تهوي هُوِيًّا، حيث جوانب الجبال شاهقة، وفي أعاليها تزداد الانحناءات المزعجة.

مررت بمكتبات بلجرشي - وهي عادتي كلما بلغتها - ثم بسوق الخضروات والفواكه، ثم خرجت نحو الباحة، فتعشيت حين خرج الناس من صلاة العِشاء، ثم جاوزتها، فاستأجرت غرفة سكنية، وبتُّ فيها.

❖ سادس أيام الرحلة: السبت 4 من صفر سنة 1435هـ:

صليت الفجر، وآنستُ حاجتي إلى الراحة، فنمت حتى الثامنة، ثم اغتسلت، وقرأت أخبار الأمس واليوم على الشبكة العالمية، ولكني لم أهيئ قهوة كما جرت بذلك عادتي.

خرجت على طريق الأطاولة، وما إن وصلت إلى تربة حتى كاد رأسي ينفجر، فنمت بعدها قبل الظهر في ظل سيارتي، وقمت فلم أشعر بخفّة الألم، ولمّا أردت تهيئة القهوة كانت الريح تعصف بالمكان، فجعلت في راحة يدي قبضة ثلاثِ أصابعَ من القهوة المطحونة فابتلعتها، ثم سرت في طريقي، وبعد نحو ربع ساعة من الزمن أحسست بالعرق يتصبب من جبيني، وخِفَّةً في رأسي، فعلمت أن كل ألم أحسسته منذ الصباح كان سببَه تركُ القهوة.

وصلت إلى الخرمة ثم إلى ظلم، ثم إلى عفيف، فالبجادية، وغابت الشمس بعد وادي الرشاء، فصليت هناك، وبلغت الدوادمي حين وقبَ غسقُ الليل.

وبلغ مجموع ما سِرته في سيارتي ألفين وثمانمائة وخمسين كيلومترًا، يضاف إلى ذلك ما يزيد عن المائتي كيلومتر، قطعتها في بلاد بارق، صحبة الإخوة البارقيين بسيارة عبد الله بن محمد الفقيه.

والحمد لله على السلامة في البدن والأمن في الوطن.

خطوط العرض والطول لبعض المواضع المذكورة في الرحلة

الموضع	خط العرض			خط الطول			تفصيل
	ثانية	دقيقة	درجة	ثانية	دقيقة	درجة	
نقطة في وادي ألِف أبيدة	55	40	20	41	24	41	
جبل الخرباء (الصَّلّة)	36	59	18	10	50	41	جبل فاتح اللون أشقرُه
قَرن مَخْلَد	37	57	18	03	51	41	قمة الجبيل نفسها
المحاجي السّت	35	56	18	18	50	41	نقطة وسط بينها
الغار المكتَّب (مُكَتَّبْ)	20	56	18	40	48	41	صخرة ذات نقوش
أربعة قبور جاهلية	13	57	18	27	50	41	شرق الجهفة
نقطة على درب الجمّالة	02	57	18	20	50	41	
قبور إسلامية	02	57	18	16	50	41	على درب الجمالة
الجِهفة	03	57	18	11	50	41	منخفض في وادي الحباب
قبور جاهلية مرتفعة	08	57	18	16	50	41	على طرف شِعب المحانذ
امتداد قرن مخلَد الصخري	44	57	18	53	50	41	شمالا غربيا من القرن
المرتَمَض	45	51	18	45	59	41	سهل صغير جنوبيّ بارق
ابن عَطِيفة	40	50	18	40	56	41	من Google Earth
مبدأ طريق لَكّة أم الخُرص	05	00	19	00	44	41	ينحدر مع بية نحو القنفذة

الموضع	خط العرض			خط الطول			تفصيل
	ثانية	دقيقة	درجة	ثانية	دقيقة	درجة	
قمة البكرتين (الجنوبية)	14	02	19	58	43	41	ارتفاعها نحو 1125 مترا عن مستوى البحر
ذات أعشار (بئر عِشار)	12	06	19	14	38	41	والاسم يشمل الوادي
جبل كُدُمُل (كدمُبل)	30	53	17	30	41	41	من Google Earth
نقطة في وادي العين	10	17	18	10	37	41	في حرة البِرك
المجازة من قنونى	00	15	19	20	28	41	مخاضة لا بُدَّ من سلوكها
موقع سهب حباب القرشة	50	25	19	30	37	41	نقطة وسطية

• الرِّحلَةُ الْمَيْدَانِيَّةُ الرَّابِعَةُ

بدأت رحلة طويلة في عطلة الربيع، شملت القصيم فالمدينة فمكة ـ شرفهما الله ـ، حيث نمت في نهاية اليوم الثالث في خيمتي في غربي جبل ثور، في طرف جبل لبنات، وبلغت الحرارة عشرين درجة مئوية.

❖ رابع أيام الرحلة: الأحد 18 من شهر ربيع الأول سنة 1435هـ، وقد وافق 19 من كانون الثاني (يناير) سنة 2014م:

بعد تجوال في مكة المشرفة، خرجت نحو طريق اليمن، جاعلاً جبيل سامي المنظر أو ما يسمى اليوم بُرَيْق المنظر عن يميني وسوق الخضار عن يساري. وذلك الجبيل هو الذي كانت تصعد عليه قريش منتظرة قدوم قوافلها من اليمن، وقد بيَّنه الشيخ الدكتور عبد الملك بن دهيش ـ رحمه الله ـ في تحقيقِهِ كتابَ (أخبار مكة) للفاكهي[1].

(1) الفاكهي، **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، بيروت، دار خضر، ط2، 1414 / 1994، ج (4)، ص (195).

عارضت طريق غير المسلمين، وسرت نحو الشرق في وادي ملكان، وسلكت في طريق البيضاء نحو اليمين، فجاوزت مجريَي واديَي الوَكَف ودُفَاقٍ، وقد طمر السيل الطريق فيهما فضاعت معالمها، وكان جبل لَبَن الأسود عن يميني، وهو ـ لا ريب ـ كان عن يسار أبي دهبل الجمحي يوم سار بالعجاجة. ولجبل لبن قمة مرتفعة في وسطه، ثم بلغت وادي أَنَفَةَ الذي يفصل بين لبنين، وكان عن يميني جبل لبن الجنوبي، وهو جبل ململوم كبير أشقر.

ثم بلغت وادي الخانق الذي يصب على البيضاء، وأنا أسير فوق طريق جيّدة شُق مسارها بين الجبال، غير أنها لم يخصص فيها عبّارات فوق مجاري الأودية. وقد تركَت الطريقُ البيضاءَ بيمينها، ثم خرجت على وادي دامٍ، وهو واد واسع، وعليه مزارع كثيرة، ورأيت فيه سيارة غارقة من قبلُ قد صدئت، ولم يبقَ منها إلا لوحتها المرورية ذات الطلاء الجيد. ومن الأودية التي حفظت أسماءها الفصيحة وادي ذات السرح، ويبدو أن شجره انقلب إلى سلَم وطلح ومرخٍ، ولم أشاهد فيه سرحة واحدة، ويشرف عليه من جنوبيه جبلٌ أسودُ غريبُ الاسم، غير مرتفع يسمى فجَّ الخلاء، وكانت جبال أكتاف عن يميني، وهي ذات رؤوس متصلة من غير اليسير صعودها، وحين التفّت الطريق قليلاً نحو اليسار كان أمامي نحو اليسار جبل هِجذا، عالٍ ذو رأسين عاليين بين جبال أخرى.

ثم مررت بصدر وادي يلملم، وهو وادٍ طيني صخري، ثم خرجت منه على أرض واسعة، وبعدها بلغت بلدة السعدية، وهي على وادي يلملم، والوادي في ناحيتها رملي مشوب بِطين.

خرجت على الميقات فاغتسلت وجددت لباسي، ثم صليت الظهر في مسجد الميقات وأتبعتها العصر، واسترحت قليلاً، ثم سرت في الطريق الساحلية، حتى حاذيت هضاب أبي صادع، فخرجت إليها واخترقتها، فرأيت سيارات المتنزهين في بعض ملاذاتها؛ مما جعلني أكتفي باختراقها من أوساطها.

وحين بلغت مدينة الليث، أخذت باليسار نحو غُميقة، فرأيت جبيلاً عليه بعض البيوت، يسمى رداعة، وهو من الأخراب التي يسهل الحفر فيها، ثم بلغت غُميقة،

وهي بلدة كبيرة ذات صرافات ومصالح، فجاوزتها بعد العصر، وحين يصبّ وادي مياهه في وادي الليث، فإن هناك أرضًا واسعة جيدة المرعى، تصلح أن تكون سوقًا، وبعد حين بلغت قرية الماء الحارّ، وفيها عين الماء الحارة، التي بُني لها مجرى، رأيت كثيرًا من الناس يغمرون أقدامهم فيها، وقد وضعت لها الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني لوحة ذات لون بُنّيّ. وبعد قرية الماء الحار مررت بمحطة مشروع نقل المياه من سدود حليٍ ويبةَ والليثِ إلى محطة الشعيبة، وبعدها بقليل مشروع إنشاء سد وادي الليث.

من غريب ما شاهدت أنواع من المِعزَى، فحين كنت قريبًا من الساحل كانت ذات آذانٍ كبارٍ عريضة، ثم لما ارتفعت إلى وسط المسافة التي قطعتُها رأيت منها ذوات آذان أصغر من آذان سابقاتها، ثم حين ارتفعتُ كثيرًا صغرت آذانها وارتفعت، ولم أستدعِ خيالي الجامح ليربط بينها وبين المناخ السائد.

رأيت ماء الوادي يتهادى من نحو بني يزيد وأسفل من أرضهم، ثم وصلت إلى سوق بني يزيد، وكنت ظننت أن وراءها عقبة تخرج على السراة، فسألت شابًّا مرّ بي على سيارته، فقال إن الطريق تقف بعد كيلومترات قليلة عند الرياحين، فمضيت قُدُمًا كأنما فزعت بآمالي إلى الكذب، فرأيت وادي أَرّة قد دفن الخط بالصخور العظيمة عند مهبطه في وادي سَلبة، ثم كان عن شمالي وادي تيثان، وكان انحداره قليلاً بين جبال شاهقة، فتذكرت وادي تيثان الذي يمر بقرية برمة الأثرية غربي خيبر، فتساءلت: هل توجد جذور مشتركة بين لغات العرب على اختلاف بيئاتها الأولى وأجذامها من ما ليس في المعاجم[1]! وإلا فإن اسم «تيثان» ليس من ما يكرر عبثًا.

بعد أن انتهيت إلى الرياحين كان قد بقي ما يزيد عن نصف ساعة كي تغيب الشمس، فرجعت أدراجي، وبعد أن جاوزت غميقة، وقفت في مكان ذي رمل نظيف، فشرعت في إصلاح الشاي، وصليت، وبعدئذ ذهبت نحو محطة متكاملة الخدمات في جنوبي الليث، فلجأت إلى ركن منها، ونمت في كِلَّتي[2].

(1) قال الأزهري ـ رحمه الله ـ في (تهذيب اللغة)، مادة (ثأن)، ج (1)، ص (469): «التثاؤن: الاحتيال والخديعة، يقال: تثاءَن للصّيد تثاؤُنًا، إذا خادعه وجاءه عن يمينه مَرّة وعن شماله مَرّة». ولكن هذا غير شافٍ؛ لأن جذر الاسم (تثن).

(2) الكِلّة هي ما يسميها العامّة الناموسية.

❖ خامس أيام الرحلة: الاثنين 19 من شهر ربيع الأول سنة 1435هـ:

توضأت من مياه مرافق مسجد المحطة الكبير، وخرجت قبل موعد الصلاة بنحو نصف ساعة، وسلكت طريق القنفذة، وبعد ثلاثة عشر كيلومترًا خرجت إلى يمين الطريق، فأصلحت قهوتي، ثم صليت الفجر بحمد الله، ثم احتسيت القهوة، ولما لم يبقَ إلا ربع ساعة على شروق الشمس، واصلت مسيري، فمررت بنهايات وادي عيار، التي تضيع في الرمال قبل بلوغها البحر، ثم سلكت في خبت حبوة، وهو سهل منبسط، وفي أسفله من ناحية البحر تلال غير مرتفعة، ويبدو في أعلاه جبل عَفَفٍ شامخًا ذا قمة منبسطة واسعة.

ثم مررت بمطعم في أول الشواقّ فأفطرت فيه، ثم خرجت نحو الشمال الشرقي على طريق معبدة، وقد ازدانت الأرض بالعشب الأخضر الذي كساها، فلا تكاد ترى فيها ما يقطعه سوى الخط المعبد وخيام المتنزهين والإبل والغنم الراتعة فيه. وكان خبت القوعاء مرجًا أخضر، يزينه تموج أرضه بين الارتفاع والانخفاض.

أبصرت طريقًا معبدة تتجه نحو جبال نخرة، فسلكت فيها، فوصلت إليها، فرأيتها هضبًا كبيرًا ذا قمم، ثم عدت إلى حيث انطلقت، فواصلت مسيري صاعدًا في وادي عُلْيَبَ، وهو واد فسيح رملي نظيف، يتخلله بعض الحصى، وكان جبل الأسودين عن يساري، وهو جبل ذو كتلتين تكادان تفترقان قرب الأرض، ومن ورائه جبل عَفَف.

مررت بالحَجْرة، وهي مركز محافظة من محافظات الباحة، ثم رأيت لوحة تشير في نهاية الحجرة إلى عقبة ذي منعا، التي تخرج على ناحية برحرح، وقد سلكت في طريقها شيئًا يسيرًا حتى عرفت وجهتها، حيث تحاذي وادي الجرداء ثم تقطعه. وحين عدت إلى الطريق كانت هضبة حَظَا عن يساري، وهي هضبة ملساء ذات بياض.

بلغت بعد ذلك الجائزة وواديها الذي كانت مياهه تتهادى، وكان فيه عدد من سيارات المتنزهين، ثم جاوزته إلى قرى وادي أضم، فاخترقتها، وكان عن يميني هضاب حُبيْنة الشامخة الجميلة ذات القمم المتناوحة، وعن شمالي البعيد جبل العُلُنصَة، وهو ذو قمة لا يبلغها سوى الطير الطائر.

رجعت أدراجي إلى الحجرة، ثم سلكت طريق قلوة، فمررت بمفرق بلدة الشعراء، التي كنت قد رأيتها منذ زمن، وكان فوقها من مطلع الشمس جبل نِيسٍ الأحمر الشامخ، ذو قمتين كبيرتين، وبعد أن بلغت قلوة، كان المؤذن قد نادى لصلاة الظهر، فملت إلى مسجد فيها فصليت الظهر والعصر جمع تقديم، ثم حاذيت شيخ الجبال شدا الأعلى، وقلما تجتمع الهيبة والجمال في الجبال إلا ما رأيته في شَدَا.

مررت بوادي راشٍ، وهو أعلى الأحسبة، وهو حجري شبه متسع، ثم كان عن يميني شدا الأسفل، ولا يباعد صنوَه هيبة وجمالاً، ويتقاطع الخط المعبد مع وادي الأحسبة في مواضع.

تركَت الطريقُ واديَ الأحسبة، ثم بلغَت ناوان، وهي مدينة منتشرة، أو إن شئتُ قلتُ هي بلدات تقاربت فكونت مدينة صغيرة.

كنت أردت لقاء الأخوين محمد بن عبد الله السيف وتركي بن إبراهيم اليحيى، اللذين وصلا إلى تهامة لمشاهدة ربيعها، ولكنني علمت منهما أنهما اقتصرا على الشمالي منه في ناحية خبت القوعاء، فلم أشأ أن أعود إلى حيث كانا.

انتهت بي الطريق إلى المظيلف، ثم سلكت في طريق القنفذة، فجوّلت في أسفل الأحسبة، ثم عجِلتُ إلى الأخ الدكتور محمد بن إبراهيم بن حسن السَّعِيديّ، الذي كان يومئذ في نزهة في منطقة الدعاشيش بين القنفذة والقوز، فالتقيته، واحتسيت معه القهوة والشاي، ثم ودعته؛ لأسير في طريق وادي يبة، بعد أن جوّلت في القوز.

كانت مساحب الماء في وادي يبة عريضة وهو يجري؛ لأنه مُطر قبل يومين، ومن ذا الذي يلوم عشاق وادي يبة؛ وهو المنبسط الذي تحيط به الرمال والأرض الفسيحة!

كنت في طريق جمعة ربيعة، وبدأ المزن يتراكم، حتى إذا أقبلت على جبل ثربان، رأيت أعاليه قد غيبها السحاب عن عينيّ، ثم هتنت السماء حين كنت في ذات أعشار.



(18) جبل البكرتين تمر به طريق الجَنَد من صدر قنونى وحلي وهو من علامات الوصول إلى سوق حباشة.

وقد بلغت لُكّة أم الخُرص في وادي يَبَة، وجبل البكرتين، حتى إذا ما بلغتُ شمالي أرض بارق، وقد جزت جسر وادي خاط، سمعت النداء لصلاة المغرب، فحانت ذكرى مولدي اليوم وأنا بين الليث وأضم والمخواة والقنفذة وبارق.

وفي أدنى بلاد بارق استأجرت شقة سكنية، فبتُّ فيها.

❖ سادس أيام الرحلة: الثلاثاء 20 من شهر ربيع الأول سنة 1435هـ:

بعد الساعة الثامنة من صباح هذا اليوم، التقيت الأخوين عبد الله بن محمد الفقيه البارقي وحسن بن محمد بن عوض البارقي، فصحبتهما، حيث أفطرنا، ثم ذهبنا نحو مَسِيد المهلَّل، وهي المنطقة المحصورة بين شمالي جبل قتروي، حيث يسمى طرفه القذل، وبين مصب شِعب الأرنبة في وادي شري، وبين جبل جخيدب، وهو جبل صغير منقطع من قتروي. ومسيد المهلَّل أرض بيضاء تكاد تخلو من أي علامة، في ناحيتها التي نظرنا إليها، إلا أن الأرض هناك قد غُيِّرت

معالمها. وكررت النظر نحو قرن مَخْلد من هذه الجهة، فتبينته قُرينًا صغيرًا قامت في شماليه وشرقيه البلدة.

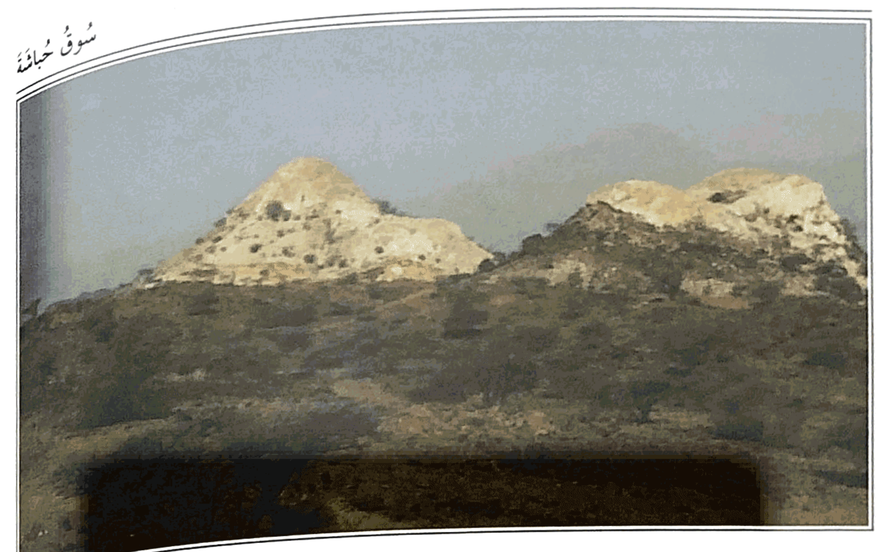
ثم سلكنا طريقًا معبدة، ما زال العمل جاريًا فيها لإيصالها إلى جمعة ربيعة، فالتففنا نحو الجنوب، فكان جبل نمارن عن أيماننا، وجبل قتروي المهيب عن شمائلنا، غير بعيد من مجرى وادي الحمض، وهو أسفل شري، ثم بقرب مصب شِعب قُفَيْلة فيه أخذنا ذات اليمين نحو شِعب الملْصة، الذي يفصل بين أعاليه وأعالي قفيلة شُرفة صغيرة قامت عليها بلدة قفيلة، ثم هبطنا مع شِعب الملْصة حتى تركته الطريق يمينًا، فتياسرنا لنصل إلى شِعب بارق، حيث بلغنا ملتقاه بشعب سُرانَ، وهو بُسران قديمًا، وهذا المكان أكثر مياهًا من الملصة، وتلك الشعاب غير واسعة، إلا أن الهمداني ذكرها في مساقط بلاد بارق، فأحببت أن أراها.

عدنا نحو أصطمّة بلاد بارق وجاوزناها نحو الجنوب الشرقي حتى بلغنا غوافل، أو قوافل، وهو اسمها اليوم، وهي بلدة صغيرة في طريقنا لمعرفة اتجاه عقبتي بَرمة وساقين، فأما برمة فقد صعدت فيها من قبل، وتبلغ اليربوعة أو الأربوعة، وأما ساقين فأحببت أن أراها، وكلتا العقبتين تبلغ تنومة. وأفادني الأخ عبد الله الفقيه بأن النازلين من الأوائل من كلتا العقبتين يخرجون على شجّاء غالبًا، وهي عقبة في شمالي جبل ريدان.

ألزمني صاحباي بالغداء، ثم ودعتهما ـ جزاهما الله خيرًا ـ فسلكت في وادي خاط، ثم في وادي جُريّة، حتى أشرفت على المجاردة، وشاهدت المروتين من بُعدٍ، وقد نشزت دونهما الإكام، وهما جبيلان أعبلان، لعلهما كانا من علامات بلاد بارق ذات حين من الدهر.

وبعد سلوكي في طريق سبت شمران، وحين كان جبل سَيَالٍ عن يميني، كانت عقبة كروان التي تفصل بين جبلي ثربان وثميدة عن يساري بعيدًا، غير أن انخفاضها كان واضحًا.

ثم إني دخلت عن يمين الطريق إلى ثريبان؛ فجولت فيها، وخرجت منها على



(19) جبلا المروتين من علامات الوصول إلى بلاد بارق من شماليها «صورة مقربة».

سبت شمران، ومنها إلى المعقّص، حيث نمت قبل مدخلها نحو ثلث الساعة، ثم حاولت الدخول إلى وادي الرحمان، ولكن اشتباك المزارع والمنازل حال دون ذلك، غير أني شاهدت أسفله حين يصب في قنونى. ثم جاوزت ذلك المكان إلى نمرة، ومنها إلى المخواة، حيث سلكت في عقبتها نحو الباحة، وكانت الطريق في طور التوسعة إلى مسارين يستقل أحدهما عن الآخر، حتى أسفل قرية ذي عين الأثرية، وحين انتصفت في العقبة، استرحت لكي أصلي المغرب والعشاء وأهيئ قهوتي، وحين بلغت الباحة آثرت أن أبيت طاويًا، واستأجرت غرفة سكنية فبتُّ فيها، وكانت درجة الحرارة نحو اثنتي عشرة بالمقياس المئوي، وبلغت قبل ساعتين في المخواة اثنتين وثلاثين.

❖ سابع أيام الرحلة وآخرها: الأربعاء 21 من شهر ربيع الأول سنة 1435هـ:

مررت في طريقي ـ باختصارٍ ـ بالأطاولة فالمندق، وفيها أفطرت.

ثم خرجت منها على بَرَحرحَ، فحدّاد، ثم صيّادة، فترعة ثقيف، ثم قَها، ثم ميسان، ثم مررت بالشعاعيب؛ فرأيت جبلاً يسمى الشَّعْراء، ذا صفة عجيبة، ثم الدار

الحمراء، ثم هضيبات الأصادي[1] في شمالي جلدان، ثم الطريق نحو عفيف فالدوادمي.

وبلغت رحلتي ثلاثة آلاف وستمائة وستين كيلومترًا، والحمد لله رب العالمين.

خطوط العرض والطول لبعض المواضع المذكورة في الرحلة

الموضع	خط العرض			خط الطول			تفصيل
	ثانية	دقيقة	درجة	ثانية	دقيقة	درجة	
نقطة في وادي بلملم الواسع	05	46	20	50	57	39	
أعلى قمم جبال نخرة	35	58	19	20	58	40	نحو 1150 مترا
ثنيّةٌ بين المَلْصة وقُفَيْلة	06	53	18	37	49	41	فيها قرية المَلصة
ملتقى شِعبَيْ بارق ويُسران	17	54	18	24	45	41	
مهبط الملصة في يسران	35	55	18	40	44	41	
مهبط يسران (سُرَان) في يبة	20	00	19	53	41	41	أمام جبهة لَنْصَب
البيضاء (مفترق طرق)	45	51	18	22	04	42	نحو شجّاء والمنظَر
نقطة في عقبة ساقين	48	52	18	02	07	42	فوق العَدِيف
عقبة شجّاء	44	53	18	23	02	42	من Flash Earth (Bing)
جبلا المروتين	26	06	19	48	50	41	نقطة بينهما
عقبة كروان	12	14	19	37	41	41	بدايتها من الشرق

(1) دلّني عليها الأخوان الشابّان الكريمان عبد الله ومحمد ابنا ساري بن معيوض الجعيد.

● الرِّحْلَةُ الْمَيْدَانِيَّةُ الْخَامِسَةُ

بتنسيقٍ مستميزٍ مع الأخوين أحمد بن عبد الرحمن الثقفي ومحمد بن عبد الرحمن الثقفي، كان لقاءٌ في مرتفعات الشَّفَا في الطائف، ضم نخبةً من المهتمين بالرحلات، التقيتهم، وأنستُ بلقائهم، وهم: الثقفيان إياهما أبو أشرف وأبو مروان، وفهد بن محمد الموسى، وعويّض بن سعد الجعيد، وحامد بن عثمان الغامدي، ومحمد بن عبد الله السيف، وخالد بن محمد الشريهي، وعبد الحميد بن شتيّان الحربي، وعبد العزيز بن علي العجاجي، وماجد بن إبراهيم السنيدي، وتركي بن إبراهيم اليحيى، والتقينا الإخوة علي بن جبارة الثقفي وابنه الحارث، وماجد بن سلمان السِّهْليّ، فجزاهم الله جميعًا خير ما جزى عبادَهُ الصالحين.

وقد خرجتُ إليهم من الدوادمي بعد ظهر يوم الخميس 21 من شعبان سنة 1435 الهجرية، الموافق 19 من حَزِيران سنة 2014 الميلادية، واسترحت بين عفيفٍ وظَلمٍ، ثم بلغت الطائف فالشَّفا، قبل انتهاء صلاة العشاء.

وفي ثالث أيام الرحلة، وهو يوم السبت 23 من شعبان، وبعد أن أفطرنا جميعًا، غادرتهم نحو بلدان الجنوب، وحين حاذيت مفرق سديرة، انعطفت معه نحو الشمال الشرقي، إلى حيث قرأت اسم الحوطة في الخريطة؛ وتساءلت كيف تكون حوطة بين هذه الجبال، إلا أن تكون دارةً أو تكون تحريفًا من اسم سابق! ومررت بمنازلها الواقعة في براحٍ من الأرض، ثم عدتُ إلى بلدة الملعب، حيث سألتُ بعض أهلها من السَّوَطة الكرامِ، فأفادوني بأنهم لا يعرفون اسم الحوطة، وأن ما مررت بها هي العايلة، وقد ألَحَّ رجلٌ كريمٌ وابنُه عليَّ إلحاحًا بأن أحضر مأدَبة غداءٍ دُعِي إليها مَن تذاكرا فضلَه، فاعتذرتُ؛ كي أسارع إلى بلوغ منازل رحلتي، وإلا فإنّ من أضعف ما تدعوني إليه نفسي أن أسألهما عن اسميهما؛ رغبة في تشريف سجلّ الفضل، ولكن هيهات وقد اعتذرت عن المكث في ناحيتهما!

كانت السحب في سماء الباحة وبلجُرشي تحول بين الناظرَينِ والشمس، ودرجة الحرارة (24) بالمقياس المئوي، وجاوزتهما نحو النماص، حيث قابلتُ أختي وابنها

محمد بن إبراهيم الجريس قبل المغرب، ثم صحبتُه في جولة على تنومة الزهراء وصعدنا في جبل منعَاء، ثم عدنا إلى النماص.

وفي صبيحة يوم الأحد 24 من شعبان، انطلقت نحو عقبة شِعَارٍ، وكنتُ قد سلكتُ في أعلاها يومًا من أيام سنة 1420، فرأيتها مخيفةً، غير أني حين سلكتُها اليوم لم أرَ لذلك التصوُّر مسوِّغًا، ولعله لتكراري الصعود في عقبات السراة والنزول فيها، أو رؤيتي ناقلات النفط في هذه العقبة، أو أن صعودي في عقبة سنان جعل كلَّ عقبة بعدها في رُوعي رِيعًا!

غير أن من ما يلزم ذكرُه دعوة المسؤولين الكرام، إلى أن ينظروا في خطورة النفق الثالث من أنفاق العقَبَة؛ حيث إنه طويل لا تهويةَ فيه، وإن حادثًا مروريًّا هيِّنًا يسبب إعاقة الحركة قد يخنق أنفاس الداخلين في النفق.

أبصرتُ بين هذه الجبال العالية مجرى وادي تَيَّة، فدار في ذهني أنَّ تعليم الجغرافيا في مدارسنا بحاجة إلى تعديل في المنهاج؛ وأن كل متعلم لا بُدَّ له من معرفة وادي تيّة وأمثاله في مملكتنا الغالية بين حَدَّيْها وساحلَيها.

بلغتُ محايل عسير، وجوَّلتُ في سوقها، ثم خرجت منها نحو الشمال، حيث بلغتُ أول بلاد بارق، فأخذت في الطريق المعبدة ذات اليمين نحو ثلوث المنظر نخميس مطير، وهي بلدة متفرقة المنازل، يؤنس ناظرها جبل ضُرْم الشامخ ذو القمة الزلوج، ولم ألبث إلا قليلاً حتى انحدرت على تهامة بلَّسمر وبلَّحمر؛ حيث صليت فيها الظهر مع جماعةٍ فيها، ثم صليت العصر، ثم خرجتُ على تُرْقُش، ثم قادتني نهاية الدورة إلى أول بلاد بارق، فسلكت ذات الشمال، إلى بلاد الطحاحين، ومنها رأيت جبل الصَّلّة، وهو جبلٌ كُمَيتُ اللون، أسافله محزّزة، وأعاليه ملساء كأنما نزعت منها الحجارة، وهو جبلٌ قِمّةٌ بعينِه، له عُرْف تميل إلى السواد وتغطي أعلى جانبيه.

أخذت غداء من بلاد الطحاحين، وخرجت منها نحو السهل الذي فيه وادي الحمض، وهو أسفل شري، فسرت بين مرتفعات ومنخفضات، ثم نزلت فتغذيت في ظل سيارتي، وكانت الحرارة أربعًا وأربعين درجة مئوية، ولكني كنت جِدَّ سعيدٍ بعيشِ

كَفافِ عابر السبيل. وقد مررت ببقعة ذات مظاهر حجرية، كان أحدها قبرًا محاطًا بسياجٍ حجريٍّ مغروسٍ في الأرض تبلغ أبعاده أربعة أمتار طولاً وثلاثةً عرضًا.

ثم مررت بجبيلٍ أعبلَ، ربما كان دلالةً من دلائل سالكي الطريق إلى سوق حباشة.

ثم ثار غبار عامٌّ، ومررت بحمراء المغيراء، وهي جبيل صغير أحمر، فصورتها وقد اختلط الغبار السائد بغبار الكسارة التي ستزحف عليها ذات ليلةٍ انكدرت نجومها!

إن مثل هذه الدلائل تُلتمس لمعرفة أسواق العرب، حيث إن منشأ اختيار سوقٍ منها يشبه منشأ اختيار الأسواق الأخرى، وإن اختلفت طبيعة الأرض. وفي حمراء المغيراء دليل على تحديد السوق، وأما القادمون إلى السوق فيكفيهم رؤية جبل قتروي، الذي يبدو للقادم من الجنوب ذا قمتين منخفِضٌ ما بينهما شيئًا يسيرًا، كرحْلٍ أو سرجٍ لا تُخطئ العينان منظره.

مررتُ بقرن مَخلد، وحين اخترق الطريق منازلها، قابلت رجلاً أظنه في عقده الرابع تُقِلُّه سيارته، فسألته عن طريق الجهفة ـ استحياءً من المرور بالمنازل ـ، فدعاني إلى القهوة فشكرته، فقال: من هنا طريق الجهفة ولكن الماء فيها نزرٌ!



(20) جبيل حمراء المغيراء قبل مدخل مسيد المهلّل علامة على سوق حباشة للقادم من الجنوب.



(21) إحدى المحاجي ذات الشكل الهلالي وفي داخلها دائرة حجرية صغيرة.

كان هدفي من الوصول إلى هذه الناحية الوقوف على كل المحاجي التي رأيت بعضها من قبل، وكل محجاةٍ بناءٌ غير محكم، يظهر على شكل أزيد من ثلث دائرة وينقص عن بلوغ نصفها، فرأيت ستَّ محاجٍ، قد تكون هي كل تلك المحاجي، وبين أقربها وبين الجهفة ثمانمائة متر، نحو أيسر الجنوب منها، وهذا وصف لكل واحدة من هذه المحاجي:

- محجاة شرقية مفتوحة نحو الغرب، وتبلغ فتحتها خمسين مترًا.
- محجاة نحو أيسر الشمال من التي قبلها، على أزيد من خمسة وثمانين مترًا، مفتوحة نحو الجنوب الغربي، وتبلغ فتحتها خمسة عشر مترًا.
- محجاة نحو أيسر الغرب من التي قبلها، على نحو مائة وثمانين مترًا، مفتوحة نحو الجنوب الشرقي، وفتحتها عشرون مترًا.
- محجاة صغيرة نحو أيسر الجنوب من التي قبلها، على مائة وعشرين مترًا، مفتوحة نحو الشرق، وسعة فتحتها بضعة أمتار.
- محجاة نحو أيمن الجنوب من التي قبلها، على خمسة وثمانين مترًا، مفتوحة نحو الشمال الشرقي، وسعة فتحتها نحو سبعة عشر مترًا.

المحاجي (الوحاج) الست، وقد قضى الطريق المعبد على بعضها.



(22) جبل الخرباء أو الصَّلّة نحو الشمال من سوق حباشة علامة من علاماتها.

محجاة شرقي التي قبلها، على خمسة وأربعين مترًا منها، وفتحتها لا تبلغ عشرة أمتار، وتتجه نحو الشمال. وبين هذه المحجاة وبين التي ذكرتها في أول هذه المحاجي مائة وسبعون مترًا، وتلك من هذه تقع نحو الشمال الشرقي.

إننا حين نتأمل هذه المحاجي في ناحية الجنوب من سوق حباشة، والواقعة على أطراف مساحة من الأرض تبلغ نحو خمسة آلاف مترٍ مربّعٍ، بين واديي شري والحَباب، نرى فتحاتها تتجه نحو الداخل، وهذا يعني أن الهدف ذا الأهمية يقع داخل نطاق ما بين هذه المحاجي. لم تكن سكنًا، ولم تكن قبورًا، وليست أعلامًا، ولا أرى لها تفسيرًا مقبولاً إلا أن تُحمل على أن لها أهمية دينية؛ كأنْ يكون بينها وثنٌ وهذه المحاجي تتجه إليه، ثم اختفى الوثن بسيادة الإسلام في بلاد الأزد، أو أن تكون رمزًا لعبادة القمر، وعادةً ما يرمز العرب إلى القمر برمز هلالٍ، ولو أن شيئًا بين هذه المحاجي - كالوثن - فإن فتحات هذه الأهلة حين تتجه إليه، فإنما تمثّل الاتجاه نحو آفاق السماء المفتوحة، ومن يتأمل فتحاتها يرَها تمثّل أوضاع الأهلة بعد الغروب في أول الشهر، وقبل الشروق في آخر الشهر، قائمةً ومستويةً ومائلةً. أما جبل الخرباء أو الصَّلّة الواقع نحو الشمال من سوق حباشة، والذي يُعدُّ علامةً للسوق، لشُقرته لا

لارتفاعه، فإنّ له شأنًا دينيًّا، لعله كان في عبادة الشمس، ولكن سيطرة الأزد، وانحسار نفوذ اليمن، التي كانت بعض دويلاتها ممن يعبدون الشمس، ربما جعلهم يتخذون الأصنام كما هي حال إخوتهم من خزاعة والأوس والخزرج، وكما هي حال العدنانيين، في ظل تسامح دينيّ، نسبيٍّ أو سائدٍ. ومن يرَ كثرة الحجارة المثقوبة في هذا الجبل المحاجي (الوحاج) الست، وقد قضى الطريق المعبد على بعضها يغالبْه الظنُّ بأنها مزاول بدائية لاستخدام فرديّ، والله أعلم، وإن كان رأي أهل الآثار أقرب إلى صدق التصوُّر!

خرجتُ من هذه الناحية نحو الطريق العامة، فرأيت ضبًّا صغيرًا جاء من ناحية البيداء متجهًا نحو الشمال الغربي، وكأنما كان يريد أن يحدثني بشيءٍ لو استطاع أن ينطق! فحدثتني نفسي عن حظّه من الأمن حين لم يكن من بين ضباب نجد والصَّمّان.

السائر في بلاد بارق، لا يكاد ينقطع نظره عمّن يمرون به أو يمر بهم فيبتدرونه بالتحية، إما باللفظ وإما بالإشارة. ومن دخل إليهم استقبلوه بين بيوتهم، ومن سألهم عن مكان صدَقوه الجواب، ولم يسألوه لِمَ جاءَ ولِمَ سأل!

لا أريد أن أمتدح البارقيين بفصاحة اللسان، أو إن جازفتُ بالكلام قلت إنني لم أسأل منهم واحدًا شابًّا كان أو شيخًا، ثم أردت منه إعادة القول لأتبيّنه، اللهم إلا في ما يخُص أسماء بعض المواضع، فكأنما كنتُ بارقيًّا عاش بين قومه!

الجوّ المغبرّ يخفف من الاهتمام بشأنِهِ رؤيةُ الشبّان البارقيين أفواجًا إلى ملاعب الكرة، في كل مكان مررت به من بارق، بعد أن خفّت حِدّة حرارة الشمس.

حين سلكت في الطريق مررت بجسر وادي شري المنحني الضيّق المهتزّ، الذي كانت قد بدأت إلى جانبه الغربي توسعة المسار فوق الوادي، ولكنها توسعة كأنما تريد أن تشهد مزيدًا من الأذى للعابرين فوق الجسر، فلا تكاد تَتِمُّ!

أخذت نحو اليمين بعد أن جاوزت طرف جبل أبي رمادة؛ كي أقف على غار الصيحة أو ما يسمى (غار امْصَيحة)، فسلكت في منطقة حبشيّ، فرأيت في آخرها من

ناحية الشمال قبل أن أصل إلى بلدة في طرفها، صخرةً عليها بعض الحجارة الحادة، فسألت شابًّا عنها، نزل لي من سيارته؛ حيث كان معه نِساءٌ، فقال: ليس هذا غار الصيحة، ولكنه تلك الصخرة التي من دونها مجرى شِعب المجازة. ولقد وصلت إليها فرأيتها صخرة عظيمة ممتدةً، يبلغ طولها في نظر العين عشرين مترًا، وهي في منطقة جِيابٍ من المرو، وكأنما كسيت أرض بارق بالمرو الأبيض، مصداقًا لبياض قلوب البارقيين أنفسهم، ولا أزكّي على الله أحدًا من خلقه!



(23) غار الصيحة صخرة مستطيلة في منطقة حبشي شرقًا من قذل قتروي.

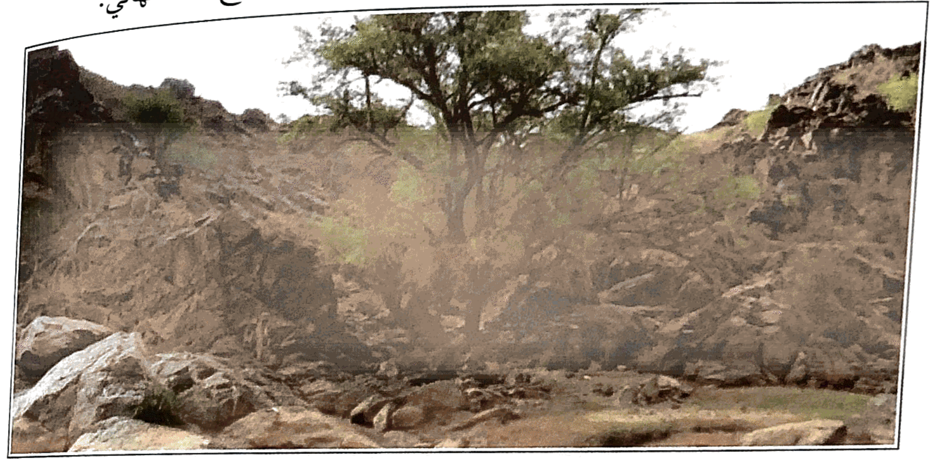
مررتُ بناحية ربوع العَجْمة، ثم خرجت نحو الطريق العامّة، ثم وصلتُ إلى صعبان، فسألت شابًّا يافعًا مرّ بي بسيارته، عن جبل الشعراء، فذهب أمامي حتى أشار إليه، ثم سألت رجلاً في ناحيته عن الحُفر التي في الجبل، فقال إنها في أعلاه! وقد صعدت جزءًا منه، ورأيت حجارة المرو التي خالطته تميل إلى الحُمرة؛ مما يدل على أن معدنه كان ثمينًا، ولم يكن الوقت جيدًا لتصوير هذا الجبل.

خرجت من صعبان كي أستأجر غرفة مفروشة؛ وكنت أريد الاغتسال، ثم الاتصال بالإخوة عبد الله الفقيه وزاهر وحسن البارقيينَ، إلا أن مكالمةً من الأخوين محمد بن عبد الله الخبّال وسلطان بن سلامة الدّشّاش، أبلغاني فيها أن غبارًا قادمًا من ناحية السودان سيكون سائدًا هذه الأيام، عزمت بسببها على ترك تهامة، وصعدت مع عقبة المخواة نحو الباحة، واستأجرت غرفة في طرف الباحة الشمالي، ولم يكن الجو باردًا.

وحين ارتفعت شمس النهار من يوم الاثنين 25 من شعبان، خرجت نحو الأطاولة، وغفلتُ عن مفرق العقيق وأبيدة؛ ذلك لأني وقفت عند دكان تموينٍ، وكان المفرق خلفه. ثم عدت إلى المفرق، فسلكت في الطريق، وفي إحدى مظلات البلدية، التي كانت غير بعيد من مفرق العقيق أفطرت إفطار عابر السبيل، ثم ذهبت إلى أبيدة؛ كي أمرَّ بالناصف من أبيدة.

● مَوْقِفُ تَأَمُّلٍ فِي النَّاصِفِ مِنْ أَبِيدَةَ

الناصف من أبيدة جزء من وادي أبيدة، يمتد نحو نصف كيلومتر، ويخترق جبل الرمحة، وفيه تلعة في جانبه الأيسر في جبل الرمحة الطويلة، إن يكن أَسِيد بن جابر وابنا أخيه كَمَنا للشنفرَى، فلن يختارا غير هذا المكان، وإن كان الشَّكُّ في وقائع القصة أقوى من الثقة بها؛ لأن اللّذَيْنِ نقلاها إلينا هما ممن أوغل في الشعوبية، والإساءة إلى العرب، وهما محمد بن حبيب البغدادي وأبو الفرج الأصفهاني.



(24) تقف هذه الشجرة في منحدر تلعة ربما كمن فيها من أرادوا قتل الشنفرى في الناصف.

مررت بعد الناصف من أبيدة بعمال عربٍ وعجم، يبنون سورًا لمقبرة قديمة، رأيت فيها قبرًا إسلاميًّا قد يبلغ ارتفاعه عن الأرض المتر. والسائر في وادي أبيدة يعجب من أشجار السدر الضخمة المنتشرة فيه؛ مما جعلني أظن بأن لغةً ما من لغات العرب كانت وراء تسمية الوادي بأبيدة؛ وأن المعني السدر الضخم، ولقد رجعت إلى لغتين قضاعيتين: المهرية والشحرية، فلم أجد فيهما بغيتي.

ثم بلغت أليف أبيدة، والذي تبلغ المسافة بين أسفله لَدُنْ مصبِّه في أبيدة وبين الناصف يومًا وليلة.

كانت طريقي بعد ذلك مارَّةً بتربة والخرمة، ثم عفيف، التي بلغتها بعد العصر، فالتقيت الأخوين تركي وموسى ابنَي ماطر بن مطر الغنَّامي، فدار حديثنا حول أبيدة وناصفها وأليفها وجناه والشنفرى ومقتله، وقراءات المُعاصرين المتضادّة حول مواطن الشنفرى وكيفية مقتله، والأبيات المنحولة في لامية العرب، وكيف أمسى تاريخنا وتراثنا بين أيدي العابثين الذين لا يبتغون الحقيقة! وقد أثنى الأخ تركي على جهود الأستاذ الدكتور فضل بن عمار العماري في استقرائه الدقيق حول حياة الصعاليك وتعريفه بهم وبمسالكهم.

لم أستسلم للمداولات الأدبية التي تدور بيني وبين أبي خالد كلما قابلته، وهي طريقة ابتدعها؛ لأقضي معه ساعات طويلة، غير أني في هذه المرة غادرت ذينكم الأخوين ولمّا يمض من الساعة ثلاثة أرباعها، فدخلت الدوادمي والناس في صلاة العشاء.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

خطوط العرض والطول لبعض المواضع المذكورة في الرحلة

الموضع	خط العرض			خط الطول			تفصيل
	ثانية	دقيقة	درجة	ثانية	دقيقة	درجة	
جبل الصَّلّة	35	47	18	45	51	41	أمام مهبط الحَمص في بَقْرة
ركام حجرية فيها قبرٌ مُحجَّر	34	49	18	45	53	41	شرقيّ مجرى الحمص
عبلاءٌ في الطريق	50	51	18	00	52	41	غربيّ مجرى الحمص
حمراء المغيراء	44	55	18	37	51	41	جنوبيّ جخيدب
المحجاة الضخمة	38	56	18	15	50	41	إحدى الوِحاج (المحاجي)
غار الصيحة (امْصَيْحة)	49	56	18	05	53	41	صخرة عظيمة ممتدة
جبل الشَّعراء	35	51	18	10	56	41	جنوبيّ صعبان
الناصف من أبيدة	58	20	20	13	24	41	جزء من الوادي
تلعةٌ يمكن الكُمُون فيها	56	20	20	08	24	41	يتعذر الكمون في غيرها
مقبرة قديمة تُسَيَّجُ	12	21	20	32	24	41	أسفل الناصف
مظاهر حجرية غريبة	09	40	20	47	24	41	بين أبيدة وأليفها

● الرِّحْلَةُ الْمَيْدَانِيَّةُ السَّادِسَةُ

❖ اليوم الأول من أيام الرحلة: الأربعاء 22 من ذي القعدة سنة 1435هـ، ووافق 17 من أيلول (سبتمبر) سنة 2014م:

خرجت من الدوادمي ضحى اليوم نحو عفيف، فظلم، فطريق الخرمة من بعد ظلم، ثم الخرمة فتربة، وقد سلكت في درب معشوقة، حيث مررت بشِعب أليف أبيدة، وتوغلت في أعلاه؛ بُغية تصويره، ثم بلغت الناصف من أبيدة بعد العصر، وكان الوادي قد سال منذ نحو ليلتين، فكان تصوير الموضع جيدًا، ودخلتُ إلى التلعة التي يمكن لمن أرادوا قتل الشنفرى أن يكمنوا فيها ـ بافتراض صحة الرواية ـ حيث كانت دونها شجرة تخفي مَن كان خلفها، فهل كانت في أيام الشنفرى أشجار تسد مدخل التلعة!

حين بلغت الباحة انهمر المطر مصحوبًا بالبَرَد، فألجأتُ سيارتي إلى ناحيةٍ تخفف من قوة البَرَد، ثم دخلت إلى دكانٍ كبير؛ لأشتري قطعةً من صابون (Lux) الذي يستخدم لتنظيف اليدين، فوجدت رجلًا يكبرُني بنحو عشر سنين، فآنست فيه البشاشة، فقلتُ له: كيف تفعلون إذا حال الضباب بينكم وبين الرؤية في لوح الرؤية الأمامية الزجاجي أثناء نزول المطر؟ قال: نفتح مكيف السيارة فنوجه الهواء إلى اللوح الزجاجي الأمامي، ثم يزول بعض الضباب! قلت: فأنتم مع ذلك في كَبَدٍ؛ حين تُضطرون إلى فتح الزجاج الجانبي بين الفينة والفينة على الرغم من هطل المطر! قال: أجل! فهل تعلمُ طريقةً أيسر من هذه إذ سألتني؟ فقلت له: أعلم طريقةً أيسر من هذه ولكن قد تكون مضطرًا إلى تكرارها مرتين في اليوم الواحد! تأخذ قطعة صابون (Lux) أو إحدى نظيراتها من المسمّيات الأخرى، ثم تمررها على اللوح الزجاجي الأمامي بين أيمنه وأيسره وبين حافتيه العليا والسفلى، ولا يضيرك أن تترك مواضع لم تمُرَّ عليها، ثم تمسك بخرقةٍ غير مُبْتلّة من القماش الذي يستخدم لتنظيف زجاج السيارات، فتمر بها على اللوح كله، فتلتئم تلك المواضع التي لم تمر عليها من قبل، وتتبين الرؤية من خلف اللوح الزجاجي، فلا تُضطر مع ذلك إلى فتح المكيف[1]! قال: سأجرّبها اليوم!

كنتُ قد نسيت سلك كهرباء السيارة لجهاز متصفح الخرائط (...SAMSUNG Tablet)، فاشتريتُ سلكًا قبل غروب الشمس بدقائق، ثم انحدرت مع عقبة الباحة نحو المخواة، وهناك مررت بمجْمَعٍ للغرف السكنية المفروشة، وكان صاحبه جشعًا، ولم يكن لديه من المستأجرين غير صاحب سيارة قد استأجر غرفةً قبلي، فعرض

---

(1) أخبرني بهذه الطريقة الأخ سعد بن عبد الله بن سعد السيف، نقلاً عن أحد أطباء العيون، الذي صحبه في مجموعة إلى الحج.

صاحب الغُرف لإحداها مبلغًا أراه يصح أن يكون لجناح فندقي متكامل، فقلت: ألا يكون أقل من هذا؟ قال: لا يمكن، فتصنيفُ غُرَفي فُندقِيٌّ! فحددت له مبلغًا أكثر من نصف المبلغ الذي طلبه، ثم غادرت المكان، وقلت في نفسي: عسى ألا يوافق! فإذا به يناديني، فعدت إليه، ولو لم تكن الرطوبة بالغةً تلك الليلة لبِتُّ في العراء، ولم أُلْهَمْ رُشْدًا لأنْ أبيت في نمرة.

❖ اليوم الثاني: الخميس 23 من ذي القعدة سنة 1435هـ:

قمت لصلاة الفجر، فصليت في أحد المساجد القريبة، ثم عدت إلى غرفتي وأخذت حقيبتي منها، وحيث لم أجد أحدًا وضعت مفتاح الغرفة داخل المكتب على المنضدة، وغادرت المخواة.

كان الضباب كثيفًا مع بعض الغبار، ما لبث أن انحسر بُعيد شروق الشمس، ثم مررت بنمرة، فقلت: سبحان الله! كيف يغيب التفكير مع المشقة؛ إذ لم يكتب الله لي أن أبيت فيها! ثم بلغت المعقَّص، فرأيت ازدحام السيارات في سوق الخميس، فملت إليه، ثم اشتريت رُطبًا وعنبًا، وخرجت نحو بارق، ثم تياسرت باتجاه المجاردة، ومن دونها سلكت طريقًا ترابيًا نحو المروتين، فمررت بطرفهما الشمالي، ولكن الطريق سُدّت في وجهي، فرجعت أدراجي وسلكت طريقًا عسيرة نحو الشرق منهما، ثم صعدت مرتفعًا فصورتهما، وأنزلت مُعَدّات قهوتي، وما هي إلا دقائق حتى أشرف عليَّ شيخ كبير، فبادرني بالسلام، ثم قال: القهوةَ في منزلي لا ههنا! قلت: ولكن قهوتي أوشكت على أن تُحتسَى، ولم أعلم أن في تلك البيوت أنيسًا، وإلا لمررتُ بها! ثم أقنعته بأن يجلس معي في ظل سيارتي الطويل، فجلس وعرفني بنفسه وأنه من بلقرن، وبدأ يحدد لي المواضع الملحقة بالعرضية الجنوبية والملحقة بالمجاردة، ثم قال: إني ظننتك أحد مندوبي لجنة تعديات وعدتنا بأن تمر بنا هذه الأيام!

لقد كان الرجل ذا فضل وصدقٍ وإحاطةٍ بمعرفة ما حوله، وأخشى إن أنا ذكرت اسمه أن أعرّضه لملامة أحدٍ.

ودعته وذهبت إلى بارق، ومن ناحية البيداء ذهبت نحو قرن مَخلَدٍ فصورته، فعاد

إليَّ رجل بسيارته الصغيرة كان قد جاوزني، وقال: هل أساعدك في شيءٍ؟ فشكرته، فقال: رأيت في أمر من يقف هنا غرابةً فعدتُ إليك! فقلت: إنما أردتُ أن أصوّر لأن لدي بحثًا حول هذه المناطق! فدعاني إلى القهوة، فاعتذرت، وقلت سأذهب إلى حمراء المغيراء.

من العجب الذي يُذكر بعد هذه الرحلة، أن هذا الرجل كان خال الأخ حسن بن محمد، واسمه محمد بن مريف بن زاهر بن راشد البارقي، وقد أخبره بأنه وجد رجلاً يصور قرن مخلد وذهب إلى حمراء المغيراء!

ذهبت إلى حمراء المغيراء فصورتها من جهاتها الأربع، وإن كنتُ أعلم أنها لا يمكن أن تكون علامة للسوق إلا من جهتيها الجنوبية والغربية.

بعد ذلك، ذهبت إلى الجهفة، فنزلت في واديها وصورتها من زوايا كثيرة، ولكن الصور التي تجمعها بما خلفها من بعيدٍ لم تكن جيدة؛ بسبب الغبار، وقد جعل الله في بلاد بارق مصورين مبدعين يستثمرون فرص صفاء الجو للتصوير.

مررت بإحدى المحاجي الكبرى، وهي التي تتجه فتحتها نحو الشرق، ونزلت إليها وتأملتها تأمُّل هاوٍ لا تأمُّل مختصٍّ!

انطلقت عبر طريق ممسوحة وبعض أجزائها يُمهَّد، فعدلت منها يمينًا نحو الغار المكتّب، فصورته، وتأملت الجواد التي تربط بين وادي سَهُولٍ والجهفة، وبعدئذ عدت إلى الطريق المعبدة لكي أختصر الزمن، حيث أردت أن أصل إلى المجازة من قنونى؛ والتي صورتها صورًا جديدة، وخرجت إلى الشمال من سبت الجارة، فلم أستطع الوصول السريع إلى الجبيلات التي كانت منها نحو الشمال الغربي؛ بسبب بعض استخدامات الأرض، فاكتفيت بتصويرها المغبَرّ، وتلك الجبيلات هي من المواضع التي أرى أن خندقًا الأسدي قد دفن فيها، إلا أن تكونَ المُصْفَحةُ الشّدادِ بين الجبال المُطِلّةَ على مجازة قنونى!

اقتربت كثيرًا من جبل البكرتين في طريق عودتي، حيث صعدت بقدميّ على تلك الامتدادات الجبلية الحائلة دونها.

أطلت التأمل في لكة أم الخرص، ولكني لم أحاول الدخول فيها، وإن كنت أرى ذلك ضرورة لمن أراد أن يُلِمّ بالطرق المرتبطة بسوق حباشة.

من وسط خبت آل حجري، حاولت الذهاب إلى جبل الخرباء، ولكن مياه الشعاب الصغيرة حفظت بعض مياه الأمطار فمنعتني من بُغيتي.

عدت إلى الطريق المعبدة، واتجهت جنوبًا، فجاوزت جسر وادي شري، الذي لم يختلف عما عهدته في زيارات سابقة، ثم انعطفت مع أول مفرق نحو اليمين؛ لأمر بصخرة غار الصيحة، فاختلفت عليّ الطرق الموصلة إليها، ولم تكن درجتها معي، فقابلت شابًّا مهذَّبًا سمى لي نفسه محمد بن عبد العزيز البارقي، فكلّم رجلاً عند باب منزله، أخبرني بأن اسمه حسن بن محمد بن مَدِيني البارقي، فصحبه على سيارته، فمررنا بقرب غار الصيحة، فقلت: بارك الله فيكما! قال حسن: سأريك البئر! فطمعت أن أراها، فوقف عند زاوية منزل، فأراني موضعًا محاطًا بأساسٍ مربّعٍ قديم، ولا أراه إلا قبرًا، فقال: هنا كانت البئر، فقلت: لكني لا أرى إلا قبرًا! قال: إن لم تكن هذه هي البئر فقد أدخلها صاحب المنزل في منزله!

كان قوله غير مُقْنع، ولكنه لم يمهلني لأفكر أو لأسأل، بل انطلق إلى منزل قريب من ذلك المنزل، فوجد صاحبه أمامه، فقال: أين البئر؟ قال: كانت في مكان كذا، أمام غار الصيحة! قال: أليست تلك المحاطة بأساس عند زاوية بيت جارك؟ قال: إن ما أمام منزل جاري بناء قديم لا أعرف كنهه!

لم أكن بحاجة إلى متابعة الجدل بينهما، فالتفتُّ إلى الشاب الكريم، فأهديت إليه كتيِّبًا يعرِّف بالدوادمي وببعض الرحالة الذين مروا بها، كنت قد كتبت مادته بتكليف من مدير التعليم آنذاك الأخ المفضال الأستاذ مشاري بن عبد المحسن الرومي؛ لتوزيعه في برامج خريف الدوادمي، فأملى علَيَّ محمد البارقيّ رقم هاتفه الجوال، ثم ودعته وشكرته.

ومن العجب الذي يُذكر بعد هذه الرحلة أن يكون عمَّ ذلك الشابِّ الأخُ زاهرُ بنُ عامرٍ البارقيُّ.

وبعد أيام من عودتي من رحلتي هذه اتصل بي الأخ حسن بن محمد البارقي،

فقال: لِمَ لم تمرَّ بنا حين مررت ببارق قبل أيام؟ فقلت: لعلك رأيت سيارةً كسيارتي! قال: رآك رجلٌ تصوّر جبيل قرن مخلد، وقلتَ له إن لديّ بحثًا! قلت: الباحثون كثير! فقال: ورآك شابٌّ تسأل عن غار الصيحة! فقلت: وهل يقتصر السؤال عن غار الصيحة عليَّ؟! فقال: أجلَ إنما يقتصر عليك حين تهدي إلى ابن أخٍ لزاهرٍ كتابًا عن الدوادمي من تأليفك، وأخبرني زاهر بذلك، ويشهد بمجيئك خالي! قلت: أخفِيا أمري هذا عن أبي محمد الفقيه! قال: قد فعلنا.

خرجت من بلاد بارق قبل الغروب، وعدت مع طريقي إلى المخواة فالباحة، وفي طرفها الشمالي استأجرت غرفة في قصر سعود بن عطية الشهيبي الزهراني، ويبدو أنه لم يبلغ الأربعين بعدُ، وحظيت بمقابلته هناك، فدعاني إلى العشاء، فأخبرته بأني قد تعشيت، وشكرته ودعوت له بنماء المال والولد.

❖ اليوم الثالث: الجمعة 24 من ذي القعدة سنة 1435هـ:

خرجتُ من موضعي في الباحة ضحى اليوم نحو العقيق، وكنتُ أهدف من وجهتي هذه إلى السير في مواضع لم يسبق لي السير فيها. وحين خرجت من العقيق مررت بناحيةٍ ذات جبيلات سودٍ متراصة، فيها إبل تُساق وإبل سوامٌ، لكنها لا تريح أصحاب الإبل ولا رعاتها في حدة ارتفاعاتها وانخفاضاتها.

وفي ما بين العقيق وجُرَب رأيت لوحة تشير إلى وادي لِيف، وعلى الطريق محطة وقود وبويتاتٌ، فمكثتُ دقائق أتأمل الوادي؛ علِّي أتبيّن رابطًا بين صفته وبين صفة لِيف الذي يصب في بِيدة (أليف أبيدة)، ولكن النظرة السريعة التي لم تجاوز جزءًا يسيرًا من مجراه لا يمكن أن توحي إليَّ بزيادةٍ في علمٍ.

بلغتُ بلدة جُرَب، ومنها سلكت طريقًا جديدًا نحو العفيرية، غير أنه انقطع حين بلغَ مجرى وادي جُرَب، فكان العمل في جسر الوادي قائمًا، ومن بعد الوادي بمئات الأمتار شاهدت عن يساري موضعًا ذا كُتَلٍ واسعة من الحجارة السوداء، تأملتها فإذا هي آثار تحوي مدافنَ ودوائرَ وأساسَ أبنيةٍ ومنخفضًا نبتت فيه شجرةٌ لعله كان بئرًا، نسميها في سجل متابعاتي استراحةً أثرية، ولعل الآثاريين يبيّنون كُنهَ هذا الموضع.

رأيت مركز شرطةٍ متنحّيًا عن مسار الطريق نحو الشمال قليلًا، فتركتُه وسرت نحو الشرق، إلا أني لُمتُ نفسي فانحرفت إليه؛ لأسأل من فيه عن الطرق المؤدية إلى الطريق بين بيشة ورنية، وما إن اقتربت حتى خرج إليَّ واحدٌ ممن كان فيه، فقرأت اسمه المسجل على لباسه: سعد بن علي الأكلبي، فقلت: السلام عليكم أيها السَّمِيّ لولا أني لستُ أكلبيًّا! ففهمها وردَّ التحية قائلًا: وعليكم السلام يا أبا عليٍّ! ثم إنه رحّبَ بي وعانقني وأخذ بيدي نحو مكان الاستقبال، فقام رجلٌ كان ثمّةَ ورحَّبَ بي وعانقني هو الآخر، وهو الأخ عبد الرحمن بن سعود الأكلبي، ومعه ابنه سعود، الذي كان نشطًا في مناشط الضيافة ـ أصلحه الله ـ وأقرّ به أعين والديه.

لم أكن حَيِيًّا حين طَعِمتُ قهوةً لذيذةً، كنت أحتسي منها كؤوسًا، ثم هُيِّئ الشاي، فكان لذيذًا، ويبدو أن حسن استقبال هذين الأخوين الكريمين أشعرني بسعادة اكتشاف الرجال من قبيلة أكلُب ذات المجد والتاريخ، فكانت هذه اللذة!

تحدثنا بشيءٍ من شعر العرب الأواخر عن الأماكن، مع نزرٍ يسير من الشعر القديم، ثم علمت منهما أن هذه منطقة رعيٍ مواردها معروفة، وهي حدٌّ بين قبيلتين عظيمتين.

ألزمني هذان الأخوان بالغداءِ، فأفدتُهما أنّه قد عاجلني داء النِّقْرِس قبل نحو عشرة أيام، وأنني في حِميَةٍ من اللحم كلِّه بضعة أشهر، فقالا: إنّ بمقدورك الإخلال بهذه الحِميَة مرةً واحدةً! فما زلتُ أعتذر لهما، ووعدتُهما، وكانت لي اتصالات معهما منذ ذلك اليوم، فلقد هاتفني كلٌّ منهما على حِدَةٍ؛ ليطمئنّا لوصولي إلى الدوادمي، فجزاهما الله خيرًا، ولم يؤخر تنفيذي وعدي بزيارتهما إلا لأني كنتُ أطمع أن أحمل نُسَخًا من هذا الكتاب إليهما بعد طبعه.

حدّدا لي الطريق التي أصل من خلالها إلى العفيرية تحديد من قطّع الأرضَ طولًا وعرضًا، فودعتهما، ومضيت نحو العفيرية، مخترقًا مسالك وادي جرب ذات الأشجار الكثيفة والأرض الرملية النظيفة، وكانت نحو الشمال مني أطراف جبال رافة، رأيتُ واجهاتها مليئةً بالجدائل الحجرية المنقادة بين قمم الجبال وسفوحها، وتلكَ الظواهر التي صنعها أسلافنا كانت من أولويات اهتمامات شيخنا مجدد علم البلدان

عبد الله بن محمد الشايع، الذي جعلها في أذهاننا ألغازًا كلما مررنا بشيءٍ منها تأملناه وربطنا بينه وبين ما رأيناه من قبل!

حين خرجت من التواءات الوادي، قابلت عاملًا عربيًا من السودان، فأشار إليَّ فملتُ إليه، قال: أفلا أصحبك إلى العفيرية كي أدركَ الصلاة! فصحبني وقلت له: إنك لن تدرك الصلاة! ثم إنه وصف لي الطريق التي تخرج من العفيرية نحو الشمال فالشرق، وما إن بلغنا أول ناحية معمورة في العفيرية ذات النخيل، حتى أفاض المصلون من جامع تلك الناحية، فنزل هناك، ثم ذهبتُ وَفْقَ وصفه، فجاوزتُ مدخلًا فخرجت بعيدًا في طريقٍ عسِيرة، يئست من الوصول من خلالها إلى الطريق العامة، فعدت إلى حيث افتراق الطرق، وعند محطة وقود سألتُ عن الطريق شابًا لعله في نحو الثلاثين، قال: ليس قبل أن تتغدى معنا! فشكرتُه واعتذرت ببُعد شُقّةِ الطريق، فوصف لي وصفًا لا يضيع معه الأعمى.

خرجت على طريق معبدة نحو شمالي العفيرية، ولما بدأ الطريق ينتحي نحو الشرق رأيت دون أطراف جبال الكَور دائرة كبرى ذات ركام كثيرةٍ، فملتُ إليها؛ لأتأملها وأصورها لشيخي عبد الله الشايع وللبرنامج الساتلي[1] المشتهَر حديثًا والمسمَّى (Instagram)، حيث يعرض فيه المستخدِمونَ صورًا ثابتةً ومتحركةً تبلغ الآفاق. وما هي إلا ثوانٍ يسيرة حتى مال إليَّ من الطريق شابٌّ أحسستُ أنه كان يتابعُني منذ دقائقَ؛ إذ كنت أتأمل الجبال والمظاهر الحجرية، فسلّم عليَّ وقال: عجبتُ لأمر رجلٍ يصوّر هذه الحجارة فاقتادني الفضول إليك! فقلت: لا تعجب، فالله تعالى أمرنا بالتدبر والنظر في أعمال الأقدمين. لم يكن هذا الشاب جاهلًا بالبرامج التقنيّة، ثم مال إلينا رَكَبَةُ سيارتين حين أبصروا سيارة صاحبهم، ومن بعيدٍ قالوا: ما الأمر؟ قال: لا شيءَ، فنزلوا إلينا وصافحوني، ثم عادوا إلى الطريق، وأما صاحبي فسمّى لي بعض الجبال، ثم قال: إن من أجمل الفُرَص أن تذهب معي إلى منزلنا لتتغدى، فهو ليس بعيدًا من هنا! قلت: زادك الله فضلًا، فإني قد أكلتُ ما يغنيني عن

(1) مِلتُ إلى تعريب كلمة (إلكترون) بِ (ساتل) وهو التابع أو الدائر في فلكِ الشيء، وهي كلمة عربية نُقلت محرَّفَةً إلى اللغات الأجنبية.

الغداء وغايتي بعيدة. ثم ودعته، فقال: هل من حاجةٍ لك فنقضيها؟ فشكرتُه وأسِفتُ لأني لم أتعرف إليه.

ومن نافلة القول، فإنني كلما سرتُ في أرضِ الله الواسعة، قابلتُ شيوخًا وكهولاً وشُبّانًا، يدرك من يقابلهم أن الكرم العربيّ متجذر في النفوس، تكاد لا تفقد منه شيئًا إلا أن يطوّح بك السَّفَر إلى موضعٍ تُنوزِعت أرضه وموارده، وهنالك فلتكن ذا فراسةٍ لتعرفَ من تُحدّثُ وكيفَ تنبئُ عن نفسك!

كنت أسير على طريق معبدةٍ نحو الشرق، وحين رأيت جبل الشايل الأحمر عن يساري ذهبت طريق معبدة نحو اليسار إلى الغافة وأماكن أخرى، فخشيت إن أنا سرت فيها أن تنقطع دون رنية، ولست أعرف وجه الأرض في تلك الناحية، فآثرت الاستمرار، ثم بلغت الطريق بين بيشة ورنية فسرت فيها نحو رنية، جاعلاً جبل كور المجامعة العظيم عن شمالي، ثم من رنية استمررت في سيري نحو الخرمة، فظلم، حيث صحبني منها أخ من السودان، قال إن اسمه عبد العظيم [بن] محمد، فتحدثت وإياه عن بلدان عفيف وسكانها، فلقد كان ينقل المياه بالصهاريج المتنقلة، ثم إني تركته في شرقي عفيف بالقرب من بعض صهاريج المياه، وواصلتُ سيري إلى البجادية، فالدوادمي.

والحمد لله الذي يسّر لنا السبُل، ووطّد في وطننا الأمن، وهدانا الصراط المستقيم.

خطوط العرض والطول لبعض المواضع المذكورة في الرحلة

الموضع	خط العرض			خط الطول			تفصيل
	ثانية	دقيقة	درجة	ثانية	دقيقة	درجة	
القبر ذو الأساسات	42	56	18	15	51	41	في ناحية غار الصيحة
الاستراحة الأثرية	55	29	20	48	03	42	على طرف وادي جُرب
الدائرة الكبرى ذات الركام	43	39	20	40	10	42	أيمن الشمال من العفيرية

الرِّحْلَةُ الْمَيْدَانِيَّةُ السَّابِعَةُ

❖ الثاني من أيام الرحلة: الأربعاء 5 من ربيعٍ الأول سنة 1437هـ، ووافق 16 من كانون الأول (ديسمبر) سنة 2015م:

زرت معرض الكتاب الدولي بمدينة جدة، وجوّلت فيه ساعات طويلة، ثم خرجت منه بعد العصر بزمن طويلٍ نحو طريق مكة، حتى إذا ما بلغت مفرق طريق الليث من الطريق الرئيسة سلكت فيها، حتى بلغت ميقات يلملم (السعدية)، فنصبت خيمتي وولجت فيها رغم الحرارة اتقاء شر البعوض الذي أحس مني الهروب فعاجلني بالقَرص!

❖ الخميس 6/ 3/ 1437هـ، ووافق 17/ 12/ 2015م، وهو ثالث أيام رحلتي المتباعدة الأماكن:

قمت قبل الفجر بوقتٍ طويلٍ، فاغتسلت من منشآت الميقات، ثم سقت سيارتي حتى بلغت الليث فصليت الفجر فيها.

لم أستطع الوقوف بعيدًا من الطريق؛ كي أصلح قهوتي، فحين ابتعدت من بلدة الشواقّ رأيت الأرض عن يميني مستوية ليس فيها كثبان من الرمل، فملت إليها، غير أني أحسست بثقل السيارة حين بدأت عجلاتها بالانغراز، فسارعت إلى تشغيل نظام الدفع الرباعي وشددت عزيمتها في دائرة كبيرة حتى عدت إلى الطريق، فرأيت السلامة من هذا أولَى من التلذذ بقهوةٍ في هذا الجو الجميل، فاستمررت وبعد أن جاوزت المظيلف بثلاثين كيلومترًا انعطفت يسارًا نحو الصالحي، ثم سلكت من بعده طريقًا بعضها غير معبد نحو أحد بني زيد، فزادتني رؤية أعلى مجرى الحنّاف ثقةً بأنه المعني بالقناة في (صفة جزيرة العرب).

بلغت سبت الجارة، وكأنها لي جارة، أتعاهدها كلما ظننت أني أبطأت عنها، وأسأل الله تعالى لها الغيث والسقيا.

جاوزت سبت الجارة إلى خميس حرب، ثم إلى بئر ذات أعشار؛ لأعيد تصويرها، ثم سلكت الطريق المعتادة إلى بارق.

بلغت موضعًا من خبت آل حجري نزلت فيه، فأصلحت قهوتي، ثم خرجت نحو

جبل قزع دحدح، فصورته، وأردت الوصول إلى الخرباء (جبل الصلة)، فلم أستطع، فمررت برجل قد قذفت به الكهولة إلى خانة الشِّيب، بين سيارته وغنمه، فسلمت عليه ثم سألته عن طريق الصلة، فقال: أتريد أن تصوّرها؟! قلت: أجل! قال: تلك في أملاكنا ولن أسمح لك بتصويرها وأنا أشاهدك بأم عيني، ولكني أراك ممّن أحاطوها بتلك العلامات البيضاء! قلت: أولئك مسؤولو هيئة الآثار! قال: وهل تأتي الآثار إلى هذا المكان دون علمنا؟! قلت: إن هذه العلامات حفظت هذا الجبيل من جشع الشركات، أفلا ترى إلى حمراء المغيراء كيف لم تكن عليها علامات فالتهمت الكسارات جانبًا منها وقد تأتي عليها؟!

لم يكن مطمئنًا إليَّ، وطال حديثي معه، ثم قال: دع مطلبَ التصويرِ المستحيلَ واذهب معي إلى منزلي للقهوة والغداء! فقلت له: أغناك الله، فإن قهوتي وغدائي هما أن تركب معي في سيارتي فنصل إلى الصلة! قال: ذلك ما لا أفعله ولا أقبله!

تركته وذهبت نحو الرّصّ حيث دخلت إلى مسجد عمر بن الخطاب، فصليت فيه الظهر والعصر تقديمًا، ثم خرجت منه إلى دكان في إحدى المحطات، لأشتري ما ينوب عن الغداء، وفي ذهني أنني لن أهاتف أحدًا من البارقيين لأخبره بمجيئي إلا بعد أذان العصر، غير أني حين لم أجد بغيتي في دكان المحطة ذهبت إلى محطة المنيظر، فرأيت زحام سيارات وقَفَها أصحابها، فانتظرت أن يخرج أحدهم لأحُلَّ مكانه، فخرجت سيارة لم ألبث حين حللت بسيارتي محلها أن ناداني صاحبها بكُنْيَتي، فالتفتُّ إليه فإذا به الأخ زاهر بن عامر البارقي، فعلمت أن قدَري غلبَ حذَري، فسلمت عليه، فقال: الحق بي إلى منزلي! فاتّبعته، ودخلت إلى منزله العامر، فهاتَفَ عبدَ الله الفقيه وحسن بن محمد، فأما حسن فجاء إلينا، وأما الفقيه فكان قد جاوز محايلاً مع بعض رفاقه للتنزه والتخييم في شاطئ ذهبان.

لم تمضِ إلا ساعتان فإذا بالغداء قد حضر، وتغدى معنا عبد العزيز بن عامرٍ أخو زاهرٍ، فأكرم الله زاهرًا وقومه وأغناهم من فضله.

اتصل الفقيه بزاهر ليسأله عن برنامج رحلتي وهل لا يؤثر فيه ذهابنا إليهم في ساحل ذهبان إن نحن فعلنا!

كانت خِطّتي الذهاب نحو وادي ترج في أعلى بيشة، ثم الاتجاه نحو تربة لاستكمال البحث الميداني في بعض مواضع كتاب لُغْدَةَ الأصفهانيّ، فقلت لزاهر: سوف ألغي رحلة بيشة وما حولها وأجعل يوم الجمعة لبارق!

صحبني الأخوان زاهر وحسن نحو ذهبان مرورًا بمحايل والبِرك، حيث صلينا المغرب والعشاء فوق الحَرة. ثم إنا بلغنا موضع الإخوة عبد الله بن محمد الفقيه البارقي ورفاقه علي بن هادي البارقي وحسن بن هيازع البارقي وعون بن أحمد الشهري ومحمد بن عائض الهاشمي وأحمد بن مضيم البارقي فاستقبلونا بالحُب والترحاب، فجزاهم الله خيرًا، وكانوا يهيئون عشاءهم، فلما قدّموه لنا اعتذروا قائلين: إنا قد شرعنا في ذبح ذبيحتنا قبل أن نتأكد من مجيئكم، وإلا لكُنّا اخترنا ذبيحة تليق بكم! قلنا: أبغير هذا الخير العظيم تريدون أن تضيّفونا؟! ولا يعتذر إلا المقصّر! قالوا: إنه أمرٌ سبقكم، ونحن نرجو منكم المبيت ههنا لنتغدى غدًا! فاعتذرنا رغم إلحاحِهم.

مكثنا بعد العشاء زُمينًا ثم استأذنّاهم، فصحبنا الفقيه بعد أن اقترح عليه رفاقه أن يعود معنا إلى بارق. وبعد وصولنا إلى بارق ذهبت مع الفقيه إلى منزله فبتُّ عنده.

❖ اليوم الرابع: الجمعة 7/ 3/ 1437هـ:

أيقظني أبو محمد لصلاة الفجر، فصليت معه في مسجدٍ غير بعيدٍ منه وكان الفقيه إمامَهُ، ثم عدنا إلى منزله وبعد نحو ساعة أحضر القهوة والفطور، فطَعِمنا منهما ما شاء الله لنا، ثم خرجنا إلى المنيظر، فكان حسن في انتظارنا، فصحبنا نحو غار الصيحة الذي لم أوفق مرتين في اختيار وقت من النهار يناسب تصويره، فصورته اليوم.

أريت الأخوين شِعب المجازة، فقالا: إن مثل هذه الشعاب الصغيرة لا يعرفها إلا من كان في جوارها!

• القَفْلَةُ دَلِيلٌ عَلَى رُجُوعِ مُعَقِّرٍ البَارِقِيِّ إِلَى قَوْمِهِ

ذهبنا باتجاه شِعب الأرنبة، وقبل أن نصل إليه رأينا بعض الشجر ومن بينه المَضُّ، واحدته مضّة، وهي شجرة شديدة الخضرة، سماها لي أبو محمدٍ الفقيه ثم قال: تعال أريك القَفْلَة التي ذكرها معقِّر بن أوس البارقي لابنته، فهي الشجرة التي يستخرج منها

المُرّ الذي يُتَطبّب به، فرأيتها شجرة لا تَنبت في مجرى سيلٍ وإن تناهى في الصِّغَر، وصدق معقّر. فقلت لهما: أرجو أن تريَا جَبَلة في نجدٍ عمّا قريبٍ، لتعرفا أن معقّرًا وصف موضع المعركة بما لا يضيع معه إلا من لا يعير النصوص لُبّه!

قال ابن منظور[1]: «روى شمِرٌ أن المعقّر بن حمارٍ البارقيَّ قال لِبنته وهي تقوده وقد كُفَّ بصرُه، وسمع صوت رعدٍ: أيْ بُنَيّة ما تَرين؟ قالت: أرى سحابةً سحْماء عقّاقة، كأنها حِوَلاءُ ناقة، ذاتَ هيدبٍ دانٍ، وسيرٍ وانٍ! قال: أي بنية وائلي [بي] إلى قفلة؛ فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل! شبّه السحابة بحِوَلاء الناقة في تشققها بالماء كتشقُّق الحِوَلاء، وهو الذي يخرج منه الولد».

إن أرض نجدٍ التي عاش فيها معقّر شبابه وكهولته لا يُخشَى في معظم نواحيها من السيل في الأرض المستوية، ولعل معقّرًا يعرف أمكنة سيره فيها إن كان قد كُفّ بصره هناك، والقفَل ليس من شجر نجد، ومنحدرات الجبال التي لا تكاد تنقطع في أصدار السراة مظنة السيل الجارف.

وتدارست والأخ تركي بن ماطر الغنامي سيرة معقّر، فقال: إنني أرى رأيك حول أن معقّرًا شهد يوم شعب جبلة بصيرًا، ولا دليل عندي على رجوعه إلى بلاد قومه سوى ما تراه، غير أني أرى حلف بارق في نمير كان أقدم من معقّر؛ حيث إن لغة شعر معقر لا يؤتاها إلا من ولد في صحراء نجد! ولعلّي لا أكون مبالِغًا إن ظننتُ أن معقِّرين: جَدًّا وحفيدًا خُلط بين شعرهما كما هي الحال في خلط شعر المرقِّشَين الضُّبَعِيَّين البكريَّين الأكبر والأصغر.

هبطنا في شعب الأرنبة، فقطعناه إلى قذل قتروي، حيث دخلنا من خلاله إلى مسيد المهلل، فرأينا بعض الركام الكثيفة التي تحير لُبّ الباحث، فقالا لي: ما الذي تراه في مثل هذه الركام؟ قلت: أميل إلى أنها مقابر لملّة لم نعرف كنهها! قالا: بل نميل إلى أنها أعلام طريق تتخلل هذا المكان، فلقد رصدنا أمثالها من آل دريب حتى جمعة ربيعة، لم تفارق الطريق وقد رأيتَ بعضها! قلت: إذن فهي مقابر على الطرق استغلت أعلامًا!

(1) ابن منظور، **لسان العرب** (مرجعٌ تقدّم)، مادة (عقق).

صعدت والفقيه على جانب مرتفع من قذل قتروي يكشف ما أمامه وما عن جانبيه بزاوية لا تقل عن (300) درجة، فرأينا ما ارتفع من جسم جبل الأضحى، وأبصرنا جبل أثرُب وجبل هتمان، والبكرتين وثربان، وجبلي غرابن ونمارن، ورأينا جبل الشعراء دون جبل جخيذب في الناحية الشمالية الغربية من مسيد المهلل، وهو جبل أسود ليس بالكبير، قد اصفرّ النبات فوقه. ومن أهم ما أردنا مشاهدته قرن مَخلَد وقرن غولات وقرين لَبنٍ داخل ما أراه ضمن أرض سوق حباشة، وجبلا الصلة (الخرباء) وفزع دحدح، وتلك الجبال في البياض غربًا من مجرى دحدح.

أراني الفقيه شجرة النَّبع وشجرة القتاد الجبلي وهي شجرة ضخمة تختلف عن قتاد نجدٍ البرّيّ، وأراني شوكها المعقوف قائلاً: هذا هو مضرب المثل العربي: «دونَهُ خَرْطُ القتادِ»؛ حيث إن هذا الشوك المعقوف يُخرج الحليم عن حلمه إنْ هو أراد أن يخرُطَهُ!

هبطنا منخفض جوف القاضي، في مسيد المهلل، ثم خرجنا منه نحو حمراء المغيراء، ثم عدنا نحو قرين لبن وقرن غولات فصورتهما وسجلت درجتيهما، وهما جبيلان أسيِّدان[1]، يقع الأول منهما شمالاً من مجرى وادي شري، وما زالت قمته حادة لم يعبث بها عابث، وأما الآخر فقد سُهّلت قمّته لبناءٍ صخري فوقه، ويلامس طرفه الجنوبي سيل وادي شري. ثم إنا ذهبنا نلتمس طريقًا من قرن مخلد نحو الصلة، حتى إذا كدنا نيأسُ منه بسبب أحباس التراب والشبوك التي كُثفت حوله ما إن رأوا أعمدة الهيئة العامة للسياحة؛ رأينا غنمًا تخرج من ناحية في شبك، فجعلنا مخرجها مدخلاً إلى جبل الصلة، فدخلنا إليه وتأملنا بعض حجارته المثقوبة، والمنقّيات في ناحيته الشرقية، ثم خرجنا نحو المنيظر؛ لنصلي صلاة الجمعة في جامع عمر بن الخطاب. ويبدو أن اسم الفاروق كثيرًا ما تسمى به مساجد في بارق، فرضي الله عن أبي حفصٍ عمرَ.

خرجت والفقيه نحو مطعم جديد في وسط بارق، يتقاطر عليه الناس، فجاءنا زاهر ولحق بنا حسن، ثم تغدينا وخرجنا نحو البرَدانيّ، حيث اتجهنا نحو الجنوب ثم أخذنا

(1) أي أسودانِ بصيغة التصغير.

ذات اليمين مع الطريق المعبدة التي تمر ببلاد الطحاحين، ومن القَلالَة من بلاد الطحاحين سلكنا طريقًا ترابية، نحو وادي بقْرة، أمام مصب واديَيْ جبالٍ وثعيّب الجنوبيّ فيه، حيث يجتمعان قبله، فذلكم البرداني. وكنت قد قست طوله ببرنامج (Google Earth) فكان مائتي متر فحَسْب.

كان وادي بقرة أخضر لا يكاد يرى ترابه، ويجري ماؤه في مسالك مائية تخفيها الأعشاب، كأنما نزل عليه المطر تَوًا، وأما البرداني فهو مستراض مائيٌّ تحيط به الأعشاب التي تزدحم في بعض جوانبه وتقلُّ كثافتها في بعضٍ، وكان المتنزهون يملأُون جوانب وادي بقرة أسفل من البرداني، فوَقَفنا سيارتنا على حافة طرفه الأيسر، ونزلنا نتلمس موطئًا لأقدامنا كي نقطع مجرى بقرة إلى البرداني. والبرداني قبلةٌ للمصورين الذين يختارون آناءً من النهار لتصويره، وأما أنا فصورته تصوير من يريد حفظ الذكريات.

بعد ذلك، خرجنا نحو المكان الذي دخلنا منه، ثم اتجهنا غربًا، ولمّا خلّفنا جبل مغيمر عن شمائلنا ببضعة كيلومترات انعطفنا يمينًا، فسرنا في طريق أولها معبد ثم أمست ممسوحة، لا يُضِرّ السير فيها بسالكها، فهبطنا بعض الشعاب حيث سرنا بمحاذاة وادي الحمض، حتى خرجنا على البيداء.

عدنا إلى وسط بارق، فودعتُ الإخوة الثلاثة، ثم مررت بجامع عمر بن الخطاب فصليت المغرب مع جماعته وأتبعتها العشاء، ثم انطلقت نحو المخواة، وما إن بلغتها حتى أحسست بالنوم الذي قد يضرّ بي إن واصلت السير على الطريق، فما كان مني بعد أن خرجت من المخواة إلا أن ملت عن الطريق وفرشت فراشًا معي، فنمت نحو ثلاثة أرباع الساعة، وكانت درجة الحرارة المئوية ستًّا وعشرين. وبعد أن استيقظت صعدت إلى الباحة مع العقبة، وفي طرفٍ من الباحة استأجرت غرفة سكنية فنمت فيها حتى ضحى السبت.

❖ السبت 8/ 3/ 1437هـ، وهو خامس أيام الرحلة:

خرجت من الباحة بعد الساعة العاشرة صباحًا، نحو عقيق غامد، مستأنفًا الوقوف على بعض ما لم أقف عليه من مواضع ذُكرت في كتاب لغدة الأصفهاني، المسمّى - مجازًا ـ (بلاد العرب)، فسرت في طريق الرياض الجديدة التي بلغَت موضعًا قريبًا من

بلدة جُرَب، التي جعلتها خلفي واتجهت نحو تربة، وتياسرت طريق نحو كراء تركتها، ومررت بحليان الأهايل، وهي نحو ثماني حِلاءٍ كبيرة، ذُكرت في (بلاد العرب)، ورآها الباحث الشيخ محمد بن ماجد بن غنام البقميّ هَولَى[1]، واستشهد عليها بقول مغيرة بن ظَهرٍ الزّهيريّ يصف غيثًا:

نَحِنُّ نَوَالِيهِ بِهَوْلَى وَقَدْ عَلَتْ ... أَوَائِلُهُ أَثْبَاجَ رَمْلِ الْمَضَاجِعِ

ثم مررت بالقوامة، والتي رآها ابن غنام القامة في الكتاب المذكور. والقوامة جبيل أسود كاد يكون قرنًا، يضربُ سفحه سيل وادي كراء، وقد قامت بلدة القوامة شمالاً منه في بيوت متفرقة، ورأيت أحواشًا مسورة جاوزها البناء يمنةً ويسرةً وهي هي لم ينشأ عليها بناء؛ ذلك لأننا قد مررنا بها ذات ليلة من شوال سنة 1421هـ، وكنت بصحبة الشيخ عبد الله بن محمد الشايع والأخوين سعد بن عبد العزيز اليحيان وعبد العزيز بن صالح الشايع والشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز اليوسف، فبتنا في أحد هذه الأحواش اتقاءَ شدة الرياح.

ثم مررت بمصابِّ الأودية في كراء شمالاً غربيًا من القوامة، وكان نباتها العُشَر والسَّلَم وأشجارًا لم أعرفها.

• الشَّنْفَرَى شُغْلٌ شَاغِلٌ

استمررت على الطريق أقل من عشرين كيلومترًا، ثم هبطت منها في أحد الأودية لأسير معه إلى التفاف وادي أبيدة قبل مصبه بوادي تربة بنحو أربعة كيلومترات، حيث يراه الباحث محمد بن ماجد بن غنامٍ الناصفَ من أبيدة، فرأيته متسعًا لا يوافق رواية من قال إن أسيد بن جابر كمن للشنفرى فيه، غير أنه يصح أن يكون ناصفًا ويصح أن يكون فيه مقتل الشنفرى إن اتفق الباحثون على سيرة جديدة للشنفرى يؤخذ فيها بالمنطق لا بالخيال والإثارة. وكان نباته شجر العرين الضخم والسلَم والسيَال والسمر والعُشَر والحرمل، وسرحًا قليلاً متفرقًا.

---

[1] محمد بن ماجد بن غنام البقمي، **أجزاع تربة وديار البقوم**، الرياض، لم تذكر دار النشر، ط2، 1436هـ، ص (115).

ثم سلكت الطريق المعبدة إلى العلبة فتربة فالخرمة فظلم فعفيف، حيث مررت بالأخوين خالد وسلطان ابني تركي بن ماطر الغنامي، فاحتسيت القهوة والشاي معهما، وكان أبوهما قد غادر عفيفًا إلى الرياض قبل وصولي بنحو ساعة ونصف الساعة.

غادرت عفيفًا والمؤذنون لصلاة العشاء قد شرعوا في نداء الصلاة، ثم بلغت البجادية فالدوادمي في رحلة جاوزت (2800) كيلومتر.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

خطوط العرض والطول لبعض المواضع المذكورة في الرحلة

الموضع	خط العرض			خط الطول			تفصيل
	ثانية	دقيقة	درجة	ثانية	دقيقة	درجة	
جبل الشعراء	55	56	18	20	51	41	في طرف مَسِيد المُهَلَّل
نقطة في جوف القاضي	55	56	18	40	51	41	شِعب في مَسِيلِ المُهَلَّل
قرين لَبَن	14	57	18	00	51	41	عن يمين وادي شري
قرن غولات	09	57	18	07	51	41	بطرف وادي شري الأيمن
منتصف البَرَدَانيّ	25	47	18	45	56	41	مستراضٌ مائيّ
منحنى أبيدة قبل وادي تربة	00	49	20	05	27	41	الناصف وَفق رأي ابن غنام

الفصل السادس

تَحْقِيقُ مَوْقِعِ سُوقِ حُبَاشَةَ

بعدَ حشدِ النصوص التي تحدثت عن سوق حباشة، وبعدَ التجوال في الأماكن التي تحرّى فيها الباحثون المعاصرون موقع سوق حباشة، وبعد السير في الأرض بين قنونى وحلي، وبين غور السراة وخبوت تهامة، وبعد معرفة آراء الباحثين وأولي الترحال والتجوال، انتهى بنا المطاف إلى تحديد الحيّز الذي تقع فيه سوق حباشة في بلاد بارق.

وكان لِزامًا التعريجُ على بعض النصوص التي لم تُحَلَّلْ في الفصول السابقة، واستقراؤها، ومعرفة مدى انطباق المواضع التي اختارها الباحثون لتحري قيام سوق حباشة فيها.

- **هَلْ يُمْكِنُ اخْتِيَارُ مَوْقِعِ مَا بَيْنَ الْحَوَارِي وَحِدَابِ الْقَرْشَةِ سُوقًا؟**

تبيّن من زيارة المكان الذي اختاره الشيخ حسن بن إبراهيم الفقيه، ووافقه عليه الأستاذ عبد الله بن حسن الرزقي، ثم الدكتور عبد الله أبو داهش، تعذُّر إمكانية قيام السوق فيه؛ للأسباب التالية:

- البعد بين هذا المكان وبين مكة يقصر عن ثماني مراحل، وهي المسافة التي أوردها الإمام ابن سعد في قياس بُعد سوق حباشة من مكة.
- القول بأن أهل تلك الناحية يسمونها رهوة السوق، ولا يُدرى أيُّ سوقٍ هي! وهذا ليس إثباتًا لسوق حباشة، بل هو إثبات - إن صحَّ - لوجود سوق محلّية في

تلك البقعة الضيقة، ولو أن لحباشة سوقًا في تلك الناحية، لبلغت السُكانَ أخبارُها وحُفظ اسمُها وإن اعتوره شيء من التحريف.

- ضيق مساحة السوق، حيث لا تبلغ نصفَ كيلومتر مربَّع، تشمل منازل قاصديها، فإن خرجوا من ناحيتها الضيقة إلى مساحات ليِّنة في ناحية الجنوب للنزول فيها، فإنهم يكونون قد نزلوا في تلاعٍ لا يؤمَن جريان السيل فيها، واجتثاث دابر المقيمين فيها في هدأةٍ من ليل.
- لو سلَّمنا باجتماع القبائل المتباعدة في أنسابها في سوق الحواري، فإنها لن تجد مواضع تستقل بها، وسيكون الازدحام سببًا في اطّلاع أهل كل بيتٍ على خصوصيات جيرانهم، وهذا من ما تأنف منه العرب، وأما ماشيتهم التي سيحتلبونها فلن تكون على مقربة منهم، إلا أن يكون طعامها الماء وحده!
- أين سيكون مكان الوالي الذي يرسله أميرُ مكةَ وحاشيتِه من السوق؟ هل سيقبل بأن يكون بين عامة الناس؟!
- يوجد في الموقع قبور جاهلية منبوشة وأخرى غير منبوشة، ممّا لا يُتَوَقَّع من العرب أن يتخذوه مجالاً للبيع والشراء، ولو اتخذوه لهذا فَلِمَ لَمْ يطهّروا موقعه من هذه الحجارة!
- نأيُ الموقع المشار إليه عن الطرق الرئيسة في الأزمان المتقدمة، ودلَّل على نأيه عنها الشيخ عاتق بن غيث البلادي في إنكاره أن يكون هذا المكان الضيق سوقًا.
- لا يقع هذا المكان على أي طريق يؤدي إلى الجَنَد أو يأتي منها.
- هذا الموقع لا بد للقادم من مكة إليه أن يختار طريق وادي عُلْيَب؛ لأنها أيسر الطرق، ولن يزيد مسيره عن ست ليالٍ.
- الموقع ليس بعيدًا من ديارٍ ليست خاصة بالأزد في شماليِّه، حيث أضحى الحارثيون في شماليّه بعد الإسلام، يسمعون الصائح فيه، وأما في جنوبيّه فيمكن الظن بقرب كنانة منه، أو اليقين بأن بعدهم منه ليس كبيرًا. وينتج من هذا نظرية عنق الزجاجة في الساعة الرملية، ففي حين تنتشر الأزد جنوبًا شرقيًا منه، وشمالاً

وشمالاً غربيًا منه، فإنها تنحسر عنده انحسارًا لا يعينها على حفظ أمنه. ولو جعلنا عكاظ مثلاً، ونحن نعلم أنها في بلاد قيس، أدركنا أنها لا يمكن أن تقوم على تخوم قبيلة هذيل غير القيسية؛ كي لا ينعدم الأمن فيها بتنازع سيادة الأرض.

- لو كان الموقع أزديًا فيبعَدُ أن يكون لغير بلقرنٍ، ولا يمكن له أن يكون بارقيًا، وقد حالت خثعم وبعض قبائل الأزد بينه وبين بارق وَفْقَ ما أوردته المصادر القديمة.
- ليس هذا الموقع للإواس من الأزد كالذي قال به بعض الباحثين، فإن الإواس سَرَوِيُّون. هذا فيما لو قبلنا بتعليل من قال إن الأوصام تحريف من الإواس، وهو قول باطل جملةً وتفصيلاً؛ لأن مصادر الأنساب ذكرت الأوصام والإواس كلاًّ في موقعه من عمود نسب الأزد، ولم تذكر واحدًا وتترك واحدًا. بلهَ أن الإواس من الحجر لا من بارق.
- ليس هذا الموقع في ديار بارق، التي ذكرتها المصادر، ولا قريبًا منها، وهذا الجانب كافٍ لنفيِ أن تقوم سوق حباشة فيه.

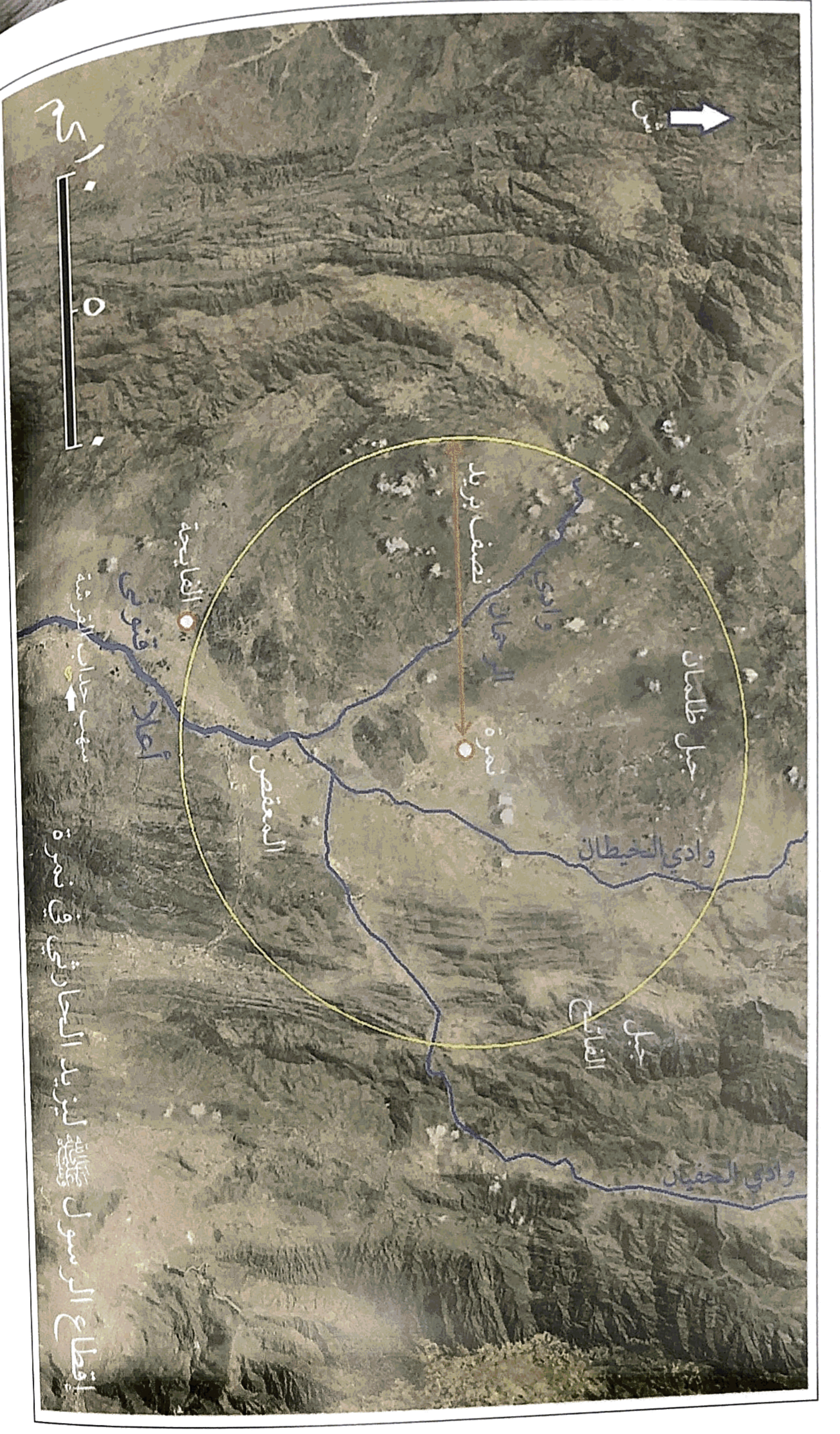
• هَلْ يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّ السُوقَ قَامَتْ في الْمُعقَّصِ؟

تبلغ مساحة أرض المعقَّص نحوًا من ثمانية كيلومترات مربعة، وهي مساحة كافية لتفرُّق القبائل وابتعاد بعضها عن بعضٍ في نزولهم، ولقيام سوقٍ في وسط القومِ، يستطيعون بلوغها من اتجاهات منازلهم كافة.

ولكن لا يصحُّ لأحدٍ القول بأن سُوق حُباشة الأزديةَ قامت هناك، للأسباب التالية:

- ليست المعقَّص في ديار الأزد، بل كانت في منطقة مشاعة بين القبائل، ثم أضحت في ديار مَذْحِجَ، وما زالت كذلك؛ ويكفينا دليلاً كتاب رسول الله ﷺ ليزيد بن المحجَّل الحارثي ـ رضي الله عنه ـ وفيه: «أن لهم نَمرَةً ومساقيها ووادي الرحمان من بين غابتها وأنه على قومه من بني مالك وعقِبِه»[1]؛ فإن من

[1] يمكن الرجوع إلى الجدول في المبحث الثالث من الفصل الثالث من هذا الكتاب.



خريطة رقم (4)

إقطاع رسول الله ﷺ ليزيد بن المحجل في نمرة ووادي الرحمان من بين غابتها.

يستحوذ على نمرة وعلى وادي الرحمان، يسيطر على ناحية المعقّص كلها، في أعالي قنونى.

- وصول القادم من مكة إلى المعقَّص سيكون من ناحية وادي عُلَيب، وتلك هي الطريق المختصرة، ولا تزيد مسافتها عن ست ليالٍ.
- انحدار مجرى قنونى في وسط أرض المعقَّص لا يساعد على إقامة السوق في وسطها.

• لِمَاذَا قِيلَ (مِنْ صَدْرِ قَنَوْنَى وَحَلْيٍ) في تَحْدِيدِ سُوقِ حُبَاشَةَ؟

من خلال ما طرحتُه في الفصول السابقة، بيَّنتُ أن صدر قنونى وحلي جملة واحدة لا تناقض بين أجزائها؛ ذلك لأنها تعني طريقًا تهامية ترتفع عن الساحل، ثم بدأ بصدر قنونى قبل صدر حلي؛ لأن قنونى أقرب إلى مكة من حلي. ولو كان المعنيَّ بهذا الواديان فإنه لَخللٌ كبيرٌ حين لا يُذكر وادي يبة، وهو بين هذين الواديين، وله من الشهرة مثل ما لهما.

ويُعزِّز هذا الرأي بمعرفة طريق الجَنَد العليا، التي تمر بحلي العليا، حيث تسمى حلية العليا، وتخترق ما أسماه الهمدانيّ أو راويتُه مساقطَ بارق، وبين هذه المساقط مجرى وادي يبة، الذي تتجه إليه سيول يسران والملصة وشِعب بارق، ووادي خاط، ثم شِعب شِحذِّن، ثم وادي ذات أعشار، وكل الشعاب التي تنحدر في جرّ الطود من ثربان، ومن أهمها وادي مغلوث، ثم تمر الطريق بوادي شِسعٍ، وهو آخر المساقط، ولعله حدُّ أرض بارق آنذاك، حيث يتجه سيله إلى قنونى، ثم إن الطريق تخرج على المجازة من قنونى، ومن بعدها تتجه نحو عشم، ثم يواصل سالكها سيره إلى مكة.

• مَا الَّذِي نَفْهَمُهُ مِنْ مَهْلَكِ خَنْدَقٍ الْأَسَدِيِّ وَدَفْنِهِ في الْمَجَازَةِ مِنْ قَنَوْنَى لِتَحْدِيدِ سُوقِ حُبَاشَةَ؟

قال كثيّر الخزاعي في رثاء خندق الأسديّ بعد أن أفضاه حاضرو سوق حباشة إلى الموت:

وَإِنِّـي قَـائِــلٌ إِنْ لَــمْ أَزُرْهُ سَـقَـتْ دِيَـمُ السَّـوَارِي وَالْـغَـوَادِي

مَـحَـلَّ أَخِـي بَـنِـي أَسَـدٍ قَـنَـوْنَـى   فَـمَـا وَالَـى إِلَـى بَـرْكِ الْـغِـمَـادِ

مُـقِـيـمٌ بِـالْـمَـجَـازَةِ مِـنْ قَـنَـوْنَـى   وَأَهْـلُـكَ بِـالأُجَـيْـفِـرِ وَالـثِّـمَـادِ

وتلك رواية الأصفهاني في (الأغاني). وأما رواية (ديوان كثير) في البيت الثاني منهما، وهي الرواية الواسعة الانتشار، فهي:

بِـوَجْـهِ أَخِـي بَـنِـي أَسَـدٍ قَـنَـوْنَـى   إِلَـى يَـبَـةٍ إِلَـى بَـرْكِ الْـغِـمَـادِ

وقد أورد ياقوت في (معجم البلدان) اسم الوادي: (يبَت)؛ فكأنما أجري التنوين سماعيًّا لا كتابيًّا، حيث يتشابه سماعًا تنوين التاءين المفتوحة والمربوطة.

إن مدار الروايتين في البيت الذي تقدّم تدور حول قنونى وبَرك الغماد، لكن الرواية في (الديوان) و(معجم البلدان) تُشرِك يبة معهما، ولا أرى الصحيح إلا رواية (الأغاني)؛ للسبب الذي سأذكره بعد أسطرٍ من هنا.

وقال ياقوت في (معجم البلدان) في رسم «برك الغماد»: «برك الغماد: بكسر الغين المعجمة، وقال ابن دريد: بالضّم والكسر أشهر، وهو موضع وراء مكة بخمس ليال، من ما يلي البحر، وقيل بلد باليمن، دفن عنده عبد الله بن جدعان التيمي القرشي، قال الشاعر:

سَـقَـى الْأَمْـطَـارُ قَـبْـرَ أَبِـي زُهَـيْـرٍ   إِلَـى سَـقْـفٍ إِلَـى بَـرْكِ الْـغِـمَـادِ

... وفي كتاب عياض: بَرك الغماد، بفتح الباء عند الأكثرين، وقد كسرها بعضهم، وقال: هو موضع في أقاصي أرض هجر(؟)، قال الراجز:

جَـارِيَـةٌ مِـنْ أَشْـعَـرٍ أَوْ عَـكِّ   بَـيْـنَ غِـمَـادَيْ [يَـبَـةٍ] وَبَـرْكِ»

إن أمامنا بعض التصحيفات والتحريفات في النص السابق، وهي:

- سقف: حيث لا يُعْرَف في المصادر من بين مواضع تهامة مكان يسمى سقفًا، فقد تبيّن لي أن الكلمة تصحيف بل تحريف من كلمة (يبت) مفتوحة التاء، التي أوردها ياقوت في غير هذا الموضع من (معجم البلدان)، في رسم «قنونى». وبهذا أجزم بأن عجُز بيت كثيّر عزّة الذي رواه ياقوت هو هذا العجُز نفسه، وأنه منحول على كثيّر، وأن الذي قاله كثيّر إنما هو ما رواه مصنف (الأغاني).

- هجر: لا يمكنني الجزم بأنها تحريف من (حجر) الواردة في قول الهمداني، فذلك في غربي المكلا، وموضع برك الغماد القاصية حددها تحديدا واضحًا، شمالا شرقيا من مدينة عدن اليوم. ومعرفة موقعها يغني عن تتبُّع مواطن التصحيف والتحريف في غياب المصادر وتعذّرِ الوقوف الميداني.

- يبة: هي «يبة» مصحَّفَةً، وقد عدّلتها ووضعتها بين حاصرتين.

وأما الرجز في كتاب عياض، فلعل قائله كان يرمز إلى قبائل الأزد وحلفائهم في ناحية يبة وبرك الغماد، ولا يمكن معرفة مدلوله من غير معرفة قائله ومناسبته، كي نأى عن التعليل الظني. ويتبين من خلال ما سأورده تحت العنوان الصغير أدناه.

• الْعِلَاقَةُ بَيْنَ عَكٍّ وَالْأَشْعَرِيِّينَ

❖ قال السمعاني (000 ـ 562هـ) ـ رحمه الله ـ في (الأنساب): «العَكّي: بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المكسورة: هذه النسبة إلى عَكٍّ، وهي قبيلة يقال لها عَكُّ بنُ عدنانَ أخو مَعَدَّ بنِ عدنانَ، حالفوا اليمن ونزلوا في الأشعريين، وهم على نسبهم»[1].

❖ وأما ابن الوزير المغربي (370 ـ 418هـ) فقد قال في (الإيناس) في مَن اسمُهُ أسلُم: «أَسْلُم بن القَياثة بن غافق بن الشّاهد بن عَكّ، وقيل: إن اسم عكٍّ: الحارث، واختلفوا في نسبه، فقال قوم: هو عك بن عدنان بن عبد الله بن الأَزْد ابن الغوث. وقال آخرون ـ وكأنه أثبت ـ: هو عكّ بن الدِّيث بن عدنان بن أدَد.

وفي ذلك يقول الكُمَيتُ بنُ زَيد الأَسَدِيّ:

لِـعَـكٍّ فِـي مَـنَـاسِـبِـهَـا مَـنَـارٌ   إِلَـى عَـدْنَـانَ وَاضِـحَـةُ الـسَّـبِـيـلِ

وقال عبّاس بن مِرداس السُّلَميُّ [رضي الله عنه][2]:

وَعَـكُّ بْـنُ عَـدْنَـانَ الَّـذِيـنَ تَـلَاعَـبُـوا   بِـغَـسَّـانَ حَـتَّـى طُـرِّدُوا كُـلَّ مَـطْـرَدِ

---

(1) أبو سعدٍ عبد الكريم بن محمد السمعاني، **الأنساب**، محمد عوامة، القاهرة، مكتبة ابن تيميّة، ط 1، 1981 م، ج (9)، ص (34).

(2) الترضّي إضافة مني ليست في كلام ابن الوزير المغربي.

قال عبَّاسٌ هذا الشعر يفخر بغلَبةِ عَكٍّ على غسَّان، وذلك أن غسَّان ماء باليمن، فكان على هذا الماءِ بنو عامر وامرؤ القيس وكُرز، بنو ثعلبة بن مازن بن الأزد، وكان عليه أيضًا غيرُ هؤلاء من الأزد، وكانت عكّ بن عدنان في أسفل ذلك الماء، وكانوا فيه زمنًا، ثم إن راكبًا جاء حتى وقف على غسَّان، فاسْتَسْقاهم فسقَوه لَبَنًا مُرْغِيًا. ثم أتى عَكًّا فسقوه لَبَنًا ضَيْحًا[1]، فقال لهم: ما لي أرى لبن إخوتِكم مُرْغيًا ولبنَكم ضَيْحًا؟ فقالوا: واللهِ ما نعلم! إنَّ شِرْبَنا لَواحدٌ، وإنّ مرعانا لَواحدٌ، وإن منزلَنا لواحدٌ، إلا أنهم في عُلاوَته ونحن في سُفالته. قال: فذلك الذي أرغى لبنَهم وأضاحَ لَبَنَكُم، وذاك أنهم يشربون صفو الماء وتشربون كدره، ويرعون أَنف الرِّعْيِ وترعون غَدَرَهُ، وتسرح إبلُهُم مُستقبِلةً الرّيحَ بأفئدتها، مُستدبرةً الشمسَ بضَرَّاتها. فجاءت عَكٌّ يطلبون من غسان المُناقَلةَ في المنازل، فغضبت غَسَّانُ، وقاتلوهم فهزموهم، وأعطتهم عَكٌّ الإتاوةَ سبعًا وعشرين سنة أو نحْوها.

ثم إنه نَشأَ في عَكٍّ غلامٌ ماردٌ، يقال له سَمَلَّقَةُ بنُ مُرِّيِّ بن الفَجَّاع، أحد بني غافق ابن الشّاهد بن عَكٍّ، فحمل قومَهُ على قتال غَسَّان - في حديثٍ طَويلٍ - فقاتلوهم فانهزمت غَسَّانُ يومئذ. وفي هذا اليوم قيل:

غَـسَّـانُ غَـسَّـانٌ وَعَـكٌّ عَـكُّ   وَالْأَشْـعَـرِيُّـونَ رِجَـالٌ صُـكُّ
سَـتَـعْـلَـمُـونَ الْـيَـوْمَ مَـنْ أَرَكُّ!

يعني بالأشعريين بني الأشعر بن أدد، إخوة عدنان بن أدد، وكان اسمَ الأشعر نَبْتٌ، ويقال - والله أعلم - إنهم انتسبوا في اليمن فقالوا: الأَشْعَر هو نَبْت بن أُدَدَ بن زيد بن يَشْجُبَ بن عَريب بن زيد بن كهلان بن سَبأَ بنِ يَشْجُبَ بن يَعْرُبَ بن قحطان»[2].

إن برك الغماد موضع بينه وبين مكة خمس ليال، في نقل ياقوت، وهو قول يعضد ما نصَّ عليه الإمام لغدة الأصفهاني في كتابه، والذي نقلته في فصل الرحلات الميدانية، وذلك الموضع هو الذي وقفتْ في ناحيةٍ من واديه ناقة أبي دهبل الجمحي.

---

(1) أي: رقيقًا.

(2) ابن الوزير المغربي، **الإيناس** (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (61).

وقد تبيَّن من خلال ما حققتُه في رحلاتي الميدانية، أن بَرك الغماد موضع في أسفل وادي الأحسبة، وأنْ لا صحّة لنقل بَرك الغماد إلى البِرك المعروفة، التي حفظت اسمها القديم.

لعلّي أشير إلى بعض ما جاء في (صفة جزيرة العرب) حول اسم البِرك المعروفة اليوم، وأن الهمداني سماها البرك - معرَّفَةً بِأَلِ التعريف - ولم يسمِّها برك الغماد، ولم تُضِفْها المصادر الأخرى إلى الغماد إلا في اجتهادات التبويب عند ياقوت والبكري، ومن ذلك:

قول الهمداني: «ثم الجبل الأسود إلى الشقرات وسعيا من أرض جرش، وغور هذه البلاد هي أعلا زنيفٍ وضنكانُ والبِركُ والمُعقَّدُ وحَرّةُ كنانة»[1].

وقوله: «وفي حرَّة كنانة من تهامة البرك والبريك»[2].

لكن الهمداني لم يذكر برك الغماد هذه، فذكر برك غماد أخرى في أقصى اليمن، وهي التي ضرب الناس بها المثل في البُعد، فقال: «وفي الحديث أن أبا الدرداء - رضي الله عنه - قال: لو أعيتْني آيةٌ من كتاب الله عزَّ وجَلَّ، فلم أجد أحدًا يفتحها عليَّ إلا رجلٌ ببَرك الغماد لرحلتُ إليه. وهو أقصى حجر باليمن. ذكر برك الغماد، ثم ذكر موضعه من قصور اليمن»[3]. وقد حددتُ برك الغماد القاصية ضمن الرحلة الميدانية الثالثة.

إن رواية مصنِّف (الأغاني)، وهي:

سَـقَـتْ دِيَـمُ الـسَّـوَارِي وَالْـغَـوَادِي   ....
فَـمَـا وَالَـى إِلَـى بَـرْكِ الْـغِـمَـادِ   مَحَلَّ أَخِي بَـنِـي أَسَـدٍ قَـنَـوْنَـى
....   مُقِيمٌ بِالْمَجَازَةِ مِنْ قَنَوْنَى

إنها لتُفيدُنا بموقع قبر خندق إفادةً واضحةً؛ حيث قُبِر غير بعيد من الناحية الشمالية

---

(1) الهمداني، **صفة جزيرة العرب** (مصدرٌ تقدّمَ)، ص (130).

(2) الهمداني، المصدر نفسه، ص (273).

(3) الهمداني، المصدر نفسه، ص (323).

الغربية من الجنَبة اليمنى من وادي قَنونَى، وأرى أنهم لن يقبروه في المجازة قرب قارعة الطريق؛ حتى لا يرى مكانه أحد.

ومن مظان قبر خندق الأسدي:

- جبال المروة شرقي سبت الجارة، وهي مشرفة على المجازة من قنونى، ويتحقق فيها قول كثيّر: «أجنتك حفرة ببطن قنونى»، وقوله: «بالمجازة من قنونى». وهذه أقوى مظانّه.
- جبل القامة شمالي سبت الجارة، في الطريق المسلوكة إلى عشم.
- جبل الأعصم غربي سبت الجارة، ويتحقق فيه قول كثير: «قنونى فما والى إلى برك الغماد».

إن رفاق خندقٍ، الذين صحبوه إلى سوق حباشة، ونقلوه إلى منزله قبل أن يهلك ـ ومنهم كثيّر ـ سوف ينأون بصاحبهم الذي شتم الشيخين أبا بكر وعمر عن ديار الأزد الغاضبة، فينقلونه إلى ديار كنانة بن خزيمة، إخوة أسد بن خزيمة؛ كي لا يُنبش قبره فيُحرق. وحين يكون منقولاً معهم فمن غير اليسير أن يتّبعهم من سيُحقّ موضع دفنه. ولذلك جاء رثاء كثيّر مستسقيًا لقنونى وما والاها نحو برك الغماد، وواديها وادي الأحسبة.

● بِمَ تُفِيدُ رِوَايَةُ يَاقُوتٍ عَنْ مَقْتَلِ خَنْدَقٍ الْأَسَدِيِّ؟

قال ياقوت في (معجم البلدان) حين ذكر سبب مقتل خندق الأسدي: «فمال الناسُ عليهِ، فضربوه، حتى أفضَوه إلى الموت، فحُمل إلى منزله بالبادية»[1].

إن منزل خندق كان من بين تلك المنازل المحيطة بسوق حباشة إبان الموسم، والبادية المشار إليها موضع واضح للراوي؛ إذ لو كانت هذه البادية هي البرّيّة الواقعة على الطريق، لَتَرَكَ الراوي الإتيان بها؛ وإن أقرب رأيٍ لتعليل ذلك هو الجهل بها.

ومن خلال الاطمئنان إلى موقع سوق حباشة نحو الجنوب الغربي من خبت آل

(1) الحموي، **معجم البلدان** «مصدرٌ تقدّمَ»، ج (4)، رسم (قنونى).

خَجْريّ، فإن البادية المذكورة في النّص هي البيداء المعروفة اليوم، وهي مكان رعيٍ جيِّد، ومشرفةٌ على سوق حباشة، ولعلها اتخذت منزلاً لمن يأتي إلى السوق من الفُرادَى والمجموعات الصغيرة؛ ذلك لأنها ليست أرضًا منبسطة، بل هي أرض ذات روابٍ تفصل بينها شُعَبٌ للسيل، فيما نرى أن الجهات الشمالية والشمالية الشرقية من السوق ذات انبساط واسع، يصحُّ أن تحل فيه المجموعات الكبيرة العدد. وأما بعض قبائل بارق ومَنْ خَلْفَهم من الأزد فإن أفضل منازلهم سهبُ حَبَشِيّ في جنوبيّ شَري، الذي ربما كان هذا اسمه؛ بسبب قربه من السوق ومقابلته إياها.

إن البيداء هي البادية المذكورة في نصّ ياقوت، سماها الراوي كذلك، إما لاختلاف لهجات العرب، وإما لطول العهد بين الراوي الأول وناقلها إلى صاحب المصدر الذي نقل منه ياقوت. وإن وجود القبور المعتنى بها في البيداء دليل كافٍ على وجود الماء فيها، وما ذلك إلا من الآبار التي جُهلت مواضعها، حين نعلم أن بينها وبين وادي شري ما يزيد عن نصف ميلٍ، وتلك مسافة ذات مشقّة، وأَوْلَى بمن ينقل الماء من وادي شري أن يجعل القبور قريبًا من مجراه.

● كَيْفَ نُوَفِّقُ بَيْنَ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي حَدَّدَتْ سُوقَ حُبَاشَةَ؟

أمامنا بعض المعلومات التي تطرّقت إلى سوق حباشة، وهي تبدو للقارئ متناقضة في ما بينها، بينما كان تناقضها بسبب فهم النَّقَلَة.

- قال ابن سعد: «كان بتهامة أسواق، أعظمها سوق حباشة، وهي على ثماني مراحل من مكة طريق الجَنَد»[1].

أقول: إن هذا التحديد هو ما يوافق موقع بلاد بارق اليوم، وهي بلاد بارق بالأمس، إلا أن امتدادها إلى الحضَنَة من ناحية الساحل تقلّص نحو جَرِّ الطود من تحت السراة أميالاً.

- وقال الأزرقي: «وحباشة سوق للأزد، وهي في ديار الأوصام من بارق، من صدر قنونى وحلي بناحية اليمن، وهي من مكة على ست ليال»[2].

(1) ابن سعد، **الطبقات الكبرى** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (8)، ص (503).
(2) الأزرقي، **أخبار مكة**، **تحقيق**: رشدي الصالح ملحس (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (1)، ص (191).

هذا التحديد بست ليال، إنما هو لقنونى التي يعرفها الأزرقي، وليس لسوق حباشة، التي انقطع نشاطها قبل أن يُعنَى الأزرقي بتأريخ مكة، وربما قبل أن يولد؛ إذ إن سنة مولده لا تعرف، فلم تُعرف سِنُّهُ حين مات في منتصف القرن الثالث.

- وقال البكري عن سوق حباشة: «وهي من صدر قنونى، أرضها لبارق»[1].

إن البكري وقع في ما وقع فيه البلادي حين رأى استحالة الجمع بين قنونى وحلي، فحذف البكري حَلْيًا، ولو استحضر البكري قدرته على التعليل لأدرك أن الجمع بين قنونى وحلي ـ وإن كان في ظاهره مستحيلاً ـ لم يَرِدْ في نصوص من سبقوه عن جهلٍ، بل لسبب آخر، وهو ما بيَّنتُه من أنه طريق تسلك بين صدرَيْ قنونى وحلي.

- وقال ابن حجر والعيني: «نحو قنونى من مكة إلى جهة اليمن على ست مراحل»[2].

هذا القول تعليل آخر، ربما ظنه شارحًا صحيح البخاري خطأً من النُّسّاخ في ذكر حلي، فاكتفَيَا بقنونى، ولا ريب عندي ـ بعد أن تتبعتُ قوليهما ـ في أن أحدهما نقل من الآخر.

إن هذه النصوص القيِّمة، سارع إلى تخطئتها الأولون، وتبعهم المعاصرون، حيث رأى البلادي استحالة الجمع بين قنونى وحلي، ووضع الفقيه فاصلة بين قنونى وحلي؛ ليتأول أن الصفة لحلي، وهو رأي لم يسارع فيه إلى تخطئة النَّصّ، ولكنه رأى الخطأ في قراءته.

● كَيْفَ نَطْمَئِنُّ إِلَى تَحْدِيدِ سُوقِ حُبَاشَةَ فِي نَاحِيَةٍ تُجَاوِرُ خَبْتَ آلِ حَجْرِي الْيَوْمَ؟

تحدثتُ في فصل سابق عن طريق الجَنَد ومحجة الجَنَد العليا، وبيّنتُ مسارها، وكان تحديد الإمام ابن سعدٍ في (الطبقات الكبرى) سوقَ حباشة بأنها بطريق الجَنَد، وأنها من مكة على ثماني مراحل، دليلين يمكن الاهتداء بهما إلى موقع سوق حباشة.

(1) البكري، **معجم ما استعجم** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (2)، ص (57).
(2) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (3)، ص (594).
وبدر الدين العيني، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (10)، ص (104).

ولكن لنقرأ قبل ذلك بعض المؤشرات التي يهتدى بها إلى موقعَيْ سوقين مهمَّيْن من أسواق العرب، هما عكاظ ومجنة، لنقل فِكْرَتِهَا إلى سوق حباشة.

أوّلاً: عُكَاظُ:

قال الأزرقيّ في (أخبار مكة): «وعكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة، على طريق صنعاء، [من] عمل الطائف على بريد منها، وهي سوق لقيس بن عيلان وثقيف، وأرضها لنصر»[1].

وقال البكري في (معجم ما استعجم) في رسم «عكاظ»: «عكاظ... صحراءٌ مستويةٌ لا عَلَمَ بها ولا جبلَ إلا ما كان من الأنصاب التي كانت بها في الجاهلية، وبها من دماء البدن كالأرحال العظام... قال أبو عبيدة: عكاظ في ما بين نخلة والطائف، إلى موضع يقال له [الفُتُقُ]، وبه أموال ونخل لثقيف، بينه وبين الطائف عشرة أميال... ويتصل بعكاظ بلد تسمى ركبة، بها عين تسمى عين خليص للعُمَرِيِّينَ»[2].

وفي (معجم البلدان)، في رسم (عكاظ): «وقال الأصمعي: عكاظ نخل في وادٍ، بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الأثيداء، وبه كانت أيام الفجار، وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها»[3].

ثانيًا: مَجَنَّة:

قال الأزرقيّ في (أخبار مكة): «ومَجَنَّةُ سوق بأسفل مكة على بريد منها، وهي سوق لكنانة، وأرضها من أرض كنانة... وشامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة»[4].

وقال ياقوت في (معجم البلدان): «قال الأصمعي: وكانت مجنة بمرّ الظهران قرب جبل يقال له الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها»[5].

(1) الأزرقي، **أخبار مكة**، ط ملحس (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (1)، ص (190).
(2) البكري، **معجم ما استعجم** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (3)، ص (219).
(3) الحموي، **معجم البلدان** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (4).
(4) الأزرقي، المصدر المتقدم، ج (1)، ص (191).
(5) الحموي، المصدر المتقدم، ج (5)، رسم (مجنة).

- القول بأن عكاظ على طريق صنعاء، كالقول بأن حباشة على طريق الجَنَد.
- القول بأن عكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة، وأن بينه وبين الطائف عشرة أميال، أو بينهما ليلة، وأن بينه وبين مكة ثلاث ليالٍ، وأن مجنة على بريد من مكة، كل ذلك كالقول بأن سوق حباشة على ست (!) ليال من مكة، وعلى ثماني مراحل من مكة.
- القول بأن عكاظ في ما بين نخلة والطائف إلى موضع يقال له الفُتُق، كالقول بأن حباشة من صدر قنونى وحلي. فإذا ما علمنا أن الفُتُق تميل بهذه البينية نحو التقويس كَوَتَرٍ من دائرة، أدركنا أن حباشة تميل إلى التقويس عن الخطّ شبه المستقيم بين صدريْ قنونى وحلي.
- القول بأن مجنّة بأسفل مكة، كالقول بأن حباشة بناحية اليمن أو من ناحية اليمن، وذلك بالنسبة إلى مكة أيضًا.
- القول بأن عكاظ لقيس عيلان وأرضها لنصر، وأن مجنّة سوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة، كالقول بأن حباشة سوق للأزد، وأن أرضها للأوصام من بارق.

انتهت الأقوال المتشابهة بين سوقَي عكاظ ومجنّة وبين سوق حباشة، ولكن بقي من تلك الأقوال أوصاف لهذين السوقين، يصح تطبيقهما على أرض سوق حباشة، ومن ذلك:

- عكاظ صحراء مستوية لا علم بها ولا جبل.
- يتصل بعكاظ بلد يسمى ركبة.
- كانت تقام سوق العرب في عكاظ بموضع منه يسمى الأثيداء.
- عكاظ نخل في وادٍ.
- كانت مجنة بمرّ الظهران قرب جبل يقال له الأصفر.
- شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة.

من هنا فإنه يجدر بنا تطبيق هذه الأوصاف والعلامات؛ لتحديد سوق حباشة.

إن موقع سوق حباشة حين نتخيل وقوفنا في أرض عكاظ المستوية، التي لا علم بها ولا جبل، وتتصل بأرض ركبة، يجعلنا نراه في جانب من الأرض، لا علم فيه ولا جبل، ولا تجد واديًا عظيمًا يخترقه، فإننا نجزم بوجوده في طرف المنطقة المستوية الواسعة، التي تجاور خبت آل حَجْري من جنوبيه الغربي، وهي على نحو صفة صحراء ركبة، وإن كانت ركبة أكثر اتساعًا منها. وحين تكاد أرض عكاظ تطلُّ برأسها تُعانق ركبة، فإنه يمكن القول الواثق بأن المنطقة المستوية وشبه المعزولة التي تجاور خبت آل حجري، والتي تقع بين قرنِ مَخْلَد في جنوبيّها ومجرى وادي دحدح في شماليها من دون جبلي قزع دحدح والخرباء، كل ذلك يجعلنا نثق بأنها في هذه الناحية من أرض بارق.

وحين نعلم من خلال المصادر والتجوال بأن واديَ شَرِبٍ يمرُّ بطرف عكاظ، وأن واديَ قرّان غير بعيد منه، فإنه يمكننا الثقة بأن واديَيْ دحدحٍ والحباب حين يجريان في مجرًى واحد، يمرّان بطرف سوق حباشة، وأن واديَ شَريٍ غير بعيد منهما.

ويمكن تطبيق موضع الأثيداء على جبل الخرباء الذي يفصل مجرى وادي دحدح بينه وبين سوق حباشة، والأثيداء رآها الشيخ عبد الله بن محمد الشايع في ناحية من أرض عكاظ، مظهرًا هضبيًّا غير مرتفع، وتسمَّى السَّرِيَّتين البيضاء والحمراء، ويقع جذاذ وثنٍ رآه صنمَ هوازن المسمى جهارًا في السرية الحمراء[1]. حيث إن في جبل الخرباء ما يشبه الأساسات البدائية، في مقابلة الشمس حين شروقها؛ وذلك قد يكون مؤشّرًا إلى عبادة قديمة، كعبادة الشمس؛ حيث إن بعض الأحجار المبعثرة مخروقة بفعل فاعل، ولا يمكنني الجزم بأنها كانت منتظمة، تخترقها أشعة الشمس في أيام من السنة، كالمِزْوَلة مثلاً! ثم خُرِّبت في الإسلام. ومتخصصو الآثار هم أَوْلَى الناس بالبحث فيها وتعليلها وتصوُّرها.

وأما وصف عكاظ بأنه نخل في وادٍ، فليس أمامي ما يمكن تطبيقه في موقع سوق حباشة سوى الظن بأن نشاطًا زراعيًّا ساد حينًا في ناحية من موقع السوق أو بالقرب

---

(1) عبدالله بن محمد الشايع، عكاظ: **الأثر المعروف سماعًا المجهول مكانًا**، الرياض، مرامر للطباعة الإلكترونية، ط1، 1416هـ/ 1996 م، ص (59).

منه، وغالبًا ما يكون الزرع عَثَرِيًّا، غير أنه يبعَد أن يكون للنخل موضع هناك، ويمكن تذكُر كتاب النبي ﷺ لبارق، ألا تُجَذَّ ثمارُهم، بأنه مؤشر قويٌّ على وجود أشجار أو زراعات مثمرة، وعلى وجود السدر وأمثاله من ذوات الثمار التي تلتقَط.

وحين نطبّق أوصاف موضع مجنّة لتصوُّر أوصاف موقع حباشة، فإن مجنّة بمرّ الظهران قرب جبل يسمى الأصفر. ومرّ الظهران وادٍ وطريق، فإن عددناه واديًا قلنا إن وادي دحدح في حباشة يقابل وادي مَرِّ الظهران في مجنة، وإن عددنا مَرَّ الظهران مصدرًا للمياه، حيث العيون الكثيرة العدد، فإننا نرى الجِهْفَة في وادي الحَباب، بعد اتحاده مع دحدح، ووادي شري مصدرين للماء. وأما إن عددناه طريقًا جاز لنا القول بأنها تقابل طريق الجَنَد، وأن الانحراف من طريق الجَنَد نحو السوق عبر مسار الغار المكتَّب يقابل الانحراف من مسار الطريق بين مكة وعُسفان عبر مرّ الظهران نحو موقع سوق مجنّة، حيث رأيتها في زياراتي الميدانية منحرفة عن الطريق بنحو (7 ـ 13) من الكيلومترات نحو الجنوب الغربي أسفل من موضع الجَمُوم اليوم.

وأما الجبل الأصفر فهو علامة في أرض مجنّة الفسيحة، يقع شمالاً شرقيًّا من خطم الجبل الذي تمرُّ به الطريق الواصلة بين مكة وعُسفان، وهو ذو قمة مرتفعة، ويقابله في ناحية سوق حباشة قرنُ مَخلَد، حيث تبيّنته جبيلاً ذا قمة حين تأملته من ناحيته الجنوبية، كما يقابله جبل الخرباء، وهو جبل يميل إلى الاصفرار، وهو غير بعيد من موقع السوق.

وحين نقول إن شامة وطفيلاً جبلان مُشرِفان على مجنة، فإن يلزمني ـ ولو لم يكن من مقاصد هذا البحث ـ تحديد جبلي شامة وطفيل، اللذين يشرفان على سوق مجنة.

فالشامة ـ وَفق تعريف ياقوت ـ: «هو اللون المخالف لما يجاوره، بشرط أن يكون قليلاً في كثير»[1]. وفي جبل سِدْرٍ ذي اللون الأسود، والذي تقع الجموم في فيئه بعد العصر بُقَع بيضاء، أكسبته اسم (شامة).

وأما طَفِيلٌ فهو ـ وَفقَ تعريف ياقوت أيضًا ـ «من الطَّفَلِ، وهو بعد العصر إذا

(1) الحموي، **معجم البلدان** (مصدرٌ تقدّمَ)، ج (3)، ص (315).

طفلت الشمس للغروب، كأنّ هذا الجبل كان يحجب الشمس فصار بمنزلة مغيبها»[1]. وتلك صفة جبل مُكسّر، حيث يطْفُلُ الجانب الغربي من طرف سدرٍ الجنوبيّ، فيُكسّر ظلّه عليه.

فشامة في غربي مجنة بطولٍ يبلغ ثمانية كيلومترات، وهو جبل سدر اليوم، وأما طفيل، فهو نحو أيسر الغرب من جبل سدر، بطول يبلغ ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر، وهو جبل مكسِّرٍ اليوم، ويشمخ عن جاره سدرٍ شموخًا ملحوظًا. وبين الجبلين مسلك يبلغ الكيلومترين يسمى فجَّ الكَريميّ.

جاءت هذه الرؤية بعد أربع رحلات للبحث عن مجنة، برفقة الأخ راشد بن عبد العزيز الصعب، كان آخرها في 2/ 7/ 1430هـ.

إذَنْ؛ فيمكن أن يُعَدَّ جبلُ قَتَرْوِي علامةً شامخة تُرَى من بعيدٍ، للدلالة على مكان سوق حباشة غير بعيد من ناحيته الشمالية، ولقد رأيته في رحلتي الميدانية الخامسة، حين أقبلت من أسفل وادي الحمض، رأيته كالرَّحْل المرتفع، لا يخطئ معرفته من رآه من تلك الجهة.

وأما استدلال القادمين إلى سوق حباشة في أرض بارق، ممن لا يعرفونها من قبل، فإن علاماتٍ كثيرة تدلُّ عليها، ومن بينها:

- المروتان: وهما جبيلان أبيضان، شمالي وادي خاط بنحو كيلومترين، وشرقي وادي يبة بنحو خمسة كيلومترات. ويستدل بهما من جاء من طريق العَرضيتين أو من عقبة كرَوان في جبل ثربان.

- البكرتان: وهو جبل أحمر ذو قمتين شمّاوين، يشرف على الطريق القادم من نحو ذات أعشار إلى بلاد بارق.

- حمراء المغيراء: وهي جبيل أحمر يقع قريبًا من السفح الغربي من جبل قتروي، ينظر إليه القادم من ناحية حلية العليا ووادي الحمض، بعد أن يبلغ فسيحًا من الأرض، في غربيّه جبلا نمارن وغراب.

(1) الحموي، المصدر نفسه، ج (4)، ص (37).

وللإحاطة بكل ما سبق وضعت جدولاً يبيّن التوافق في بعض الأوصاف والطبيعة بين سوقي عكاظ ومجنة وسوق حباشة.

مؤشرات سوق عكاظ	وصف حالها المعروفة اليوم	مؤشرات سوق مجنة	وصف حالها المعروفة اليوم	ما يقابلها في تحري سوق حباشة	ما يشبه سوقي عكاظ ومجنة في سوق حباشة
عكاظ على طريق صنعاء	محجة صنعاء النجدية			حباشة على طريق الجند	محجة تهامة العليا
وراء قرن المنازل بمرحلة	في شرقيه	مجنة بأسفل مكة	في شماليها	حباشة من ناحية اليمن	بالنسبة إلى مكة
بينه وبين الطائف عشرة أميال / بريد		على بريد من مكة		على ثماني مراحل من مكة	
بينه وبين مكة ثلاث ليال				على ست ليال من مكة	
بين نخلة والطائف إلى موضع يقال له الفتق	الفتُق تميل بالطريق نحو التقوس كوترٍ من دائرة			حباشة من صدر قنونى وحلي	تميل عن صدر قنونى وحلي نحو التقوّس كوتر من دائرة
لقيس عيلان وأرضها لنصر		لكنانة وأرضها من أرض كنانة	تبدأ أرض كنانة من قرب الجموم	للأزد وأرضها للأوصام من بارق	
صحراء مستوية لا علم بها ولا جبل	هذه صفة نقلها رواة عرام وقد لا تكون دقيقةً على إطلاقها			...	ناحية مستوية - بوجهٍ عامٍّ - وشبه منعزلة بين قرن مخلد وقزع دحدح

مؤشرات سوق عكاظ	وصف حالها المعروفة اليوم	مؤشرات سوق مجنة	وصف حالها المعروفة اليوم	ما يقابلها في تحري سوق حباشة	ما يشبه سوقي عكاظ ومجنة في سوق حباشة
يتصل بعكاظ بلد يسمى ركبة				...	تتصل بها أواسط الخبت وأطرافه الجنوبية
كانت تقام بموضع يسمى الأثيداء					يمكن أن يُعدّ قرن مخلد كالأثيداء
كانت هناك صخور يطوفون بها	- في السَّرْية الحمراء حجر مكسور لعله كان صنمًا (عبادة) - السرية البيضاء صخور ناتئة ملساء [في أرض عكاظ الواسعة]			...	- في جبل الخرباء أساسات تقابل مشرق الشمس (عبادة) في قرين لبن وقرن غولات مشابهة للصخور
		كانت مجنة بمر الظهران	مر الظهران وادٍ وطريق	...	- دحدح والجهفة يشبهان مرًّا ومياهه - طريق مر الظهران تشبه طريق الجند

مؤشرات سوق عكاظ	وصف حالها المعروفة اليوم	مؤشرات سوق مجنة	وصف حالها المعروفة اليوم	ما يقابلها في تحري سوق حباشة	ما يشبه سوقي عكاظ ومجنة في سوق حباشة
		قرب جبل اسمه الأصفر			الخرباء جبل يُعدُّ أصفرَ
		شامة وطفيل جبلان مشرفان على مجنة	هما جبلا سِدرٍ ومكسِّر	. . .	جبل قترووي يشرف على جنوبيها
وادي شرب يمر بطرف عكاظ					واديا دحدح والحباب يمران بطرفها
وادي قران غير بعيد منه					وادي شري غير بعيد منها

• تَحْقِيقُ مَوْقِعِ سُوقِ حُبَاشَةَ

يمكن الاطمئنان إلى أن موقع سوق حباشة لا يجاوز مساحة من الأرض، في شكل شبه منحرف، لكن أضلاعه غير مستقيمة؛ فتنحني أحيانًا نحو الخارج وأحيانًا أخرى نحو الداخل، واستندتُ في هذا الشكل إلى مجاري شعاب وأودية، وأبعادٍ عن منتصف ما بين قرن مَخلَد والجهفة، بعضها نحو ثلث ميل وبعضها نحو ثلثي ميل وبعضها الثالث يبلغ ميلاً.

ويبلغ طول الأضلاع الأربعة مع تعرجاتها نحو أحد عشر كيلومترًا، ويمكن وصفها على النحو التالي:

- طول الضلع الشرقي كيلومتران ونحو نصف الكيلومتر، مع انحناء نحو الخارج، ويبدأ من مجرى وادي شري، في مقابل القذل في طرف جبل قترووي، شمالاً شرقيًا من مهبط وادي الأرنبة في شري بكيلومتر وثلث الكيلومتر، وشرقًا من قرن مَخلد بثلثي ميل، واتجاهه العامّ نحو طرف جبل قزع دحدح، وينتهي شرقًا من مجرى وادي دحدح، عند الطرف الجنوبي الشرقي من جبيل قزع دحدح، في نقطة في مجرى شِعبٍ صغير.

- طول الضلع الثاني ـ وهو الشمالي ـ ويبدأ من حيث انتهى الضلع الأول، ويتجه بانحناء نحو الخارج، حتى يبلغ مجرى وادي دحدح، دون مصب الشِّعب القادم من الخرباء، ويزيد قليلاً عن كيلومتر.

- الضلع الغربي متعرج بتعرج مجرى وادي دحدح ثم وادي الحَباب، حتى مهبط شعاب الجَيِّف في الحباب، ثم يخرج بخط مستقيم مخترقًا فصايِلَ الحَقَال، حتى يكون بينه وبين الجهفة نحو رُبع الميل، ثم ينعطف نحو الجنوب محافظًا على البعد نفسه من الجهفة. وطوله أقل من أربعة كيلومترات.

- الضلع الجنوبي، ويبدأ من حيث انتهى الضلع الغربي في فصايل الحقال، بخط نحو الجنوب الشرقي؛ كي يقطعه الطريق القادم من الغار المكتَّب نحو طرف جبل جخيذب، ثم ينحني بانحناءات وادي شري حتى يبلغ بداية الضلع الشرقي. وطوله أربعة كيلومترات.

• اخْتِيَارُ مِسَاحَةِ الْمَوْقِعِ وَأَبْعَادِهَا

اخترت هذه المساحة والأبعاد، بعد أن جوَّلتُ في هذه الناحية، بين جبل السوداء والخوش وقزع دحدح وجبل الخرباء والجهفة والمحاجي وحمراء المغيراء وشعب الأرنبة وحبشي والبيداء وما بينها، فرأيت أن السوق لا يمكن أن تخترقها الأودية الكبيرة ذات المجاري العميقة، أسوةً بعكاظ، ولكني اقتطعت من خلْف الجهفة أرضًا من فصايل الحَقَال ـ احتياطًا ـ، واخترتُ أن تحف الطريق القادمة من ناحية الغار المكتّب بهذه المساحة المختارة، مبتعدًا عن إدراج المحاجي ضمن تلك الأرض، فإن كانت المحاجي ذات نشاط يتعلق بالسوق، فلعل في ما بيّنته حول ماهِيَتها مسوِّغًا لإخراجها من هذه المساحة، وإن كنتُ أعوِّل كثيرًا على ما يمكن أن يكتشفه الآثاريون الجادُّون.

وقد كانت الأرض اللينة بين قرن مخلد والجهفة، واختراق شِعب المحانذ تلك الأرض، وقربها من انحناء وادي شري، من أهم دوافع اختيار هذا الموضع والتركيز عليه. وأما الأرَضُون قليلة الجِداب والمحيطة بالمساحة التي حددتها، ففيها نُزُلُ حاضري السوق.

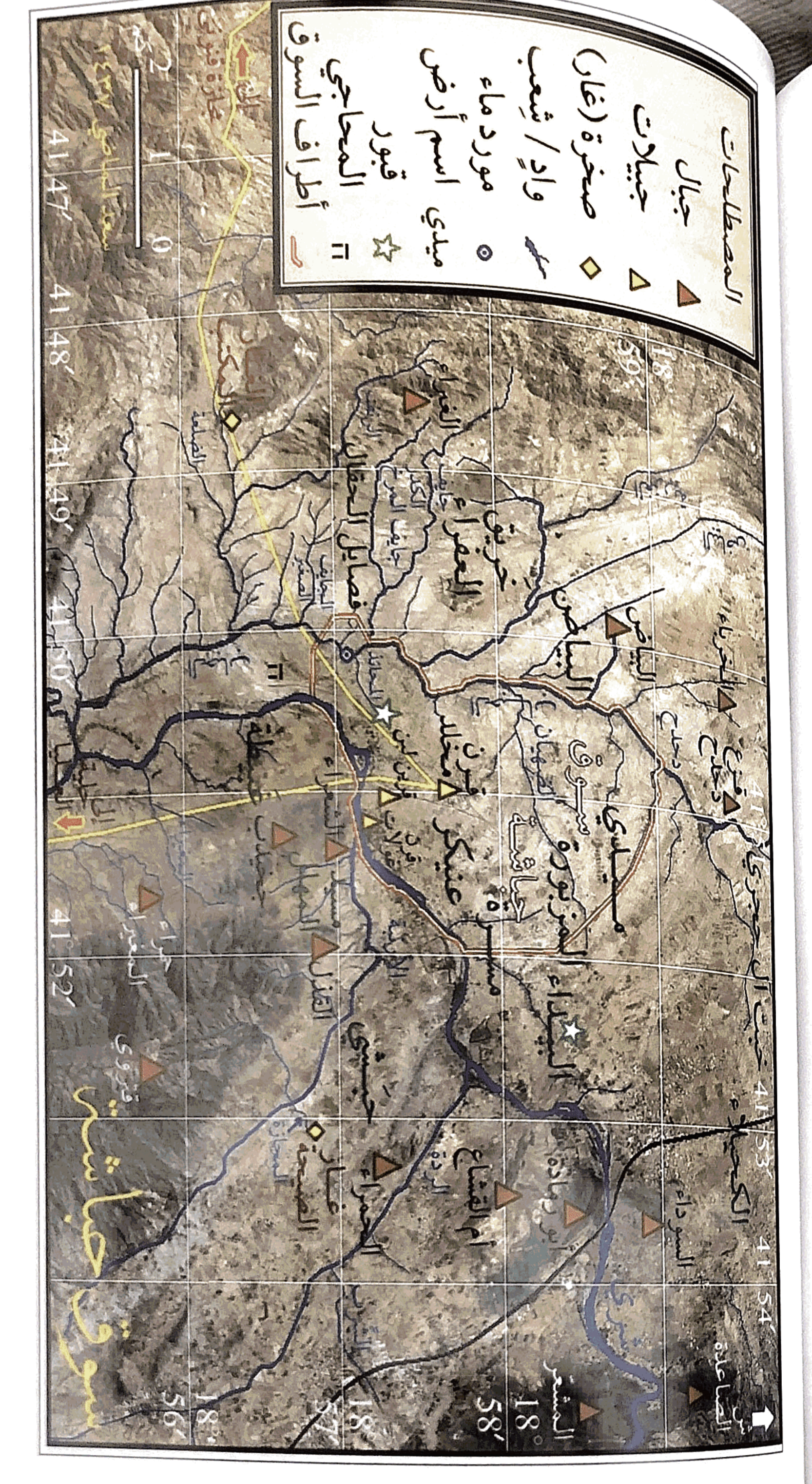
بهذا تكون السوق بين مجرى وادي شري من جنوبيها وشرقيها، ومنحدرات شعاب البيداء في شرقيها، وبين جزء من مجرى وادي دحدح دون قزع دحدح والخرباء من شماليها، نقطته رأس مثلث مقلوبٍ هما زاويتا قاعدته، ثم مجرى وادي دحدح فالحباب من غربيها، ثم خط مستقيم في جنوبيها الغربي.

وبهذا تبلغ المساحة التي كان يقوم سوق حباشة على جزء منها ثمانية كيلومترات مربعة، ولعل دراسات آثارية يُعثر من خلالها على اللُّقَى والقطع الأثرية الصغيرة التي تخفيها الأرض، تحدد مساحة السوق الحقيقية، والتي ستكون أقلَّ من المساحة التي حددتُها.

وأما مساحة السوق والأرض التي ينزل فيها من يشدُّون إليها الرحال، فإنها قد تبلغ خمسة وثلاثين كيلومترًا مربعًا، وذلك حين لا يجاوز بُعد أيٍّ منهم ميلاً واحدًا عن أطراف السوق، بعد استبعاد المساحات التي لا يمكن النزول فيها، وبخاصّةٍ تلك الجبيلات الشمالية والشمالية الغربية، وهي التي يمكن استغلالها في الرعي. ومن المقبول أن يبتعد النازلون هناك نحو ميل من الثلث الأوسط من وادي شري؛ لترك الرواحل والخيل والحمير للعبيد والرعاة لإيرادها الماء بعيدا عن السوق.

● هَلْ يُمْكِنُ اخْتِيارُ مَوْقِعٍ آخَرَ لِلسُّوقِ؟

تبيّن لي من خلال قراءتي في كتابات باحثي بارق المعاصرين، والسير في أرض بارق، التركيز على نواحٍ في تحري موقع سوق حباشة، هي: ناحية من جبل السوداء في طرف الكحيلاء جنوبًا من خبت آل حجري، وشمالاً من وادي شري حين يخرج من الجبال الشرقية، وناحية حَبَشِيّ، الواقعة بين شِعب الأرنبة ووادي الردة وهو أسفل وادي الركس، وناحية جبل الخرباء (الصَّلّة).



خريطة رقم (5)
موقع سوق حباشة.

لن أسهب في شرح ملامح وجه الأرض فيها، ولكن أرض هذه المواضع ذات غبار، وفي جوانب الأولى منها سفوح ممتدة بحجارتها، وانخفاض أرضها مُشاهَد، وفي الثانية حدابٌ من المرو ونتوءات صخرية يزيد بعضها عن المترين وعن الثلاثة، وفي الثالثة، وهي الخرباء أودية وقيعان ومراغة.

وأما من الناحية المهمة للتحقيق، فيكفي انعزال الأوليين منها عن طريق الجَند لصرف النظر عن اختيار أحدهما، وإن كان من المتيسر لقاصد حبشيٍّ أن يخترق مسيد المهلل، وذلك غير بعيد من فرع طريق الجَند.

• تَوَزُّعُ مَنَازِلِ مَنْ يَحْضُرُونَ السُّوقَ

تتجه إلى سوق حباشة وتخرج منها شبكة من الطرق، بعضها واضح المسار بعيد الغاية، وبعضها محلّيٌّ قريبٌ، وقد تحدثت في ما سبق عن كثير من تلك الطرق، ما خلا المحلّيّة منها، التي تتفرق جوادُّها بين مسارات هذه الطرق.

وتحيط بسوق حباشة في بعض جهاتها السهوب ذات الأرض المستوية في معظمها، وبخاصةٍ النواحي الشرقية، والشمالية الشرقية، والغربية، وبعض الجنوبية؛ حيث ينتشر القادمون إلى السوق حولها من جهاتها غير الشمالية منها وبعض الجنوبية. وتزيد المساحة التي يمكن النزول فيها حول السوق عن خمسين كيلومترًا مربعًا، وهي أقل من ذلك حين ينزل حاضروها على أطرافها.

غير أن ثمةَ ترتيبًا بين القبائل والأفراد، ربما صحّت فيه بعض الآراء التالية:

- الناحية الجنوبية من خلف وادي شري، حيث السهب الواقع بين جبل قتروي من الجنوب الغربي وجبل الحمراء من الشرق ووادي شري من الشمال والغرب، ويجري في طرفه الغربي شِعب الأرنبة، واسمه اليوم (حَبَشِيّ)، وفي طرفه الجنوبي صخرة تسمى غار الصيحة (غار امْصَيْحة)، وآثار خربة، وبئرٌ طمسها زحف العمران. ومن المناسب الإشارة إلى أن سكان تلك الناحية كانوا يتناقلون أسطورة تقول إن في هذه البئر ثعبانًا رأسه هناك وذيله في مكة. وهذه الأسطورة قد تشير إلى مسألة تخريب سوق حباشة بسعاية الفقهاء عند والي مكة.

أما اسم (حبشيّ)، فلعله جاء من نزول بعض قبائل الأزد المارين ببلاد بارق حين تقوم سوق حباشة، أو أنه اسمٌ تقلّص عن موقع السوق فذُكِر، أو لأنه بأقبال السوق، والله أعلم.

هذه الناحية يمكن أن ينزلها من مر ببلاد بارق من الأزد وغيرهم كبعض قبائل قضاعة وبني الحارث بن كعب، وبخاصةٍ أولئك النازلون عبر وادي تيّة وعقبة ساقين وما جاورهما.

- الناحية الشمالية الشرقية، وهي ناحية واسعة تتصل بخبت آل حَجْري، ويمكن تصوُّر نزول القبائل القادمة من نجد والطائف فيها، وربما شاركتهم خثعم وبعض الأزد الشماليين.
- الناحية الجنوبية الغربية وبعض الناحية الغربية، حيث ينزلها من سلك طريق الجَند من أهل تهامة الوسطى واليمن.
- الناحية الشمالية الغربية وبعض الناحية الغربية، حيث تنزل فيهما كنانة وقُريش وهُذيل وسُليم وغيرهم.
- الناحية الشرقية، وهي ناحية البيداء في الطرف الشرقي من مسرّة، وهي المذكورة في (الأغاني) باسم البادية، حيث أُراها موضعًا ينزل فيه الأفراد الذين لا يرتبطون بقبائلهم؛ لأي سبب كان، وكان من بين أولئك كثيّر بن عبد الرحمن الخزاعي وخندق بن مرة الأسدي، وأما الشنفرى وأضرابه من الفاتكين، فإنهم لا يقيمون في مكان بيّن.

وهذه الناحية لا تقع على المسارات الرئيسة نحو السوق.

• عَوَامِلُ قِيَامِ السُّوقِ

إن من أهمّ ما يحتاج إليه المئات أو الألوف الذين يأتون إلى السوق، الأمنَ والتنظيمَ، والماءَ والغذاءَ، والحطبَ والظِّلَّ، والمرعى والمأوى المستقلَّ، وما يُعرض في السوق.

فأما الأمن، فقد تكفّل به الأزد أنفسهم، والأوصام خاصةً. وبعد حين من سيادة

الإسلام، ربما أصبحت الدولة الحاكمة تُسيّر له من يتولى حفظ أمنه، ولم تكن مكة منذ حج سنة (196) تدين بالولاء للأمين، فقد دعي للمأمون في المسجد الحرام، على الرغم من أن أخاه الأمين كان حيًّا[1].

فكان الوالي الغنوي الذي سيّره أمير مكة داود بن عيسى بن موسى العباسيّ سنة (197) من الهجرة، إلى سوق حباشة، آخر من كان يحفظ الأمن. وسوف أعرض في نهاية هذه العوامل تصوُّرًا لأسباب مقتل هذا الوالي وتخريب السوق.

ومن عوامل قيام السوق: التنظيم، فقد كان موكولاً إلى قبائل بارق عامّةً. ولا شك في أن كل قبيلة أو عشيرة عرفت من خلال تكرار حضور السوق موضع سكناها، ولنا أن نتصور أنّ قريشًا وكنانة ـ مثلاً ـ تقع منازلهم في ناحية تخوم السوق الغربية، وألا نتصور دَوْسًا في تلك الناحية. وقد تتغير مساكنهم بسبب وفرة المرعى أو ندرته في بعض الأزمنة، أو غياب بعض القبائل عن السوق.

ويلحق بالتنظيم تحديد منابر الخُطب والبيانات، والمنافرات ـ إن قامت ـ وإقامتها في أماكن متوسطة من السوق، مشرفةٍ على الناس، ولا بُدَّ من أن يتوافر فيها الظِّلُّ والسَّعة.

وأما الماء، فإن من أهم مصادره وادي شري، الذي كان ذا مياه لا تنقطع قبل جرف تربته للبناء، وحفر الآبار الارتوازية بالقرب من جنبتيه، ووادي الحَباب وفيه الجِهفة، ويتوافر الماء في آبارٍ لا يشُكُّ من سار في الأرض بأن منها ما أمسى دِفانًا على مر العصور.

وبلاد بارق غنية بالثروة النباتية؛ حيث كانت أشجار السدر والسمر والسَّلم والسَّيَال والأبراه ملء الأرض وملء البصر، وكانت في السوق وعلى أطرافها، وبين تلك الجبيلات المتقاودة والمتقطعة، كما ينتشر الضهيان، والقتاد[2] في الجبال بوجهٍ عامٍّ،

(1) لمزيد من التفاصيل ينظر (**تاريخ الأمم والملوك**) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

(2) فرّق الأستاذ الدكتور أحمد بن سعيد قشاش، بين القتاد الأعظم ـ وهو هذا ـ وبين القتاد الأصغر ذي الثمرة النّفّاخة ـ والذي يكثر في نجد ـ وعزا هذا التفريق إلى كتاب (النبات) للدينوري. يُنظر: **النبات في جبال السراة والحجاز**، ج (2)، ص (323).

ويظهر في بعض المساحاتِ الأثل، وأشجار الشقب والنبع والمَظّ والمرخ والعُرفُط والسرح والأراك[1].

فأما الحطب فيؤخذ من معظم هذه الأنواع، يستثنى من ذلك ما يصعب إيقاده كالنبع حين تتوافر بدائله، والسرح؛ لإضرار دخانه بالبصر.

وأما المرعى، ففي معظم هذه الأنواع من النبات مرعًى للنَّعَم والغنم وغيرها؛ فالإبل تَطْعَم في السدر والعرفط والأراك ما لا تطعمه في غيرها. وحين يكون الخصب العام، ينتشر الكلأ في الناحية الشمالية من بلاد بارق، فيزيد ذلك في مُتعة موسم سوق حباشة لمن حضره ومن شدَّ إليه الرحال، وتزداد أعدادهم ـ لا ريب في هذا ـ، ويتنامى بيع الحيوان للأكل والضيافة. ولقد اشتهرت قبائل حُميضة من بارق بالرعي وامتلاك الكثير من الإبل والغنم؛ حيث يشغلون هذه الأرض الواسعة، التي كانت تقوم على جزء منها سوق حباشة؛ مما يعزِّز الرأي بأن امتداد قبيلة الأوصام ـ صاحبة أرض السوق ـ في حميضة.

ولعلنا حين نرجع إلى كتاب النبي ﷺ لبارق، ندرك أن الناس يمرّون ببلاد بارق من كل اتجاه، ولعل لخصبِها وأريحية أهلها وعنايتِهم بمن دخل أرضهم سببًا في التنظيم النبوي للمسلمين المارّين ببارق، وما لَهم وما عليهم، وأفادني الأخ الأستاذ عبد الله ابن محمد الفقيه البارقي بأن كثيرًا من أهل بارق يتنافسون في وضع الجِرَار ووسائل حفظ الماء الأخرى تحت أشجار السدر، ويتعاهدونها؛ ليشرب منها عابرو الطرق. وكانت قُرى بارق شاهدةً على حسن الاستقبال والضيافة لكل من مر بها، ولعل ذلك يفسّر حسن العلاقات بين بارق والقبائل والبلدان المجاورة، لذلك رأينا الكميت بن زيد الأسدي جعل بارقَ في مقدمة الأزد، ولعله ممن حضر سوق حباشة فرأى عناية البارقيين بزوارها، وإن كان ما قاله الكميت هجاءً لا مديحًا، غير أنه قد قال في مثل هذا أبو تمّام الطائي ـ رحمه الله ـ:

نَزَعُوا بِسَهْمِ قَطِيعَةٍ يَهْفُو بِهِ ... رِيشُ الْعُقُوقِ[2] فَكَانَ غَيْرَ سَدِيدِ

(1) أجود منابت الأراك البيئات السهلية، ويقل منه ما ينبت في الجبال.

(2) ظهر التكامل في أبهى صُوَره وأرقاها بين العدنانية والقحطانية، في دولة الإسلام الأولى في المدينة النبوية المشرفة، حيث كان التآخي بين المهاجرين والأنصار. وما زال في العرب مِن داخِلِهم من يقوّض الصلات في نزاعات أعادت روح الجاهلية الأولى، مثلما فعل الاستعمار في الحدود المصطنعة بين العرب.

وَإِذَا أَرَادَ اللَّـهُ نَشْـرَ فَضِـيلَـةٍ ... طُـوِيَتْ أَتَـاحَ لَهَـا لِسَانَ حَسُـودِ

لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِي مَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ نَشْرِ الْعُودِ

وأما الظّلّ، فإن السُّبُل المؤدّية إلى سوق حباشة لم تكن تخلو من الأشجار الكبيرة ذات الظل، كتلك الأنواع التي ذكرتُها من أثل وسدر وغير هذين الصنفين من ما لم أُحِط به؛ حيث تغيرت الأرض.

ولكي أُلِمَّ بأنواع الظّلّ التي لا يمكن للأشجار أن تفي به لحاضري السوق، سألتُ عنها الأخ عبد الله الفقيه؛ حيث إنه ممن اهتم بحفظ تراث بارق، وأدرك بعض أنماط العيش السائدة قبل ثلاثة عقودٍ، وساءل كبار السّنّ في مجتمعه عن عيشهم القديم وطرقهم وتجاراتهم، وهذا نزرٌ من ما أفادني به:

«إن وجود أشجار المظّ والحلفاء والقصبيّ والسدر والسيال بكثرة في أودية بارق، جعل الناس يعتمدون عليها في بناء البيوت المؤقتة كالصُّبول والشَّتبة وما شابهها، ذلك من ما يسهل تركه بعد انتهاء الغرض منه، حيث لا يكلّف بناؤها شيئًا يُذكر، فإن فالأشجار متوافرة، ومن المعلوم أن معظم دكاكين التجار في الماضي - وخاصة في تهامة - تبنى من هذه الأشجار.

فأما الصَّبل، فهو مجموعة من الأعواد، تُرَصُّ جنبًا إلى جنبٍ بإحكام، من ثلاث جهات، وتُرصّ من فوقُ بالأعواد نفسها، وغالبًا ما تكون هذه العيدان من شجر المظّ، ثم تُغطّى من جوانبها ومن فوقُ بالحلفاء والقصبي. وأما الشّتب، فإنه مجموعة من الأخشاب تزيد أطوالها عن المتر، تُجمع بعضها إلى بعض، فيكون بين الواحدة والأخرى اتساع، ثم تربط بعودين معترضين، وتكون الأبعاد بينها واسعة، وعادةً ما تستخدم حظائر للمواشي في الأسواق.

وأقرب نمط إلى الصبل العِشّة، وهي كوخ من خشب، إلا أنها مخروطية الشكل، بينما يكون الصبل مكعّبًا أو على شكل متوازي مستطيلات، وقد يكون عند بعض الناس عشة وصبل في آنٍ. وأما الشتب فهو كالسور للمنزل، غير أنه من الخشب والقش. ولقد سادت هذه الأنواع (العشش والصبول والشتبة) في ساحل تهامة؛ كون أرضهم رملية نادرة الحجارة، وكانت توجد في أرض بارق على نطاق ضيق، وأكثر من يستخدمها ذوو الإقامة المؤقتة» اهـ.

وأما المأوى، فإن في بعض ما ذكرتُه أثناء الحديث عن الظل، كالعشش والصبول، جانبًا جيدًا من توفير المأوى، ولا شك في أن هناك من العرب من يتخذ مأواه في خيام من الأَدَم.

وأما الغذاء الذي يحتاج إليه حاضرو السوق، فصنفان متكاملان، هما:

1 - الحبوب، ويشتهر وسط بلاد بارق وجنوبها، في منطقة سيادة قبائل آل علي اليوم، بوجود المساحات الزراعية الواسعة الخصبة، ويمكن لأرض بارق أن تفي باحتياجات السوق من هذه الغَلّة بأنواعها، ويمكن أن يضاف إليها السمسم.

2 - اللحوم، ولعل في الثروة الحيوانية من إبل وغنم، التي تتركز في شمالي بلاد بارق، وما يجلبه مرتادو السوق معهم، كل ذلك يساهم في توفير اللحوم لأهل السوق.

من شواهد ازدياد طلَب اللحوم، ما نراه قرب الجهفة في شعب المحانذ من كثرة أحجار المحانذ، التي تستخدم لحنذ اللحوم، والتي ساهم في تركّزها وفرة الحطب وأشجار المرخ والسَّلع، وستكون هذه المحانذ على بُعد نسبيّ من السوق، فلا ينتشر دخانها في أطراف السوق، ولا تكون بعيدة عمن أراد اللحم جاهزًا.

كما أن في مسيد المهلل شيئًا من هذه المحانذ، ربما وضعت بسبب مرور الطرق الداخلة إلى بلاد بارق والخارجة منها بذلك الموضع، وربما أسهمت في تأمين احتياجات السوق، هذا إن لم يتخذ بعض رواد السوق مسيد المهلل مستقرًّا لهم.

ومن المعلوم أن من سمات أسواق تهامة، التي أدركها بعض المعاصرين، بيع اللحم المحنوذ؛ لأن لكل بيئة منشطًا تستميز به.

● مَعْرُوضَاتُ سُوقِ حُبَاشَةَ

وأما ما يُعرض في سوق حُباشة، فلن يكون مختلفًا كثيرًا عن ما يُعرض في غيرها، إلا أن موقعها المتنحي نحو الجنوب، سوف يجعل من بعض بضائعها هدفًا لمن وردها من أهل وسط الحجاز وشمالي تهامة وقلب نجد.

ولعل لقرب موانئ عثَّر وحلي وبَركِ الغماد في أسفل الأحسبة من سوق حُباشة

أهمّيّة في نقل البضائع التي تنقل عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي، من مصر وبلاد النوبة والحبشة وأرض الصومال، ومن الهند وسرنديب وجاوة والصين، ومن بلاد فارس.

«وقد تباين نشاط التجّار، فاختص بعضهم بالاتجار في سلعة دون غيرها، فهناك تجار الأقمشة أو التوابل أو العطور، أو الرقيق أو المواشي، وغير ذلك. وهناك تجار ينقلون بضائعهم من مكان إلى آخر سعيًا وراء المكاسب والأرباح»[1].

ولعل من أهم ما يعرض فيها:

- الثياب والمنسوجات اليمنية[2]، ومنها:

الأتحمية: من برود اليمن الحمراء المخططة بصُفرة.

الجيشانية: من برود اليمن الموشّاة، تنسب إلى مخلاف جيشان، ويُلحق بالجيشانية الخُمُرُ السُّود.

الحَبَرة: برودٌ منمَّرة، موشّاة مخططة، من أثمن البرود اليمانية.

الخال: ثياب موشيّة ناعمة، فيها خطوط سودٌ وحُمْرٌ.

الخِمْس: نوع من الأردية اليمانية.

السَّحولية: ثياب من قطنٍ، بيضٌ رقيقة، وتستميز بأن غزلها على قوة واحدةٍ غير مفتول، قال زهير:

يَمِينًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ

السِّيَرَاء: برودٌ فيها خطوط صُفرٌ، يدخل الحرير في بعض نسيجها.

العبقرية: بُسُطٌ من الصوف وشعر المِعزَى، موشّاة ثخينة.

العَصْب: من برود اليمن، سمي كذلك لأن غزله يُعْصَب، أي: يُدْرَج ثم يصبغ ثم

(1) د. سعيد بن عبد الله بن بنية القحطاني، **تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة**، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، 1424هـ، ص (181).

(2) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى: د. يحيى وهيب الجبوري، **الملابس العربية في الشعر الجاهلي**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1989م، الصفحات (35 ـ 53).

يُحاك، فيأتي موشيًا؛ لبقاء ما عُصب منه أبيضَ لم يأخذه صبغٌ، والعصب في الأصل نبات كالوَرْس، ينبت في اليمن وبه تُصبغ البرود.

الأفواف: ثياب يمانية رِقاقٌ موشّاة.

المعاجر: وهي ثياب تَعتجر بها النساء، أصغر من الرداء، وأكبر من المِقْنَعة.

المَعافرية: برود يمانية منسوبة إلى المَعافر.

التَّزيدية: برود فيها خطوط تشبه طرائق الدم.

المُقطّعات: برود قِصَارٌ عليها وَشيٌ مُقطَّع، أي: مخيّط.

الشرعبية: منسوبة إلى مخلاف شرعب، وهي من الثياب النفيسة.

المُمَرجَل والمُرَحَّل: من أنواع الثياب الموشاة بالتصاوير.

الوصائل: حِبَرُ اليمن، وهي ثياب يمانية حُمرٌ مخططة بخطوط خُضرٍ.

الرياط اليمانية:

أ ـ العدنيات: وهي ثياب كريمة ورياطٌ تنسب إلى عدن.

ب ـ الصُّحارية: نوع من الثياب منسوب إلى صُحارٍ.

الأُزُرُ والملاحف والبراقع والبخانق والخُمُر والجلابيب. والأخفية ـ واحدها خِفاء ـ وهو رداء تلبسه العروس فوق ثيابها لتخفيها. والحُلل، ولا تسمى الحُلّة حُلّةً حتى تكون ثوبين. والبُجُدُ ـ واحدها بِجادٌ ـ وهو كساء مغزول يلبسه أهل البادية. والبراجد ـ واحدها بُرجُد ـ وهو كساء من صوف أحمر غليظ مخطط ضخم، يصلح للخباء وغيره.

- البَزُّ: وهو متاع البيت من الثياب خاصةً. ومنه: بزّ الجَنَد، وقد تقدّم تحديد الجَند ناحيةً ومركزًا. وبزّ تهامة التي قامت فيها بعض الحواضر المهمة، ذات الاستيطان البشري على طول امتدادها.

- العطور والبخور واللبان والصمغ والقرفة والقرنفل والزنجبيل، التي تستخرج في حضرموت والشحر وسائر اليمن، ويمكن أن يجلبها إلى سوق حباشة من لم يكن من أهل تلك الديار، ممن حضر بعض أسواقها.

ومن أصناف العطور: العود: وأفضله الهندي (المندلي الذي لا غشَّ فيه، وكلما كان أصلب فهو أجود، وامتحان جودته بحِدّة أَرَجِه وشدة رائحته، وزعموا أن خير العود الهندي الثقيل الوزن الذي يرسب في الماء)[1]، وأجلُّ صفاته الرزانة واللون المائل إلى السواد، ورائحته على النار فيها شبهٌ من رائحة اللينوفر، وآخر رائحته كأولها. ودهن العود، والمسك: يكون لونه إلى الشقرة مائلاً، ورائحته بالقوة الشديدة مع اللذاذة، وذوقه المرارة التي هي غير مفرطة. والعنبر: وأجوده ما جُلب من شِحر عمان، وخير أوصافه الخِفّة والبياض والدهنية، أو يميل لونه إلى الخضرة والصفرة ميلاً يسيرًا[2]. والكافور: وأجوده ما حلا ذوقه وخفَّ وعذب ريحه. والغاليَة، والعطور الممزوجة بالزعفران كالخَلوق والجاديّ. ومن أصناف العطور الأخرى: الرَّيحان، وماء الورد، ودهن الياسمين، ودهن البان، والصندل، والنَّدّ.

ومن أنواع البخور: المُرّ بأنواعه، ومنه المُرّ المزروع والمُرّ البري. ويُعدُّ المزروع منه أفضل من البرّيّ، وهو الذي يُقطع ويستخرج منه السائل في الصيف، وأما أنواع المُرّ البرّيّ فمنها: المُرّ المَعِينيّ، ومُرّ ساكني الكهوف، وهو المُرّ الإريتريّ. ويوضع المُرّ على شكل حزَم في حقائب جلدية، ولا يجد أصحاب العطور صعوبة في التمييز بين مختلف الأنواع، من حيث التكوين والأرج العطري[3].

وأما اللبان: فهو صمغ شجر في شحر عمان، وأجوده المعلَّق الذي لُقِط من شجرِهِ، من قبل أن يسقط إلى الأرض فيلصق في جسمه من ترابها، وكان لونه أبيض مائلاً إلى الخضرة، وكان مغربلاً من الدّقّ منقًّى من الحصى وسائر الأشياء التي تغش به، ولم يكن فيه تشنج وهو الملتصق بعضه ببعض ولم يتغير لونه إلى السواد[4].

---

(1) الجاحظ، **التبصّر بالتجارة**، صححه: حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي، مصر، المطبعة الرحمانية، ط2، 1354هـ/ 1935م، ص (16).

(2) أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي، **الإشارة في محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورَديْها وغشوش المدلسين فيها**، (مخطوط)، مكتبة جامعة الملك سعود بالرقم (543)، وللاستزادة في أوصاف الطيب، تراجع اللوحات (11ب ـ 12ب).

(3) يراجع: د. أحمد صالح العبادي، **اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية**، صنعاء، وزارة الثقافة والسياحة، 1425هـ/ 2004 م، ص (219).

(4) أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي، **الإشارة في محاسن التجارة**... (مرجعٌ تقدّم)، لوحة (13أ).

ومن أنواع اللبان: المصطكى، وأفضله المصطكى الأبيض[1].

ومن بضائع تنقل إلى المرافئ التهامية من بلاد الحبشة أو الهند، ومنها: الأقمشة الناعمة والخشنة والمطرزة أو الموشّاة بالذهب، والأوشحة ذات الألوان العديدة، وقد ذكرتُ بعضها من ما يصنع في اليمن. وملابس الكتّان والحرير والقزّ الأبيض المعروف بالدِّمَقْس، والديباج والإبريسم، والدهون المعطرة (المراهم)، ودهن البَلَسان، والغضار والخزف الصيني، والمِداد والكاغد ورُقَع الكتابة والقراطيس.

وينقل الدكتور أحمد العبادي عن المؤرخ الروماني (بليني الأكبر) بعد أن ذكر هذه الأنواع قوله معرَّبًا: «وساكنو الكهوف هؤلاء يشترونها من جيرانهم وينقلونها في البحار الواسعة في السفن التي تسير بالمجاذيف والأشرعة، إذ كانوا يسيرون في البحر في أيام الشتاء القصيرة، وذلك بمساعدة الرياح الشرقية التي تحملهم في مسار مستقيم خلال الخلجان»[2].

- الحبوب بأصنافها، كالحنطة، والقمح ومنه البُرّ، والشعير والذُّرة، والدُّخن والسمسم.
- التمور المنوّعة، التي تشتهر بأفضلها بلدان منحدرات السراة الشرقية والأعراض في أعالي نجد. والدبس، والقَند، وهو عصارة قصب السكر.
- العسل بأنواعه، والذي يُنتَج قريبًا من موقع السوق، أو الذي يُنقل من أمكنة بعيدة كالعسل الحضرميّ.
- السمن بأصنافه المنتَجة من المواشي من بقرٍ وشاءٍ ومَعزٍ، والودك، ويلحق بهما الأقط والزيت والخَلّ.
- الزبيب والتين المجفف والمشمش والرمان والنَّبق والسّكّر، والثمار الأخرى كالجوز واللوز والفستق والبندق، بأصنافها المتعددة.

---

(1) يراجع: العبادي (المرجع المتقدم)، ص (221).

(2) العبادي، المرجع المتقدم، ص (227).

- الأَدَمُ المدبوغة ومنها البُسُطُ والخيام والسُّفَر. ويُلحَقُ بها القِرَبُ والأسقيَة والمزادُ والأنحاء، وأنواع الدباغ.
- الكُحل. وربما دلَّ على أنَّ بارقَ وما حولها تُشتَهَر بذلك، قولُ أبي حيّة النميري:

سَجَوْنَ أَدِيمَ الْأَرْضِ حَتَّى أَحَلْنَهُ ... حَوَامِيَ دُونَ الْمُفْعَمَاتِ الْغَوَاشِمِ
فَأَنْتَ تَرَى مِنْهُنَّ شَدْوًا تَكَلَّفَتْ ... بِهِ لَكَ آيَاتُ الرُّسُومِ الطَّوَاسِمِ
كَمَا ضَرَبَتْ وَشْمًا يَدَا بَارِقِيَّةٍ ... بِنَجْرَانَ[1] أَقْرَتْهُ ظُهُورَ الْمَعَاصِمِ
أَنَاءَتْ وَلَمْ تُنضِجْ فَأَنْتَ تَرَى لَها ... قُرُوفًا نَمَتْ مِنْهُنَّ دُونَ الْبَرَاجِمِ
إِلَى أَذْرُعٍ وَشَّمْنَهَا [فَكَأَنَّما] ... عَلَاهُنَّ ذَرُّ الْمُغْضَنَاتِ الرَّوَاهِمِ[2]

- أصناف من الأخشاب والمنتجات الخشبية، فمنها ما يستخدم للركوب كالسروج والرحال، ومنها ما يستخدم لصنع السلاح، كالقان الذي ينبت في جبال تهامة وتتخذ منه القِسِيُّ[3]، ومنها ما يُعَدُّ للأكل والشرب، ومن أهمها الصحاف البارقية، التي نُسِبت إلى بارق[4]. قال أبو ذؤيب الهُذَليّ رحمه الله:

فَأَطْيِبْ بِرَاحِ الشَّامِ صِرْفًا وَهَذِهِ ... مُعَتَّقَةً صَهْبَاءَ وَهْيَ شِيَابُهَا
فَمَا إِنْ هُمَا في صَحْفَةٍ بَارِقِيَّةٍ ... جَدِيدٍ حَدِيثٍ نَحْتُهَا وَاقْتِضَابُهَا
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إِذَا جِئْتُ طَارِقًا ... مِنَ اللَّيْلِ وَالْتَفَّتْ عَلَيَّ ثِيَابُهَا[5]

(1) قوله: «بنجران» يجعلنا لا نقطع بأنّ المعنيَّ في الأبيات بارقيّة من قبيلة بارق، ولعل بارق التي ذكرت في بعض المصادر أنها بقرب الأحقاف أقرب إلى هذا. ومع هذا فإن الكُحل من معروضات سوق حباشة، إن تكن الأبيات دلت على بارق القبيلة أو انتبذت موضعًا من بارقِ الأحقاف.

(2) محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، **منتهى الطلب من أشعار العرب**، شرح: محمد نبيل طريفي، بيروت، دار صادر، ط1، 1999 م، ج (7)، ص (216).

(3) ابن منظور، **لسان العرب** (مرجعٌ تقدّمَ)، مادة (قين).

(4) أخطأ المعجميون حين نسبوا هذه الصحاف إلى بارق العراق؛ فإن الأخشاب التي تصنع منها هذه الصحاف ما زالت معروفة في تهامة.

(5) أبو سعيدٍ الحسن بن الحسين السُّكّري، **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، مكتبة دار العروبة، (لم تُدَوَّن سنة الطبع)، ج (1)، ص (54).

وقال:

فَجَاءَ بِمِزْجٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ ... هُوَ الضَّحْكُ إلاّ أَنَّهُ عَمَلُ النَّحْلِ
يَمَانِيَةٍ أَحْيَا لَهَا مَظَّ مَأْبِدٍ ... وَآلَ قَرَاسٍ صَوْبُ أَرْمِيَةٍ كُحْلِ
فَمَا إِنْ هُمَا في صَحْفَةٍ بَارِقِيَّةٍ ... جَدِيدٍ[1] أُرِقَّتْ بِالْقَدُومِ وَبِالصَّقْلِ
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إِذَا جِئْتُ طَارِقًا ... وَلَمْ يَتَبَيَّنْ سَاطِعُ الْأُفُقِ الْمُجْلِي[2]

ومن منتجات الأخشاب المشاجب، وهي عيدان تُضمّ رؤوسها ويُفرَّج بين قوائمها وتوضع عليها الثّياب، وقد تُعلّق عليها الأسقية لتبريد الماء[3]، أو لمَخْضِ اللبن.

- إبل جنوب جزيرة العرب ونجائبها، والإبل المتخذة للَحْمها وألبانها ولِلسّانية، وبعض سلالات الخيل العِراب.
- الماشية: ومنها الأبقار التي تتخذ سانية في الزروع، وللَحمها وألبانها، والغنم بأنواعها، فمنها ما يُعرض لأكل لحمه أو شرب حليبه، ومنها ما يعرض لاقتنائه. ومن هنا فقد ازدهرت طريقة حنذ اللحم في تهامة وجنوب جزيرة العرب، وانتشرت المحانذ في أطراف السوق.
- البزاة والصقور والشواهين والبواشق.
- السلاح بأنواعه، كالسيوف اليمانية والهندوانية، والرماح اليزنيّة[4]، والنبال، والدروع، والبَيْض (الخُوَذ)، والدَّرَق، والسكاكين، والفؤوس.
- الرقيق من غلمانٍ وجَوارٍ، يُجلب بعضها من البلاد الإفريقية وبعضها من بلاد الخزر، ولا يمكن الجزم بأن للخزَريّين رواجًا في سوق حباشة.

(1) أظن لفظة (جديد) تكرارًا لمثيلتها في أبيات القصيدة الأولى، وأن الشاعر أتى بكلمة أخرى توافق صفة التأنيث، فأخلَّ بها وغيّبها نقل الرواة!

(2) السُّكّري، المرجع نفسه، ج (1)، ص (96).

(3) الزبيدي، **تاج العروس**، مادة (شجب). وتسمَّى واحدتها في نجدٍ قِنّارَة، وأصل القِنّارة الخشبة التي يعلق عليها القصّاب اللحم، فخُلع اسمها على المِشجب.

(4) نسبت الرماح إلى سيف بن ذي يزن، حين نَقَل فكرة الرأس الحديدية في الرمح. ومظنة بيع الرماح اليزنية في أسواق جزيرة العرب الجنوبية، لأن أنواعًا أخرى يمكن أن تباع في الأسواق الشمالية، كالرماح الرقمية، المنسوبة إلى الرَّقَم في عَدَنة، والواقعة اليوم بين حائل والمدينة النبوية.

- حليّ الزينة: ومنها الحليّ الذهبية والفضية، وهي من ما يستخرج من معدن ضنكان على الأخصّ، وعشمٍ، والقُفاعة قرب الخصوف، وهما موضعا تعدين على الطريق، أولهما شماليّ، والآخر جنوبي، ومعدن الرضراض في اليمن، وهو معدن فضة، ولا أشكّ أن لمعادن بيشة والعقيق رواجًا في سوق حباشة[1]، كما أن جبل الشَّعراء في جنوبي بلاد بارق يحوي أخاديد في أعراضه، كان يستخرج منها الذهب، ولعل عدم شهرته ناجمٌ عن قلة محصوله، وعن نقله بعد غربلته المبدئية إلى مواقع التعدين الكبرى كقرية معدن ضنكان.

ومن الأنواع المستخدمة في حليّ الزينة غير الذهب والفضة: اللؤلؤ: وله مغاصات كثيرة في البحر الأخضر[2]، ويوجد في مجازاتٍ بين تلك السواحل، ومن المغاصات المشهورة: مغاص أوال بالبحرين، ومغاص دهلك، والسَّرَّيْن، ومغاص السّرجة باليمن، ومغاص القُلزُم بجوار جبل الطور، ومغاص غبّ سرنديب، ومغاص سُفالة الزنج، ومغاص أسقطرة، ومغاص جزيرة خارك[3]. والياقوت: وأصنافه أربعة: الأحمر، وهو أعلاها رتبة وأغلاها قيمة، والأصفر والأزرق والأبيض، وللأحمر سبع مراتب: أعلاها الرّمّاني، ثم البهرماني ثم الأرجواني، ثم اللحمي، ثم البنفسجي، ثم الجُلّناري، ثم الوردي[4]. والمرجان: وتتخذ منه فصوص للخواتم، ويستخدم شيء منه للتعاويذ، ولتبييض الأسنان، وتصنع منه المحابر وأنصبة السكاكين[5]. والعقيق:

(1) أورد الهمداني في (كتاب الجوهرتين العتيقتين) في (باب معادن جزيرة العرب) ص (86): «فأما المعادن المعلومة، فمعدن عشم من أرض كنانة، وأحسبه ينسب إلى عشم من قضاعة، لأنه يقال: معدن عشم، وذهبه أحمر جيد، يأتِي رطله بعيار العلوي مائة دينار مطوّقةٍ وأربعة دنانير، وهو جيد غزير. ومعدن ضنكان من أرض كنانة والأزد بينهما... وهو دون معدن عشم في جودة الذهب، ويأتي رطله بعيار العلوي مائة دينار ودينارا ونصفًا. ومعدن القُفَاعة من أرض [الأجدود] من خولان... وهو خير المعادن جميعًا وأقلها وُضوحةً، وأشدُّها حمرةً، ورطله يأتي بالعيار العلوي مائة وستة».

(2) البحر الأخضر في اصطلاح الجغرافيين الأوائل هو بحر العرب.

(3) محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري الشهير بابن الأكفاني، **نخب الذخاير في أحوال الجواهر** (مخطوط منشور على الشبكة العالمية)، لوحة (7).

(4) ابن الأكفاني، المرجع نفسه، لوحة (2).

(5) التيفاشي، **أزهار الأنوار في جواهر الأحجار**، (مخطوط منشور على الشبكة العالمية)، اللوحات (57ب ـ 58ب).

وهو حجر أحمر وأجود أنواعه الشديد الحمرة، ويؤتى به من اليمن، من معادن له بصنعاء، ومنها يجلب إلى سائر البلاد، ومنه تتخذ فصوص الخواتم[1]. والزُّمُرُّد: أفضله ما كان مشبع الخضرة، ذا رونق وشعاع لا يشوبه سواد، ولا صُفرةٌ ولا نمشٌ... ومعدنه بسفح جبل في شندة من أرض البجاة في صعيد مصر الأعلى[2]، ومن أنواعه الزَّبرجَد. والجزع اليماني الذي تعمل منه الفصوص.

ومن أصناف الزينة: العقود، والقلائد، والمخانق، واحدتها مِخنَقة، وهي قلادة محلاة بالدُّرّ واللؤلؤ تكون ضيقة وتلتصق بالعنق، والأساور وهي حِلية المِعصَم، والخواتم، والفُتوخ وهي الخواتم بلا فصوص، والخلاخيل والحُجول وكلا النوعين من حلية الرِّجْل، وحِلية البَريم، والأقراط بأنواعها كالأخراص وحلَق الآذان، والأطواق، والأوشحة، والدمالج والمعاضد وكلا النوعين من حلية العضُد[3]. ويضاف إلى كل ذلك حِلية المِنطَقة، وحلية قراب السيف.

- الحِنّاء، والخِطْر وهو نبات يختضب به مع الحنّاء فيُقَنِّئُ[4]، والكَتَم. ويلحق بتلك: الشَّبُّ، وهو حجارة يُتّخذ منها الزّاج وما أشبهه، وأجوَدُه ما جُلب من اليمن، وهو شَبٌّ أبيض له بَصيص شديد[5].

● مَنَاشِطُ أُخْرَى

ويضاف إلى ما سبق، إمكان إقامة بعض الرياضات أو اللهو، كسباق الهجن أو الخيل، الذي يراد من خلاله اختبار ما يعرض منها في السوق.

ويمكن لنا الظّنّ برفع الرايات البيضاء؛ لشُكر الجماعات والأفراد المحسنين، والرايات السُّود؛ للتشهير بالمفسدين أو المُخِلّين بأعراف العرب.

(1) التيفاشي، المرجع نفسه، اللوحتان (44 ب) و(45أ).

(2) ابن الأكفاني، **نخب الذخاير في أحوال الجواهر** (نسخة إلكترونية)، موقع الورّاق، ص (10).

(3) ابن سيده، **المخصص** (مرجعٌ تقدّمَ)، المجلد (2)، السِّفر (4)، الصفحة (292).

(4) ابن سيده، المرجع نفسه، المجلد (5)، السِّفر (11)، الصفحة (213).

(5) ابن منظور، **لسان العرب** (مرجعٌ تقدّمَ)، مادة (شبب).

● مَنْشَطٌ خَاصٌّ

بعد أن دخلت بارقُ في الإسلام، ومعها قبائل الأزد ومن حولها من كهلان، كتَبَ رسول الله ﷺ كتابَه إلى بارق. ومن المجزوم بحدوثه أن هذا الكتاب قرئ على أسماع الذين حضروا سوق حُباشة بعده، ولعله قرئ غير مرّة في ذلك الموسم، وتناقل أخبارَه الركبان.

● دِيَانَةُ سُوقِ حُبَاشَةَ

يمكن تقسيم زمن الديانة السائدة في سوق حباشةَ قسمَين:

- زمن الجاهلية: ويغلب على الظّنّ تطهير موضع السوق من الديانات والمِلل؛ باتفاقٍ بين القبائل التي شاركت في اختيار مكان السوق، وحين نتأمل في الأرض، نرى ثلاثة أنماط حجرية، يمكن أن تحدد لنا ـ بثقةٍ ـ حياد سوق حباشة في الديانات المتعددة لروادها، فنرى في جبل الخرباء إمكانية قيام عبادة هي أشبه ما تكون مصروفة إلى الظواهر الفلكية، وهي خارج السوق، وفي قزع دحدح والجبيلات المنطرحة بين أرض البياض وجبل الخرباء وفي مسيد المهلّل مدافن جاهلية، تدل على سيادة ظاهرة دينية مشتركة، وفي المحاجي بين السوق ومهب الجنوب نمط حجري قلَّ أن يُكرَّر في مواقع أخرى، ربما كان نظامًا لعبادةٍ وثنية أو نصرانية؛ فنرى هذه الأنماط كلها موجودة خارج السوق، ما خلا قبورًا جاهلية موغلة في القِدَم كانت قريبة من الجِهفة، ربما كانت قبل اختيار ذلك المكان موقعًا للسوق.

وأسوق جانبًا من دراسة للدكتور فاروق أحمد اسليّم، خلصَ فيها إلى ظاهرة التسامح بين أصحاب الديانات في الجاهلية، قال: «وإن في قول صخر الغَيِّ الهُذَليّ يصف سحابًا:

كَـأَنَّ تَـوَالِـيَـهُ بِـالْـمَـلَا ... نَـصَـارَى يُـسَـاقُـوْنَ لَاقَـوْا حَـنِـيـفَـا

ما يؤكد احترام النصارى لغيرهم أيضًا، فصخرٌ يشَبِّه شكلَ السحاب بنصارى يسقي بعضهم بعضًا في عيد لهم، فلاقوا حنيفًا بالتفكير له، وذلك بالانحناء وطأطأة الرأس.

وكذلك كان الحنفاء متسامحين مع المنتمين إلى ديانات أخرى، فلقد بحث الحنفاء عن حقيقة دين إبراهيم، ولكنهم أعرضوا عن امتهان عقائد غيرهم عدا زيد بن عمرو بن نفيل العدَوي، وقد أشير إلى إيذاء قريش له لأنه عاب آلهتها صراحةً. . .

إن تعايش المنتمين إلى الديانات الجاهلية بعيدًا عن التعصب يمثل الدائرة الأوسع[1] للتسامح الديني بين الجاهليين، وهذه الدائرة تشمل دوائر أصغر منها تمثل التسامح بين أتباع كل ديانة من الديانات الجاهلية»[2].

- زمن الإسلام: وفيها أصبح دين الله سائدًا في كل مكان، بحيث يمارس المجتمعون في السوق شعيرة الصلاة داخل أرض السوق وخارجها.

● أَحْكَامُ السُّوقِ

للسوق أحكامٌ خاصة بها؛ لتنظيمها ودرء أسباب فشلها. وقد فصَّلَ الإمام الفقيه أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الأندلسي (213 ـ 289هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ أحكام الأسواق[3]، وهذا ملخَّصُها:

1 - ضرورة إشراف الدولة على ضبط حركة السوق، أو قيام الجماعة بذلك إذا تعذر إشراف الدولة، ومن أمثلة هذا الإشراف:

- تعيين مراقبين فيها.
- توحيد المكاييل والموازين.
- معاقبة مخالفي أنظمة السوق ومعاييرها، بالحرمان من الاتّجار فيها.
- حماية السوق من الأموال المزيفة والنقود المزوّرة، والرجوع إلى أهل الخبرة، وتحكيم الأعراف في عقوبات أضرار اختبار النقد.

---

(1) لا يصح استعمال أفعل التفضيل من غير الإتيان بمفضَّلٍ منه.

(2) فاروق أحمد اسليّم، **الانتماء في الشعر الجاهلي**، دمشق، اتحاد الكتّاب العرب، 1998م، ص (414 ـ 416).

(3) أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف الكناني، **كتاب أحكام السوق**، نسخة إلكترونية عن الطبعة التونسية منشورة على الشبكة العالمية. عناية: جلال علي عامر، ليدن، 1422هـ.

2 - تحديد الأسعار وإزالة الأضرار.

3 - إزالة أنواع الغش والتدليس والغَرر ومنع الاحتكار.

4 - إلزام البائعين بتعيين الأنواع المخلوطة، كالخلط بين لبن البقر والغنم مثلاً.

5 - مراقبة الجودة ومنع ما يضر بأبدان الناس وأموالهم.

6 - منع ما يخالف الشرع أو ما يؤدي إلى ذلك. وأقول: إن هذا لا بُدَّ من سيادته في سوق حباشة بعد ظهور الإسلام.

7 - حماية السوق من ما يؤذي المتسوقين.

● النَّقْدُ في سُوقِ حُبَاشَةَ وَأَنْظِمَةُ الْبُيُوعِ فِيهَا[1]

إن لكل سوق من أسواق العرب طرائق في البيع والشراء، تختلف عن الأسواق الأخرى في جوانب منها، وتتفق معها في جوانب أخرى. لذا؛ فمن غير المجزوم به معرفة طرائق البيع والشراء، والعملة الرائجة في سوق حباشة، حين نحاكي فيها ما كان في الأسواق الأخرى، ولكن ليس لنا بُدٌّ من الحديث عنها، وَفقَ رؤًى قد يصحُّ الكثير منها.

لو لم تكن سوق حُباشة من الأهمية بمكان كبيرٍ عند قريشٍ، لاكتفت برحلتيها إلى الشام واليمن، ولكننا لا نكاد نقرأ من أخبار سوق حباشة إلا ما كان متعلقًا بقريشٍ ومكة في جاهليتها وإسلامها. وقريشٌ - بطبيعتها - قبيلة تمارس التجارة أكثر من القبائل الأخرى، التي شُغِلت بالغارات في ما بينها.

إن اختلاف الفصول التي تقوم فيها سوق حُباشة، وتوسطها بين مكة وأطراف اليمن

(1) أفدتُ لهذا الموضوع من مراجعَ، أهمُّها:
- جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (مرجعٌ تقدّمَ).
- سعيد بن عبد الله بن بنية القحطاني، **تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة** (مرجعٌ تقدّمَ).
- **الموسوعة العربية العالمية**، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط1، 1416 / 1996، ج (25)، مادة (النقود).

وعروض نجد العليا، يزيدان من أهمية حضورها، وتنوع الثقافات التجارية فيها؛ فإن لمكة نقدًا ولليمن نقدًا ولليمامة ذات السيادة في نجدٍ نقدًا.

ولكن يلزمنا التسليم بأنَّ من غير اليسير تحت هذا العنوان، أن نُلِمَّ بما يحدث في سوق حباشة من أنظمة البيوع والنقد؛ حيث تجاهلت المصادر الحديثَ عنها. غير أنه من تحصيل الحاصل أن نتحدث عنها - بإجمالٍ - في منحَيَيْن، هما:

1 - النقد:

فلا مراء في أنَّ من العرب من وَطَّن نفسَه لحضور أسواق العرب التجارية على تباعد مواضعها، وأن لمكة شأنًا في استقطاب العرب لشعيرة الحج في الجاهلية والإسلام.

واختلاف بيئات هذه الأسواق وتأثرها بالممالك غير العربية والقريبة منها، تجعل وحدات النقد الرائجة هي تلك المسكوكة في تلك الممالك المجاورة، ثم إن من يقبض ثمن سلعةٍ في سوقٍ كسوق بُصرَى، فإن وحدة النقد - غالبًا ما - تكون إغريقية أو رومانية، ومن تاجَر في سوقٍ كسوق الجَنَد فإن وحدة النقد الحبشية ستكون رائجة فيها، ومثل هذين الأنموذجين من التجار عادةً ما ينقلون هذه العملات المكتسبة إلى أسواق بعيدة. وإن احتياج أهل مكة إلى التعامل بالوحدات النقدية المرغوب فيها في الشام واليمن، يحتِّم عليهم أن يكون لديهم هذا التنوع في العملات، وحاجتهم إلى مِيرة اليمامة من حبوبها وتمرها، تجعل امتلاكهم ما يمكن أن يفيدوا منه في التعامل معهم على قدرٍ من الضرورة، كالنقود الفارسية، والنقود التي سُكّت في اليمامة بعد حين.

وتزامن قيام سوق حباشة قبل الإسلام بعقودٍ، مع سيادة العملتين الحبشية والساسانية في اليمن، إثر تسلط الأحباش عليها، ثم استنجاد سيف بن ذي يزن بالفرس لإخراجهم منها، فكانت هاتان العملتان من عملات سوق حباشة، ولا نشكُّ في رواج النقود المسكوكة في عهد الدولة الأموية بعد حين.

ومن أنواع تلك العملات: الدينار - وهو من الذهب غالبًا - والدرهم، وهو من الفضةِ، والدانَقُ، والفَلْسُ.

ولا مِريةَ في اختلاف أوزان هذه العملات ونقائها، بين مسكوكات الممالك والأصقاع المختلفة.

ولا أشك في أن في السوق وغيرها من الأسواق أفرادًا، من مهامّهم فحص العملات المشتبه في فسادها وغِشِّها.

2 ـ الوزن والكَيل:

ولسنا بحاجةٍ إلى الإغراق في شرح الأوزان والمكاييل، ولكن لا بد من إشارة عابرة إليها.

فمن أبرز وحدات الوزن المستعملة في أسواق العرب: المثقال، والأوقية، والرطل، والمَنُّ، والقيراط.

ومن المكاييل: الصاع، والمُدُّ، والوسْق، ويكال بها الحبوب والتمر والأقط والزبيب.

ومنها: الزِّقّ، لوزن السوائل، ويختص بالخمر والنبيذ.

«وقد كان الجاهليون يكوّمون ما يريدون بيعه بالتكوُّم كُوَمًا، وقد كان أهل الجاهلية يبيعون قبضة من التمر، أو قبضة من السويق أو الدقيق، وذلك بحسب ما تقبضه اليد»[1].

وربما اتفق أهل السوق على مكاييل خاصة، حين تختلف أحجامها باختلاف بلدانها؛ لتوحيد القياس وتسهيل الفصل في مخالفاته.

3 ـ القروض: شاع نمط التبادل التجاري هذا منذ العصر الأموي، وليس ببعيد عنه الأسلاف، ولعلها كانت على نطاق ضيق في سوق حباشة؛ بسبب موسميته.

4 ـ المقايضة: وتتم بين طرفين، إما بائع ومشترٍ، وإما ممن حضروا السوق من ناحيتين متباينتين، ومن أمثلة ذلك مقايضة الملابس بالمأكولات، أو مقايضة حمل بعيرٍ من التمر بحمل أو بعض حملٍ من الدخن.

(1) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بغداد، جامعة بغداد (مساعدة في النشر)، ط2، 1413هـ/ 1993 م، ج (7)، ص (637).

أَسْبَابُ مَقْتَلِ الْوَالِي الْغَنَوِيِّ وَكَيْفِيَّةُ تَخْرِيبِ سُوقِ حُبَاشَةَ

لعل حضورَ الوالي الغنوي السوقَ كان أولَ مرّةٍ، ومن المسلَّم به أنه لم يشهد أسواق العرب الأخرى؛ لانقطاعها.

ولا بدَّ أن يكون قتله لسبب من الأسباب التالية، أو لسببين منها فأكثر:

- جَورُه وبغيُه على حاضري السوق.
- إذكاء النزاع بين العدنانيين والقحطانيين. وقد يكون الوالي أو أحد أعوانه أذاع بعض قصائد النزاع بين الجِذمين.
- انتصاره لقومٍ أو أفرادٍ ضدَّ نظرائهم من قوم آخرين.
- ضعف الوالي أمام الموالي الأعاجم، الذين كان لهم طغيانهم في مجتمع مكة آنذاك، بحيث كانوا في ذلك الموسم هم أهل الأمر والنهي في السوق، فلا يملك الوالي أن يفعل معهم شيئًا.
- منعُهُ بعضَ المناشط والأعراف التي كانت في السوق قبلَهُ؛ فثار الناس عليه.
- انتصاره لمذهب فقهي يخالف معظم مذاهب الحاضرين. وقد يكون لسلطان والي مكة أثناء كتابة المصادر أثرٌ في إخفاء المؤرخين سببَ الحادثة؛ إما خوفًا منه وإما اتباعًا لرأيه.
- دخوله في فضّ نزاع لم يستطع القضاء عليه.
- النزاع بين جماعات السوق، المختلفِ ولاؤها بين الأمين (الحاكم الشرعي) والمأمون (الخارج على أخيه)، ووقوف الوالي الغنويّ في صف الولاء للمأمون، الذي يتبعه داود بن عيسى. أو أن الوالي الغنوي تمرد على ولاء أمير مكة للمأمون؛ بسبب الحميّة العربية للأمين، التي أذكاها فيه انتصار الأزد للأرومة العربية، فقتله أتباعه، وأدرك داود بن عيسى أنه إن بعث واليًا غيره فربما انخلع من ربقة الولاء له.

ولا بُدَّ أن نأخذ بعين الحسبان أن هذه الأسباب لا تحْدُث مجتمعةً ولا تحدُثُ كلها.

وأما لأيّ سبب أشار فقهاء مكة على أميرها العبّاسيّ بتخريب السوق، فيمكن تصويره ببعض ما يلي:

- اختلاف مذهب الأزد عن مذاهب فقهاء مكة آنذاك.
- زيادة المنافرات بين الجذمين قحطان وعدنان؛ مما يُخشى - جَرّاءَهُ - عصيان الأزد وتمردهم على السلطة في مكة.
- تنامي الخطر المحدق بمن يذهبون إلى السوق، والذي أصبح بسببه يُوجَّه إليها من مكة من يراقبها.
- مَيْل الأزد - وهم العرب العَرْباء - إلى الانتماء العربي الذي كانت تتبناه الدولة الأموية، وهي الدولة التي قضى عليها العباسيون.
- توجُّس داود بن عيسى خيفةً من الولاة بعد الغنويِّ، إن هو أرسلهم؛ خوفًا من خروجهم عن طاعته. ويصح هذا الرأي لو كان الوالي الغنويّ قد خرج عن طاعته!

ويمكن تصوُّر كيفية خراب السوق ببعض ما يلي:

- قطع الأشجار ذات الظل والثمر، القائمة في سوق حباشة، وتخريب ما بقي فيه من مأوى.
- تخريب المساقي والمنشآت المساعدة على رفع المياه من الأودية والآبار في هذه الناحية.
- تعيين والٍ على بارق وما حولها، يكون عينًا وعونًا لأمير مكة، ومن مهامّه منع مناشط سوق حُباشة، حتى إذا انقضت سِنُونَ بعد منعها كان من غير اليسير بعثُها من جديد.
- منع تجّار المناطق المجاورة والمارّين بها من ورود سوق حباشة.
- إقامة سوق أو أسواق بديلة دون موقع سوق حباشة ووراءه؛ يتنامى الاتجار فيها ويزداد؛ فينتهي شأن سوق حباشة.
- تدل الأسطورة الشائعة في بلاد بارق حول الثعبان الذي طرفاه بين بارق ومكة، على أن قوةً قسرية فعلت الأفاعيل في موقع سوق حباشة.

الخاتمة والتوصيات

• خَاتِمَةُ الْكِتَابِ

تقع بلاد بارق اليوم بين البحر الأحمر وسهله الساحلي في الغرب والسروات في الشرق، فهي في الأصدار فوق تهامة وتحت السروات، ويمكن تحديدها ـ بالإفادة من خطوط العرض ـ بأن شماليها يوازي القنفذة في أسفل وادي قنونى، ووسطها يوازي القوز فوق مصب وادي يبة، وجنوبيها يوازي كيادًا فوق مصب وادي حلي، وكلها مدنٌ شرقيّ خط ساحل البحر الأحمر. وفي الجهة الأخرى، فإن شماليها يوازي النماص، ووسطها يوازي تنومة، وجنوبيها يوازي اثنين بني الأسمر (بلَّسمر)، وهي مدنٌ فوق السراة.

وكانت بلاد بارق في مساحة من الأرض، تبلغ نحوًا من ألفَيْ كيلومتر مربعٍ[1]، حيث يبلغ عرضُها أربعين كيلومترًا، ومتوسطُ طولها خمسين كيلومترًا. ذلك ما يمكن الجزم به، وإن كانت مؤشرات المصادر التي ينبغي تحليلها قد تزيد في هذه المساحة نحوًا من ثُلُثَيْها.

ثم إن بلاد بارق احتفظت حتى اليوم بامتدادها بين الجنوب والشمال، وإن كانت زاويتا هذا الامتداد الغربيتين في الناحيتين الشمالية والجنوبية قد انحسرتا شيئًا ما، وأما امتدادها من ناحية الغرب فقد خسرت أكثر من نصفه؛ إما بدخول بعض قبائلها في قبائل مجاورة، وإما بسيادة ظروف مناخية قاسية في تلك الناحية، مثل طغيان الرمال التي نراها في ناحيةٍ من خميس حرب اليوم، ولا يَبْعَد أن تكون أسباب أخرى قد

---

(1) هذه هي مساحة بلاد البارقيين لا مساحة المحافظة اليوم، فليُتَنَبَّهْ!

جرت في العصور التي ضاع تاريخها، كالحروب، أو التبعيات الإدارية الجائرة، أو انحسار الطرق المسلوكة عن تلك الناحية، أو من ما لا يخطر على قلبِ ذي استنباطٍ.

وتُحدُّ بلاد بارق من الشمال بوادي خاطٍ، الذي يجاوزه امتدادها نحو الشمال بأميال قليلة، وتُحدُّ من الجنوب بوادي بَقْرَةَ، الذي تجاوزه حدود محافظتها الإدارية اليوم نحو الجنوب بنحو عشرة كيلومترات. ويكاد وادي شَري يقسم بلاد بارق إلى شطرين متساويين، وهو وادٍ كبير، ينتهي سيله إلى وادي حلي.

وقد شحت المصادر في إيراد ما يجعل موقع سوق حباشة بيّنًا واضحًا كالشمس في رابعة النهار، بل فَتَحَتْ باب الاجتهاد، كَذَيْنِكم البابين اللّذَيْنِ فَتَحَتْهما للاجتهاد في موقعَيْ عكاظ ومجنة، غير أن في عكاظ ومجنة حُرَّاسًا من المواضع، كلما أراد باحث أن يجرهما إلى ديار قومه فضحوه. ولكن سوق حباشة لم يكن لها حراسٌ، حتى من الأوصام أنفسهم، الذين كانت السوق تقوم في ديارهم، مما جعل الباحثين يجرونها إلى ديار أخرى، فانقطعت بهم السُّبُل حين جَرُّوها، فلم يرُدُّوها ولم يطمسوا أثر مَجَرِّها، وظلت كالجَمل الهائج؛ كلما أرادوا أن يطرحوه ليسِمُوه هاج فمزَّق جمعهم.

وحين توارى الحُرّاس عن سوق حباشة، كنّا بحاجةٍ إلى شهودٍ من النصوص أقرب إلى الحقِّ والعدل، إلا أن الإتيان بهم استغرق زمَنًا ـ وإن كان يسيرًا ـ حتى شهدوا لسوق حباشة بأنها في بلاد بارق، فاستيقظ من جرُّوها إلى ديارهم أو إلى ديار غيرهم، فوجدوها قد عادت إلى مستقرّها، فإن كانوا في وَجْدٍ على فراق سُوقٍ سَلَّوْا أنفسهم باعتقالها زُمَيْنًا، فلعلهم يعوِّضون فقدها بالكتاب النبوي ليزيد بن المحجّل الحارثي، لسيادته على تلك الناحية وذريته من بعده.

كانت النصوص الشاهدة كفيلة بتحديد ناحية سوق حباشة، إلا أنها ستجعلها في حيّز غير ضيّق، وحين احتاج الشهود إلى من يزكيهم لتضييق حيّز السوق، كان المزكّون ينطقون في سوق عكاظ وفي سوق مجنة، وكانت أشعار العرب وأيامهم في الجاهلية تؤيد التشابه الكبير بين مواضع الطراد، ومواضع النزال، ومواضع الاستيطان، ومواضع التجارة والأسواق، لا يحقُّ لذي لُبٍّ أن ينقل مثالَ معركة على ظهور الخيل في نجدٍ إلى نَشَزٍ من جبال السراة، ليقول إن المعركة كانت هناك! ولا يحق لأمثاله

الظنُّ باختلاف عادات العرب في اختيار أسواقهم، فيعرفون سعة عكاظ ومجنة، ويتجاهلون ضرورة السعة في حباشة، وهم يعلمون أنها سوق للأزد كلها، ويُرسَل إليها والٍ من مكة يشرِف على أعمالها، فهم يريدون لها أن تكون في أضيق مكان من قنونى، وجُلُّ قنونى بين الجبال إلى الضيق ما هو!

ولم يكن الشيخان حمد الجاسر وعاتق البلادي ليتجاهلا سعة أسواق العرب؛ فقد أسهم الأول منهما في تحديد سوق عكاظ، وأسهم الثاني منهما في تحديد سوق مجنة، فأدركا أن نقل سوق حباشة أو جَرَّها، أو قذفها إلى ما بين الحواري وجِداب القَرْشة اعتداءٌ على تفكير أولي الألباب، وحين لم تتوافر لهما النصوص الشاهدة، تَصَوَّرَ كلٌّ منهما موقعًا واسعًا للسوق بالقرب من قنونى.

لقد تبيَّن من خلال تطبيق النصوص الواردة في المصادر، وتوقيع صفات بعض الأسواق الأخرى على موقع سوق حباشة، أن السوق في ناحية من السهل الكبير الذي في شمالي بلاد بارق، والمسمّى طرفه الشمالي الشرقي خَبْتَ آل حَجْرِي، حيث تتوافر المياه، وسعة النزول، ولينُ الأرض، والقُرب من طريق الجَنَد، فحددتها دون مجرى وادي دحدح من الشمال وبمجراه في الغرب ثم وادي الحَبَاب حتى ينتهي إلى الجِهفة، ثم تُحَدُّ جنوبًا بما يوازي الجهفة من وادي شري حتى منحناه في الناحية الجنوبية الغربية من البيداء، ثم يكتمل الضلع الشرقي بخط مستقيم.

هنا يتحقق المراد من موقع سوق حباشة، بتطبيق النصوص الواردة بشأنه، لا بتطبيق بعضها وتأوُّل بعضها، فتكون سوقًا في مكان فسيح، صالح لنزول الناس، مربوط بالطرق العظمى المارة بالساحل، والطرق التي تسلك في الأصدار، والطرق التي على مساراتٍ في أعالي السراة، والطريق النجدية بين صنعاء ومكة، وتلك المسارات التي تربط بين بلدان أصدار أودية تهامة وغورِ السراة.

كما يتبين بطلان قيام السوق في أي ناحية من وادي قَنونَى؛ للأسباب التي أشرتُ إليها وناقشتها داخل الكتاب. وقد دلت كتابات المعاصرين الذين جعلوا سوق حباشة في قنونى، على أنهم اختاروا موقعًا واحدًا من بين مواقع متعددة، وأنَّ كلًّا منهم رضي من الغنيمة بالتقليد، باستثناء آراء الأستاذ عبد الله الرزقي في إمكان

قيام سوق حباشة في مواقع أخرى، سجّلها في خريطة رمزية، وإن لم تكن واضحة الحدود. على أن البحث عنها في قنونى يُعَدُّ اتّهامًا لنصوص الأقدمين بالنقص أو التناقض.

وتبيّن من خلال قراءة في النصوص الواردة بشأن بَرك الغماد، أن بَرك الغماد موضع في أسفل وادي الأحسبة، أصاب في بعض صفاته ياقوت الحموي، وذكره أبو دهبل الجمحي في القرن الهجري الأول، وسماه واديَ البَرك؛ لاستحالة ورود اسم الأحسبة في ميميته التي أنشأها على البحر الطويل؛ حيث إن الأحسبة لا ترد فيه إلا مجرَّدةً من الألف في أول (أل التعريف) ومن الهمْزة في أولها، فيقال «لَحْسَبَة»، فاستغنى عن هذا التكلف بنسبة الوادي إلى البرك، ثم أورد لغدة قولاً دامغًا، يفيد بموقع برك الغماد، وأنه في أسفل وادي الأحسبة، وأنه ليس البِرك الواقعة في حرة كنانة، من جنوبي حلي، ولعل عدم عثور المحقق الكبير حسن بن إبراهيم الفقيه أو غيره من الباحثين على آثار هذا الموضع، يرجع إلى أن بناءه من الخشب والحشيش كما وَرد في صفة بناء مواضع غيره، ذكر البكري شيئًا منها، أو من الطين، وأدرك بعض هذين النوعين كيناهان كونواليس، فقال في آخر مواضع طريق محايل إلى نقطة حلي، وتسمى سكة الشرف: «كياد: قرية من نحو (250) بيتًا من القش»[1]، وقال عن الليث: «قرية صغيرة، يصطاد فيها السمك، وتتكون من أكواخ طينية قليلة، وثكنات وحصن ومسجد»[2].

• الْخُلاصَةُ

لم يكن البحث عن موقع سوق حباشة بالأمر الهيّن؛ لندرة الحديث عن السوق في المصادر؛ ولأن الذين تحدثوا عنها إنما نقلوا نقولاً بعد خراب السوق، ما خلا الواقديّ، الذي عاصر نهايات السوق وخرابها، فحدد موقعها من طريق الجَنَد، والبُعد

(1) كيناهان كونواليس، **عسير قبل الحرب العالمية الأولى**، تقديم عارف عبد الغني، دمشق، دار العرّاب، 2013، ص (135).

(2) كونواليس، المرجع نفسه، ص (136). وقد نقلت قول كونواليس معيدًا تعريبه؛ إذ لم أطّلع على النسخة الإنجليزية من كتابه.

بينها وبين مكة. ثم إن حادثة مقتل خندق الأسدي ورثاء كثيّر إياه كانت في هذه السوق؛ فدلّت على ما يمكن أن يضيف شيئًا في تحديد السوق.

وقد كان لتقسيم الكتاب إلى فصولٍ ستّة، أثرٌ جيّد في تنظيم الأفكار والنتائج المتوخاة فيها. وأُراني في غِنًى عن إعادة ذكر هذه الفصول. وقد تبيّن لي أن استقراء واقع سوق حباشة من واقع سوقي عكاظ ومجنة، من الأمور الميسرة للوصول إلى موقعها؛ لتشابه أسواق العرب؛ وما يفعله العرب فيها. ولا بدَّ للسوق من علامات يُستدلُّ بها القادمون إليها، ولم تعدم سوق حباشة هذه العلامات، فكانت في ناحية متوسطة مائلة إلى الغرب، أي نحو الجنوب الغربي من خبت آل حجْري اليوم، لا تنقصها السعة والمياه وسهولة الطرق إليها، ولم يبقَ إلا أن يقوم الآثاريون بمَهَمَّتهم في البحث عن معثوراتها وآثارها الشاهدة أو الدفينة، وما صخرة الغار المُكتَّب إلا شاهدٌ على طريق يخترق بلاد بارق، ويمر بهذه السوق.

هذا هو جَهد المُقِلّ، ابتغيت فيه الحقيقة، ولا إخالُني إلا قد قدّمتُ شيئًا عن هذه السوق، فإن بلغتُ به حدَّ الرِّضَى فمن الله تعالى وحده، ولعل السائرين في الأرض الباحثين من أبناء بارق يُتِمُّون ما نَقَصْتُ منه، وإلا فإن كل تقصير هو من النفس والشيطان. ولله الكمال وحده.

• التَّوْصِيَاتُ

رأيتُ أن البحث عن موقع سوق حباشة، ومشاركة من يبتغون الحق لزامٌ عليّ؛ لأن قراءتي في كتاب لغدة الأصفهاني، من خلال مخطوطتين لم تكونا بين يدي علامتنا حمد الجاسر حين أخرج كتاب (بلاد العرب)، واطّلع على إحداهما بعد حين، جعلتني أبحث في المواضع التي ذكرها كثيّر بن عبد الرحمن الخزاعي، وهو كثيّر عزّة، والتي وردت في آخر المخطوطتين، فكان من بينها بَرك الغماد، وأدركت من خلال حادثة مهلك خندق الأسدي ارتباطها بسوق حباشة، وأن الطريق إلى معرفة سوق حباشة يبدأ من هناك.

في ختام هذا الكتاب الذي أَلَّفتُه لأخطوَ منه إلى تحقيق موقع سوق حباشة،

يمكنني عرض بعض المقترحات، التي لا يمكنني أن أسميها توصيات؛ ذلك لأني أراني طالبَ علمٍ، ما زلتُ أسعى للاستزادة منه.

ومن تلك المقترحات جوانب تتعلق بسوق حباشة، وجوانب لخدمة السياحة والتاريخ. ولعل من تلك المقترحات:

• مُقْتَرَحَاتٌ لِخِدْمَةِ السِّيَاحَةِ وَالتَّارِيخِ فِي بِلَادِ بَارِقَ وَمَا حَوْلَهَا

- استنادًا إلى كتاب رسول الله ﷺ لبارق، وإلى أهمية طريق الجَنَد في الجاهلية والقرون الإسلامية المتقدمة، وتوسُّط بلاد بارق بين تهامة والسراة وبين اليمن والحجاز، وارتباطها بالطرق النجدية، ووقوعها بين حاضِرَتَيْ عَثَّر وعَشْم، وقربها من معدن ضنكان، فإن هذه الأرض التي تحلها قبائل بارق وجيرانها، ذات إرث تاريخي غنيٍّ، ونظرًا لاكتشاف بعض النقوش متفرِّقةً في أنحائها، فإني أهيب بالهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني أن تفتح مكتبًا لها في بارق، وأن تتعاون مع أهل هذه الناحية؛ لاكتشاف المزيد من النقوش والكتابات والدلائل الآثارية، بل - وربما - القرى المطمورة، لتأصيل دراسات التاريخ الحضاري لأصدار تهامة وأغوار السراة.

- رصد الطرق المارة ببلاد بارق وأصدار تهامة وأغوار السراة؛ والتثبُّت من أعلامها ومسالكها؛ لتوثيقها.

- تنوع بيئة بلاد بارق وما جاورها من شمالها وجنوبها بين سهولٍ وجبالٍ، ووفرة مياه الأودية المنحدرة من السروات وبعض جبال غور السراة، وتنوع الأشجار والنبات، وبعض أنواع الحيوانات البرية. كل ذلك يجعل منها بيئة جاذبة للسياحة، بحيث يلزم توفير كل ما يساعد على استغلالها.

- الإهابة بوزارة الثقافة والإعلام مضاعفة أعداد الأندية الأدبية الثقافية، وأن يكون لبارق واحد من أوائلها.

- الإهابة بالرئاسة العامة لرعاية الشباب افتتاح نادٍ رياضيٍّ في بلاد بارق، يحمل اسم

بارق نفسها، لاستكمال مقتضيات المكرمة الملكية التي جعلت بارقَ محافظةً إدارية. أقول ذلك بعد أن رأيت كثرة شُبّان بارق في ملاعبهم المحلية المنتشرة.

- الإهابة بوزارة النقل أن تعيد تعبيد طرق بارق والرِّيش الضيّقة وعقبة بَرمة، وسرعة إكمال الطريق الواصل بين محايل والمخواة عبر بارق بمسارين لكل اتجاه، ومواقف غير متباعدة.

• مُقْتَرَحَاتٌ حَوْلَ سُوقِ حُبَاشَةَ

تفخر سوق حباشة وأرض بارق بشرف عظيم؛ حين زارها النبي الكريم ﷺ متاجرًا في مال السيدة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -، ومن حق هذه السوق الاهتمام بشأنها، حيث تُعَدُّ معرفتها إسهامًا في معرفة أحداث السيرة النبوية الشريفة قبل البعثة.

ومن ما أرى ضرورة طرحه هنا من مقترحاتٍ:

- بذلت ما في وسعي في بحثي عن السوق، وآمل أن تنظر الجهات الرسمية المسؤولة إلى هذا التحقيق بعين الحسبان، وبخاصّةٍ الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني؛ للقيام بمسؤولياتها تجاه السوق.

- إرسال الجامعات ذات الفروع المتخصصة بالآثار فِرَقًا للبحث عن معثورات أو ملتقطات، قد تكون مدفونة في بعض تراب هذه السوق، من تلك المواد التي لا يتلفها الزمن، أو من تلك التي كان دفنها سببًا في بقائها.

- تسجيل سوق حباشة في الموسوعات العالمية والبحوث العلمية، وتصنيف موقعها بأنه ذو أهمية تاريخية.

- تحديد سوق حباشة على غرار سوق عكاظ، فهي سوق تهامة التي بقيت قرنين في الإسلام، والإفادة من هذا بما يخدم هذه الناحية المهمة من بلادنا الغالية.

- على كل باحث يبتغي الحقيقة، ألا يُخْضِعَ علم الأنساب للتأويلات والآراء، كأنْ يظنّ التحريف بأسماء القبائل، فيتأولها في غير سياقها.

مُقْتَرَحاتٌ أُخْرَى

- تبين لي أن موقع برك الغماد في أسفل وادي الأحسبة، وعلى الباحثين عدم المسارعة إلى تخطئة النصوص الواردة في مصادرنا التاريخية. والبحث - إن أمكن - عن مؤشرات إن توجدْ تكنْ دليلا على عمارته، وإلا فإن اختصاصه بكونه مرفأً أليق به؛ ذلك لأن موقعه تجاه البحر جيد لرُسُوِّ السفن ولإضعاف الأمواج التي تعترضها جزيرة أم الرقاطي وامتداداتها.

- استمرار الحفاظ على المواضع المسجلة في الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني، وتسجيل ما لم يسجَّل، ومن بين هذه الآثار: الغار المُكتَّب، ونقوش جبلي ثربان وثميدة، والموقع في شرقي حداب القرشة في قنونى، وحفر مجسات خاصة بهذا الموقع؛ لمزيدٍ من معرفة أسراره.

- تتبُّع مسارات الطرق القديمة، ورصد جوادّها بأعلامها وعلاماتها، والتمييز بين الركام لتحديد أعلام الطريق والمدافن والمعابد؛ لمعرفة المزيد من أسرارها، في المملكة العربية السعودية، ورصد الكتابات الصخرية والنقوش على الجوادّ والعقبات.

- سؤال الناس المقيمين قرب هذه الطرق، عن مسالكها التي كانوا يستخدمونها أو شاهدوا المارين بها؛ وبهذا يمكن رصد الأنماط المتأخرة لاستخدام هذه الطرق.

- الحفاظ على موارد المياه القديمة وتأمينها، وعدم دفن التاريخ بدفنها.

- استحداث الهيئة العامة للمساحة قسمًا لتسهيل مهام الباحثين الميدانيين؛ لمعرفة أسماء الأماكن شِعبًا شِعبًا وجبلًا جبلًا وموردًا موردًا، وحبذا مساعدة الباحثين الجادّين برسم خرائطهم.

- تزويد كل منطقة إدارية بخرائط دقيقة، تشمل جميع محافظاتها، وتزويد محافظاتها بما يخصُّها؛ لإفادة الباحثين، ولتصحيح أخطاء بعض الأسماء، إن ظهرت على الخرائط الحديثة.

- عقد ندوة أدبية جغرافية تشرف عليها الأندية الأدبية في مكة والطائف وأبها والباحة وجازان، بالتعاون مع الجمعية الجغرافية السعودية والأكاديميين ومهتمي البلدانيات، للبحث في شخصية الشنفرى الأزدي ونسبه وبيئته ومواطن شعره، وعلاقته بالصعاليك الآخرين، والإفادة من إسهامات من كتبوا عنه، وإشراكهم في هذا العمل.

- لكل ناحية من المملكة العربية السعودية ولكل قبيلة فيها رموز تاريخية، منها من شارك في صناعة أحداث السيرة النبوية الشريفة، ومنها من شارك في الفتوحات الإسلامية، ومنها من حفظ له التاريخ سيرته بقيادة أو إمْرَةٍ أو عِلمٍ شرعيٍّ أو ابتكارٍ، ومنها من شارك في توحيد هذه المملكة الغالية وصناعة نهضتها. وعلى الجهات المسؤولة حفظ ذلك كله، والتعريف به تعريفًا مناسبًا، وعدم الاكتفاء برصد الأسماء في لوحات شوارع المدن، التي هي بحاجة إلى من يُعرِّف بها.

وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلى الله وسلم وبارك على سيّدنا ونبيّنا محمد الأمين، وعلى آل بيته وأزواجه وصحابته ومن اتّبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم بن محمد المقحفي، **معجم البلدان والقبائل اليمنية**، صنعاء، دار الكلمة، 1422 / 2002.
- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1408/ 1988.
- أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب، **التاريخ الكبير**، إخراج: صلاح بن فتحي هلل، القاهرة، الفاروق الحديثة للطباعة، ط1، 1424 / 2004.
- أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، **المصنف**، تحقيق: محمد عوامة، بيروت، دار قرطبة، ط 1، 1427 / 2006.
- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، **الاشتقاق**، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط1، 1411 / 1991.
- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، **جمهرة اللغة**، تحقيق: رمزي منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1987.
- أبو بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمداني، **عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب**، تحقيق: عبد الله كنون، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط1، 1422 / 2002.
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، عمان، بيت الأفكار الدولية، (لم تدوَّن سنة طبعه)..
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الرياض، دار عالم الكتب، ط1، 1424 / 2003.

- أبو حاتم محمد بن حِبان التميمي البستي، **الثقات**، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، بيروت، دار الفكر، ط1، 1395هـ / 1975.
- أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن سيدة المُرسي، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1421 / 2000.
- أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن سيدة المُرسي، **المخصص**، تحقيق: عبد الحميد أحمد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2005 / 1426.
- أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي، **الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**، محمد كمال الدين علي، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1417 / 1997.
- أبو رياشٍ أحمد بن إبراهيم القيسي، **شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي**، تحقيق: داود سلوم ونوري حمودي القيسي، بيروت، عالم الكتب، ط2، 1406 / 1986.
- أبو سعدٍ عبد الكريم بن محمد السمعاني، **الأنساب**، تحقيق محمد عوامة، القاهرة، مكتبة ابن تيميّة، ط 1، 1401 / 1981.
- أبو سعيدٍ الحسن بن الحسين السُّكّري، **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، مكتبة دار العروبة، (لم تُدَوَّن سنة طبعه)..
- أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي، **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله ابن دهيش، بيروت، دار خضر، ط2، 1414/ 1994.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، **التاريخ الكبير**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1422 / 2001.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، **صحيح البخاري**، بيروت، عالم الكتب، ط 5، 1406هـ/ 1986م.
- أبو عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري، **كتاب نسب قريش**، علق عليه: إ. ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1982.
- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، **المسالك والممالك**، إخراج: كمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1424 / 2003.
- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، **معجم ما استعجم**، تحقيق: جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1418 / 1998.

- أبو عبيد القاسم بن سلام، **كتاب الأموال**، تحقيق محمد عمارة، بيروت، دار الشروق، ط1، 1409 / 1989.
- أبو عبيد القاسم بن سلام، **كتاب النسب**، دراسة: مريم محمد الدرع، بيروت، دار الفكر، ط1، 1410 / 1989.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **التبصّر بالتجارة**، صححه: حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي، مصر، المطبعة الرحمانية، ط2، 1354 / 1935.
- أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني، **الأزمنة والأمكنة**، خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1417 / 1996.
- أبو علي هارون بن زكريا الهجري، **التعليقات والنوادر**، دراسة حمد الجاسر وترتيبه، الرياض، ط 1، 1413 / 1992.
- أبو عمر محمد بن عبد الواحد الباوردي، **العشرات في غريب اللغة**، تحقيق: يحيى عبد الرؤوف جبر، عمان، المطبعة الوطنية، ط1، 1984.
- أبو عمر يوسف ابن عبد البر النمري، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، بيروت، دار الفكر، 1426/ 2006.
- أبو عمر يوسف ابن عبد البر النمري، **الإنباه على قبائل الرواة**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1403 / 1983.
- أبو عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني، **الجيم**، ترتيب: عادل عبد الجبار الشاطي، بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 2003.
- أبو عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني، **ديوان أبي دهبل الجمحي**، عبد العظيم عبد المحسن، النجف، مطبعة القضاء، 1392/ 1972.
- أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، **الأغاني**، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، بيروت، دار صادر، ط3، 1429 / 2008.
- أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي، **الخراج وصناعة الكتابة**، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، ط 1، 1981.
- أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، **مجمع الأمثال**، محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السنّة المحمدية، 1374 / 1955.

- أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ليدن، مطبعة بريل، 1306.
- أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، بيروت، دار الفكر، 1995، ج (59).
- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، **المستقصى في أمثال العرب**، بإشراف: محمد عبد المعيد خان، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط1، 1381 / 1962.
- أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، **السيرة النبوية**، مصطفى السّقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1422 / 2001.
- أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي، **جمهرة أنساب العرب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 3، 1424 / 2003.
- أبو المنذر سلمة بن مسلم العوتبيّ الصحاريّ، **الأنساب**، د. محمد إحسان النص، مسقط، وزارة التراث والثقافة، ط1، 1427 / 2006، ج (2).
- أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ط1، 1424 / 2003.
- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، **تهذيب اللغة**، ترتيب: رياض زكي قاسم، بيروت، دار المعرفة، ط1، 1422 / 2001.
- أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، مكة، دار الثقافة للطباعة، ط 9، 1421 / 2001.
- أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكة، مكتبة الأسدي، ط1، 1424/ 2003.
- أبو هلال العسكري، **الفروق اللغوية**، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة، 1418 / 1997.
- أحمد بن سعيد قشاش، **النبات في جبال السراة والحجاز**، المدينة المنوّرة، مطبعة السروات، ط1، 1427.

- أحمد صالح العبادي، **اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية**، صنعاء، وزارة الثقافة والسياحة، 1425 / 2004.
- أحمد طويب سعد المهري، **جوهرة قاموس اللغة المهرية**، أبو ظبي، مكتبة الفقيه، ط1، 1430 / 2009.
- أحمد بن عبد الوليّ البتي، **تذكرة الألباب بأصول الأنساب**، علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 1426 / 2006.
- أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله ابن باز، القاهرة، المكتبة السلفية، 1379.
- أحمد بن محمد الفيومي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، بيروت، المكتبة العصرية، ط1، 1417 / 1996.
- أحمد بن مريف البارقي، **قبائل بارق المعاصرة**، الرياض، ط 1، 1431 / 2010.
- إسماعيل بن علي الأكوع، **دروب الحج**، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، ط 1، 1433 / 2012.
- إسماعيل بن علي الأكوع، **مخاليف اليمن**، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ط1، 1423 / 2002.
- بدر الدين محمود العيني الحنفي، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بيروت، دار الفكر، (لم تدوَّن سنة طبعه).
- بدر الدين محمود العيني الحنفي، **مغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار**، محمد حسن إسماعيل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2006 / 1427.
- تقي الدين المقريزي، **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1420/ 1999.
- جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، **تخريج الأحاديث والآثار**، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، الرياض، دار ابن خزيمة، ط1، 1414.
- جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بغداد، جامعة بغداد (مساعدة في النشر)، ط2، 1413 / 1993.

- حسن بن إبراهيم الفقيه، **مخلاف عشم**، الرياض، مطابع الفرزدق، 1413.
- حسن بن إبراهيم الفقيه، **مدينة السرين الأثرية**، الرياض، مطابع الفرزدق، 1413.
- الحسن بن أحمد الهمداني، **الإكليل (الكتاب العاشر)**، صنعاء، الدار اليمنية للنشر، ط2، 1408/ 1987.
- الحسن بن أحمد الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن عبد الله ابن بليهد، الرياض، مطابع الفرزدق، ط3، 1411 / 1991.
- الحسن بن أحمد الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ط 2، 1429 / 2008.
- الحسن بن أحمد الهمداني، **كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء**، أعده للنشر حمد الجاسر، الرياض، المطابع الأهلية للأوفست، ط1، 1408 / 1987.
- الحسن بن أحمد الهمداني، **كتاب قصيدة الدامغة**، تعليق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، (نسخة مصورة)، لم يذكر فيها مكان الطبع ولا زمنه.
- الحسن بن عبد الله الأصفهاني، [بلاد العرب]، حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، دار اليمامة، (لم تدوَّن سنة طبعه). (صدرت طبعته الأولى في 1388 / 1968).
- الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني، **التكملة والذيل والصلة**، القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1979.
- الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني، **الشوارد**، تحقيق مصطفى حجازي، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ط1، 1403 / 1983.
- الحسين بن علي بن الوزير المغربي، **الإيناس في علم الأنساب**، إعداد: حمد الجاسر، الرياض، النادي الأدبي، ط 1، 1400 / 1980.
- حمد الجاسر، **في سراة غامد وزهران**، الرياض، دار اليمامة، ط2، 1397 / 1977.
- حميد بن زنجويه، **كتاب الأموال**، تحقيق شاكر ذيب فياض، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط 2، 1428 / 2007.
- **ديوان حسان بن ثابت**، تحقيق: عبد أ. مهنا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1414/ 1994.

- **ديوان حسان بن ثابت**، تحقيق: وليد عرفات، بيروت، دار صابر، 2006.
- **ديوان الشماخ بن ضرار الغطفاني**، تحقيق: صلاح الدين الهادي، القاهرة، دار المعارف، (لم تدوَّن سنة طبعه).
- **ديوان كثير عَزّة**، شرح: مجيد طراد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1413 / 1993.
- ديوان النابغة الجعدي، جمع: د. واضح الصمد، بيروت، دار صادر، ط 1، 1998.
- الزبير بن بكار، **جمهرة نسب قريش وأخبارها**، تحقيق: عباس الجراخ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 2010.
- الزبير بن بكار، **جمهرة نسب قريش وأخبارها**، تحقيق: محمود محمد شاكر، أشرف على طبعه: حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، ط2، 1419 / 1999.
- سعيد الأفغاني، **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1413 / 1993.
- سعيد بن عبد الله آل زايد القرني، **المعجم الجغرافي لبلاد بلقرن**، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1423 / 2002.
- سعيد بن عبد الله بن بنية القحطاني، **تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة**، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، 1424.
- **شعر الكميت بن زيد الأسدي**، جمع: داود سلوم، بيروت، عالم الكتب، ط2، 1417 / 1997.
- عاتق بن غيث البلادي، **بين مكة واليمن: رحلات ومشاهدات**، مكة، دار مكة، ط1، 1404 / 1984.
- عادل محاد مسعود مريخ، **العربية القديمة ولهجاتها: دراسة مقارنة بين ألفاظ المعجم السبئي وألفاظ لهجات عربية قديمة (الجبالية والمهرية)**، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 1421/ 2000.
- عبد الرحمن السهيلي، **الروض الأُنُف في شرح غريب السِيَر**، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، ط 1، 1387 / 1967.
- عبد الرزاق بن همام الصنعاني، **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط 2، 1403.

- عبد الله بن حسن الرزقي، **سوق حباشة: دراسة تاريخية موجزة**، مركز الإشراف التربوي بالعرضيتين والمجمع القروي بثريبان، أبها، مطابع الجنوب، (لم تدوَّن سنة طبعه).
- عبد الله بن علي الزهراني، **وادي بيدة: دراسة أثرية معمارية**، الرياض، وزارة التربية والتعليم (وكالة الآثار والمتاحف)، 1428 / 2007.
- عبد الله بن محمد أبو داهش، **أهل السراة في الجاهلية والإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، 1427.
- عبد الله بن محمد أبو داهش، **اليعسوب في فكر وأدب أهل الجنوب**، الرياض، مطابع الحميضي، ط1، 1430/ 2009.
- عبد الله بن محمد الحجيلي، **الديوان النبوي الشريف**، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1430 / 2009.
- عبد الله بن محمد الشايع، **عكاظ: الأثر المعروف سماعًا المجهول مكانًا**، الرياض، مرامر للطباعة الإلكترونية، ط 1، 1416 / 1996.
- عبد الله بن يوسف الغنيم، جزيرة العرب من كتاب **(الممالك والمسالك)** لأبي عبيد البكري، تحقيق ودراسة، دار ذات السلاسل، الكويت، ط 2، 1399 / 1979.
- عبد الملك بن قريب الأصمعي (!)، تاريخ العرب **قبل الإسلام**، محمد حسن آل ياسين، لندن، دار الوراق، ط1، 2009.
- عرفان محمد حمّور، **سوق عكاظ ومواسم الحج**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1427 / 2006.
- عرفان محمد حمّور، **قواعد الأمن في مجتمعات العرب القديمة**، بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، 2000.
- عرفان محمد حمُّور، **مواسم العرب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 2، 1427 / 2006.
- عز الدين علي بن محمد ابن الأثير الجزري، **الكامل في التاريخ**، تعليق: عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1407 / 1987.
- علي بن إبراهيم بن ناصر الحربي، **المعجم الجغرافي: منطقة عسير**، بيروت، مؤسسة خليفة للطباعة، 1417 / 1997.

- علي أحمد الشحري، **لغة عاد**، أبو ظبي، المؤسسة الوطنية للطباعة، ط1، 2000.
- علي بن صالح السَّلُوك الزهراني، **المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران**، جدة، مطابع دار العلم، ط3، 1417 / 1996.
- علي بن محمد العواجي، **الجهوة: تاريخها وآثارها ونقوشها الإسلامية**، الرياض، ط1، 1433 / 2012.
- عماد الدين إسماعيل أبو الفداء الملك المؤيد، **المختصر في أخبار البشر**، مصر، المطبعة الحسينية، ط1، 1325.
- عمارة بن علي اليمني، **المفيد في أخبار صنعاء وزبيد**، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ط 4، 1431 / 2010.
- عمر بن غرامة [العَمرِي]، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: بلاد بارق**، الرياض، ط1، 98/ 1399.
- عمر بن غرامة [العَمْرِي]، **قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام**، الرياض، دار الطحاوي، ط2، 1424.
- غيثان بن علي بن جريس، **بلاد القنفذة خلال خمسة قرون**، الرياض، مطابع الحميضي، ط1، 1432/ 2011.
- فاروق أحمد اسليّم، **الانتماء في الشعر الجاهلي**، دمشق، اتحاد الكتّاب العرب، 1998.
- مؤرج السدوسي، **حذف من نسب قريش**، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط2، 1396 / 1976.
- مؤرج السدوسي، **شعر الشنفرى الأزدي**، تذييل: علي ناصر غالب، مراجعة: عبد العزيز المانع، الرياض، مطبوعات مجلة العرب، ط1، 1419 / 1998.
- مجيد طراد، **ديوان كثير عزة**، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1، 1413 / 1993.
- محاسن بن إسماعيل الحلبي، **شرح شعر الشنفرَى الأزدي**، تعليق: خالد عبد الرؤوف الجبر، عمان، دار الينابيع، ط1، 2004.
- محمد بن أحمد بن إبراهيم الأشعري القرطبي، **التعريف بالأنساب والتنويه بذوي الأحساب**، [قراءة]: سعد عبد المقصود ظلام، أبها، نادي أبها الأدبي، 1409/ 1989.

- محمد بن أحمد العقيلي، **مقاطعة جازان: المخلاف السليماني**، الرياض، دار اليمامة، ط2، 1399 / 1979.
- محمد بن حبيب البغدادي، **مؤتلف القبائل ومختلفها**، إعداد: حمد الجاسر، الرياض، النادي الأدبي، ط 1، 1400 / 1980.
- محمد بن حبيب البغدادي، **المنمّق في أخبار قريش**، تعليق: خورشيد أحمد فاروق، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1405/ 1985.
- محمد بن خلف بن حيان (القاضي وكيع)، **الطريق**، تحقيق: حمد الجاسر وإشراف: عبد الله الوهيبي، الرياض، دار اليمامة، ط 3، 1420.
- محمد بن سعد بن منيع الزهري، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط 1، 1968.
- محمد بن سعد بن منيع الزهري، **الطبقات الكبرى**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1417 / 1996.
- محمد بن عمر الواقدي، **المغازي**، مارسدن جونس، بيروت، عالم الكتب، ط 3، 1404 / 1984.
- محمد بن ماجد بن غنام البقمي، **أجزاع تربة وديار البقوم**، الرياض، لم تذكر دار النشر، ط2، 1436.
- محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، **منتهى الطلب من أشعار العرب**، شرح: محمد نبيل طريفي، بيروت، دار صادر، ط1، 1999.
- محمد مرتضى الزَّبِيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عليّ شيري، بيروت، دار الفكر، 1414 / 1994.
- محمد بن مكرم ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط3، 1414 / 1994.
- محمود بن محمد آل شبيلي البارقي، **الشارق في تاريخ وجغرافية بارق**، جدة، ط 1، 1422 / 2001.
- منصور بن أحمد بن منصور العسيري، **عسير وانحراف المسار**، القاهرة، دار الطناني، 2012.

- **الموسوعة العربية العالمية**، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط1، 1416 / 1996، ج (25).
- نجم الدين عمر بن فهد الهاشمي، **إتحاف الوَرَى بأخبار أم القرى**، تقديم: فهيم محمد شلتوت، مكة، مطابع جامعة أم القرى، ط1، 1403، ج (1).
- نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1422 / 2001.
- هارون بن زكريا الهجري، **التعليقات والنوادر**، ترتيب: حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، 1413.
- هشام بن محمد بن السائب الكلبي، **جمهرة النسب**، تحقيق: ناجي حسن، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1407/ 1986.
- هشام بن محمد بن السائب الكلبي، **نسب معد واليمن الكبير**، تحقيق: ناجي حسن، بيروت، عالم الكتب، ط 1، 1408 / 1988.
- هشام بن محمد بن السائب الكلبي، **نسب معد واليمن الكبير**، تحقيق: محمود فردوس العظم، دمشق، دار اليقظة العربية، (لم تدوَّن سنة طبعه).
- ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، 1397 / 1977.
- ياقوت بن عبد الله الحموي، **المقتضب من كتاب جمهرة النسب**، تحقيق: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 1430 / 2010.
- يحيى وَهيب الجبّوري، **شعر هدبة بن الخشرم العذري**، الكويت، دار القلم، ط 2، 1406 / 1986.
- يحيى وهيب الجبوري، **الملابس العربية في الشعر الجاهلي**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1989.

كُتُب مترجمة إلى العربية:

- كيناهان كونواليس، **عسير قبل الحرب العالمية الأولى**، تقديم عارف أحمد عبد الغني، دمشق، دار العرّاب ودار نور حوران، 2013.

كُتُب باللغة الإنجليزية:

- محمد بن عبد الرحمن الثنيان، **دراسة أثرية لطريق الحج اليمني الأعلى الواصل بين صنعاء ومكة**، الرياض، وزارة المعارف (وكالة الآثار والمتاحف)، ط1، 1420 / 2000.

الدوريات والمخطوطات والخرائط :

- **حُباشة** : مجلة سنوية علمية تعنى بالبحث العلمي في دراسات أدب الجزيرة العربية وتاريخها وتراثها الفكري، العدد (1)، السنة (1)، 1416/ 1995، نشر : نادي أبها الأدبي. مقال (حباشة) بقلم الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه.
- **حُباشة** : مجلة سنوية علمية تعنى بالبحث العلمي في دراسات أدب الجزيرة العربية وتاريخها وتراثها الفكري، عدد خاص بموقع سوق حباشة وبعض أخباره، العدد (15)، السنة (15)، 1430/ 2009، نشر : الدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش، أبها.
- **العرب** : مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري، ج (5، 6)، السنة العشرون، ذوا القعدة والحجة 1405/ آب وأيلول 1985، مقال (حباشة : أشهر أسواق تهامة قديمًا) بقلم الشيخ حمد الجاسر.
- **العرب** : مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري، ج (7، 8)، السنة الثامنة والعشرون، محرم وصفر 1414 / تموز وآب 1993، مقال (مطالعات في كتاب التعريف بالأنساب والتنويه بذوي الأحساب) الحلقة (14) بقلم الشيخ حمد الجاسر.
- **الفيصل** : مجلة شهرية، العدد (215)، جمادى الأولى 1415هـ، مقال (مع أبي دهبل الجمحي في رحلته الشعرية بين مكة المكرمة والبِرك) بقلم الدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش.
- **كتاب الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية**، جامعة الملك سعود، العدد الرابع، 1424هـ / 2003 م، منشور على الشبكة العالمية بصيغة (PDF)، مقال (مع أبي دهبل الجمحي في ميميته بين مكة المكرمة والبِرك) بقلم الأستاذ الدكتور أحمد بن عمر الزيلعي.
- **المجلة العربية**، العدد (242)، السنة (21)، ربيع الأول 1418، يوليو/أغسطس 1997، مقال (حوليات سوق حباشة) بقلم الشيخ حمد الجاسر.
- **الوطن** : صحيفة يومية تصدر عن مؤسسة عسير للصحافة والنشر، العدد (3928)، السبت 1/ 8/ 1432، مقالة (أين يقع سوق حباشة؟) بقلم الكاتب أحمد عسيري.
- **الوطن** : صحيفة يومية تصدر عن مؤسسة عسير للصحافة والنشر، العدد (3998)، السبت 12/ 10/ 1432، مقالة (سوق حباشة : حقائق تاريخية وأهواء بشرية) بقلم الأستاذ عبد الله بن محمد الفقيه البارقي.

- **مخطوط أزهار الأفكار في جواهر الأحجار**، لأحمد بن يوسف التيفاشي (000 ـ 1253م)، (منشور على الشبكة العالمية)، مكتبة الكونجرس، الرقم العام (sm 13) (؟).
- **مخطوط الإشارة في محاسن التجارة ومعرفة جيّد الأعراض ورَدِيِّها وغشوش المدلسين فيها**، لأبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي، الناشر : مكتبة جامعة الملك سعود، الرياض، الرقم (543).
- **مخطوط صفة جزيرة العرب للهمداني**، الناسخ : إسماعيل بن أحمد العيدروسي، 1349هـ، الناشر : جامعة الملك سعود، الرياض، الرقم العام (7939).
- **مخطوط صفة جزيرة العرب للهمداني**، تاريخ النسخ : 908هـ / 1502 م، الناشر : المكتبة البريطانية، لندن، الرقم العام (OR 1883/2)، (نسخة مصورة).
- **مخطوط نخب الذخاير في أحوال الجواهر**، لابن الأكفاني، (منشور على الشبكة العالمية)، مكتبة الكونجرس، الرقم العام (H-1105).
- **أطلس منطقة عسير الإدارية**، إمارة منطقة عسير وكلية الملك خالد العسكرية، الرياض، مطابع الحرس الوطني، 1405 / 1985.
- **الجمهورية اليمنية**، خريطة سياحية، مقياس 1 : 1,250,000، صنعاء، مصلحة المساحة، ط2، 2000.
- **المملكة العربية السعودية**، خرائط متعددة ذات مقياس 1 : 250,000، إنتاج الإدارة العامة للمساحة العسكرية.
- **المملكة العربية السعودية**، خرائط متعددة ذات مقياس 1 : 250,000، إنتاج إدارة المساحة الجوية في وزارة البترول والثروة المعدنية.
- المملكة العربية السعودية، خرائط متعددة ذات مقياس 1 : 50,000، إنتاج إدارة المساحة الجوية في وزارة البترول والثروة المعدنية.
- برنامج (**Flash Earth**) على الشبكة العالمية. [ومنه أفدتُ خرائط الكتاب].
- برنامج (**Google Earth**) على الشبكة العالمية. [ومنه أفدتُ القياسات].

الكتب الإلكترونية :

- أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف الكناني، **كتاب أحكام السوق**، (نسخة إلكترونية عن الطبعة التونسية منشورة على الشبكة العالمية)، عناية : جلال علي عامر، ليدِن، 1422هـ.

- محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري الشهير بابن الأكفاني، **نخب الذخاير في أحوال الجواهر** (نسخة إلكترونية منشورة على الشبكة العالمية)، موقع الورّاق.

المواقع الإلكترونية على الشبكة العالمية:

- فريق الصحراء (جزيرة العرب: أرضها وتراثها.. أبحاث ورحلات وصور) (www.alsahra.org).
- منتديات الرحلات: منتدى الرحلات الأثرية والأطلال (www.alrahalat.com/vb/).
- منتديات مكشات: خيمة المعالم والظواهر والآثار (mekshat.com/vb/).

فهرس الجداول

فهرس الخرائط والصور

فهرس الأعلام

أ

غ

ف

ق

ك

م

فهرس البلدان والأماكن

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ي